عبد الله الطيب

من حقيبة الذكريات





عبد الله الطيب

ولد بغرب الدامر في ٢ يونيو ١٩٢١

والداه الطيب عبد الله الطيب وعائشة جلال الدين الطيب،

تعلم بمدرسة كسلا والدامر وبربر وكلية غردون

بالخرطوم والمدارس العليا وجامعه لندن

نال الدكتوراه سنة ١٩٥٠ — عمل بالتدريس بامدرمان

الاهلية وكليه غردون وبخت الرضا وكلية الخرطوم

الجامعية وجامعة الخرطوم وجامعة لندن وغيرها .

اسس كلية نايجرو بكنو .

كان عميد كلية الآداب بجامعة الخرطوم ثم مديرا لجامعة

الخرطوم ثم مديرا لجامعة جوبا .

الآن استاذ للعربية بفاس بجامعة سيدى محمد ابن

عبد الله ، واستاذ ممتاز بجامعة الخرطوم.

له عدة مؤلفات اهمها المرشد الى فهم اشعار العرب

وصناعتها وهو عضو عامل بمجمع اللغة العربية

بالقاهرة منذ سنة ١٩٦١

من حقيبة الذكريات

١/١٢

عبدالله الطيب

من حقيبة الذكريات

١٩٨٣

الطبعـــة الاولـــى

١٩٨٣

الناشرون : دار جامعة الخرطوم للنشر

المطابعون

المؤسسة العامة للمطابع الكويتية

ذو القعدة ١٤٠٣هـ — سبتمبر ١٩٨٣

بســـم الله الرحمن الرحيــم

والحمد لله جل وعلا • وصـــلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصـــحبه وسلم تسليما كثيرا • اللهم اجعلنا بشفاعته من الناجين • ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حســـنة وقنا عذاب النار • ســـبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين •

تمهيــــــد

كانت كلية غردون التذكارية The Gordon Memorial College
ذروة التعليم فى الســودان الانجليزى المصرى • الســودان الانجليــزى
المصرى ترجمـــة The Anglo-Egyptian Sudan •

وبذلك كانت تُعَنون الخرائط التى كانت تصدرها مصلحة المساحة بحكومة الســودان • ولكن فى الاطالس والخرائط المصرية كان اســمه الســودان المصرى الانجليزى •

كان سبب انشاء كلية غردون فيما زعموا أن اللورد كتشنر بعد انتصــار مكسيمه المبير على حراب الخليفة عبد الله التعايشى وفرســانه فى معركــة كررى ــ التى قد يقال لها أيضا موقعة أمدرمان ــ فى سبتمبر ١٨٩٨م عمد ليأسو بعض الجرح الذى جرحه بدعوة مواطنيه البريطانيين أن يتعاونــوا فيصنعوا مؤســســة تعليمية بالخرطوم تحمل اســم شــهيد الامبراطورية الجنرال غردون ويتألفون بها أهل المســتعمرة الجديدة"آخذين بأيديهم شيئا فشيئا الى مدارج النور والمدنيــة الحديثــة •

افتتحت كليــة غردون ســنة ١٩٠٣ • وكان الناس أول أمــرهم متهيبين لتعليمها محجمين عنه يخافون أن تكون عاقبته الى كفر وتنصير •

واحتيل على بعض المواطنــين فجئ بأبنائهــم وقراباتهم فــردا واثنين وثلاثــة ليظهــروا بذلك ولاءهم للعهد الجديــد • فأقبــل من أقبــل منهم بتقيــة وحــذر •

واقتضت سياسة الحكومة آنئذ أن يجاء أيضا بطائفة من أبناء المواطنــين كانوا يدرسون بالازهر الشريف مقيمين برواق السنارية كشأن الماضــين من أسلافهم فيدخلوا فى كلية غردون لينهلوا من كوثر تعليمها العصرى المتمدن •

حاشية : كان للسودانيين بالازهر الشريف رواق سنار وأنشأه ملوك سنار

الذين كانوا يحكمون السودان فيما بين سنة ١٥٠٣م و ١٨٢١م وكان ملكهم فيما بين سهول كردفان الى البحر الاحمر وفيما بين جنوبى أسوان الى سدود النيل وأزال ملكهم محمد على باشا وكانت تلك بداية استعمار بلادنا.
وكان السودانيون يعرفون باسم السنارية نسبة الى سنار وسنار هذه كانت العاصمة ، على النيل الازرق جنوبى مدنى وجنوبى الخرطوم بنحو من مائتى ميل أو أكثر . وكان للسودانيين رواق آخر يعرف باسم رواق دارفور وكانت دارفور غير تابعة لملوك سنار ، وكانت مملكة قائمة بنفسها نفوذها ممتد ما بين ليبيا وافريقيا الوسطى وبحيرة شاد الى غربىّ كردفان . وكان آخر ملوكها السلطان على دينار قتله الانجليز سنة ١٩١٦ وكان قد أبى أن يطاوعهم على خلع بيعة سلطان المسلمين باسطمبول .

قال الراوى : حدثنا أستاذنا الشيخ جلال ، بذلك كان يعرف فى الكلية أيام كنا طلبة واسمه الكامل محمد مجذوب بن محمد بن أحمد بن جلال الدين ولد سنة ١٣٠٥ هـ بالدامر وتوفى بها فى رمضان سنة ١٣٩٦ هـ ، وكان رحمه الله فى الدفعات الأولى من خريجى كلية غردون يحكى كيف كان التحاقه بها قال ما فحواه أن المامور المصرى الذى كان ببلدتهم قد كان رجلا صالحا لا ينقطع عن الصلاة ولاهلهم محبا وعليهم مشفقا ، فنصحهم أن يبعثوا بناشئة أبنائهم الى الكلية بالخرطوم . وجعل يحدثهم عن التعليم العصرى وفوائده وأن أبناءهم سيكونون أصحاب رتب عالية وأنهم بذلك سيستمرون محتفظين بمنزلة الفضل والمجد التى هم بها معروفون . وكانوا يراجعونه القول ويذكرون له أنهم أهل قرءان وأوراد وأنهم فقراء وأن المدارس شىء بعيد من مذهبهم ويخاغون منه . ولشدة شفقته عايهم جعل يخوفهم من خوفهم هذا بتذكيره لهم أن ماضى بلدتهم ومشايخ طريقتهم فى مناصرة محمد أحمد المهدى معروف وأن الانجليز وهم أصحاب السلطة الآن لايزالون يعتقدون أنكم على ولائكم القديم للمهدية . واعراضكم عن ارسال أبنائكم ولو واحدا منهم على الاقل يقوى الشبهة والشك من جهة الحكام فيكم . وأنتم أخيار وتستحقون كل عون وتكريم . ونصيحتى لكم قلبية وخالصة

لوجه الله تعالى ومحبـــة فيكم وفى شــــيخنا هذا الولى الصـــالح نفعنا الله ببركته • وأحســـوا أن سعادة المأمور صادق فى مقاله ونصيحته فوعدوه أن يفكروا فى الامر بجدٍّ • ثم انهم عقدوا مجلسا وتشـــاوروا ولم يرض منهم أحد أن يرسل ابنه الى الخرطوم • _ " ولكن سعادة المأمور ، ماذا تقولون له غدا ؟ "

_ الرجل نيته طيبة ويريد لكم الخير •

_ أقول لكم • • • •

وقر رأيهم بعد طول جدال على ارسالى • اختارونى لانى يتيم يقولون فى أنفسهم ان يكن فى هذه الكاية خير فهو ما نريده وهو ابننا • وحضر عم لى كان غائبا وكان به عـــرج وكنت أخدمه واحمـــل له الابريق فلما علم الرأى الذى صار اليه ملأ الفقراء غضب وقال لهم اتفقتم عليه دون أولادكم أنتم لأنه يتيم • فما زالوا به حتى أقنعوه بضرورة ارسالى الى كلية الخرطوم • وكان رحمه الله حريصا على بقائى • وجاء سعادة المأمور من الغد • فزعموا له أنى ابن الشيخ نفسه وانما كنت ابن أخيه وصنعوا لى اسما يناسب ذلك ظلت أدرس به حتى تخرجت ثم توظفت •

هذا وكان التخريج من كلية غردون يعطى الرتبة الحكومية والجنيهـــات الحسان والجاه النافع • فحين اكتشـــف الناس ذلك أقبلوا على المدرســـة الجديدة والتعليم الجديد أيما اقبال • ومما يحسن أن يتمثل به فى هذا الباب قول كثير عـــزة الشاعر يمـــدح عبد العزيز بن مـــروان :

وما زالت رُقاك تسل ضغنى　　وتُخرِجُ من مكامنها ضِبابى
ويرقينى لك الراقون حتى　　أجابت حية تحت اللِّصـــاب

وكان كثير عزة شـــيعيّاً غاليا فزعم ههنا أن عطايا عبد العزيز بن مروان كانت بالنسبة اليه كالرقى التى تداوى السموم (جمع رُقْيَة) سلت أضغان قلبه وجعلته يميل اليه وهو أحد رجـــالات بنى أمية بعد أن كان قلبه عـــن بنى أمية كلهم شديد النفور • قوله تخرج من مكامنها ضـــبابى أى تخرج

أحقاد قلبى وتنتزعها والعرب تسمى الضغينة ضبا وتقول هو يضمر على ضب ضغن أى يحقد على • وشبه أكبر أحقاده بالحية التى تكون فى شعاب الجبال • الإصاب بكسر اللام جمع اللصب بكسر اللام وسكون الصاد وهو الشعب الصغير فى الجبل •

كان أحد المشايخ الذين جىء بهم من رواق السنارية الى كلية غردون فى تلك الدفعات الاولى قد تعمقت عنده فكرة الرغبة فى التمدن العصرى • وكان دقيقا ضعيف الجسم • وكانوا يتلقون فى دروس الجغرافيا أن اعتدال الجو مقرون بالذكاء وأن الصناعات والتقدم فى بلاد أوربا لاعتدالها وبرد هوائها وأن بلاد افريقية وآسيا تغلب عليها الحرارة ويندر فيها الذكاء والتقدم وأن المدنية مع الجو المعتدل وهو البارد كأجواء انجلترا وسكتلندا وويلز وفرنسا والمانيا وهولندا وبلجيكا • وذات ليلة باردة فى شتاء الخرطوم — وربما اشتد البرد فيه أحيانا — نهض الشيخ المذكور بعد أن رقد أصحابه الذين كانوا معه فى عنبر الداخلية (العنبر غرفة كبيرة للنوم والسكنى) وفتح جميع النوافذ ثم قال بصوت مسموع ان فتح النوافذ مما تدعو اليه دروس "الأشياء والصحة" لكى يكون الهواء نقيا فى التنفس ولابعاد خطر مرض السل الذى يسببه الازدحام وفقدان الهواء النقى • الاشياء والصحة اسم احدى مواد الدروس التى كانت مقررة يراد منها اعطاء التلاميذ معلومات عامة عن بلادهم وغيرها وأن يلموا مع ذلك ببعض المعرفة عن الامراض والصحة العامة والحيوان والنبات وهلم جرا •

وكانت أرض العنبر ترابا غير مبلوط • وكان يرش من حين الى حين ليثبت • وكانت لرش العنابر جرادل كبيرة تملأ بجرادل أصغر منها • الجردل الصغير وعاء من المعدن كالدلو له يد يحمل بها • ثم يرش العنبر من الجردل الكبير « وهو ضرب من البراميل من المعدن » بالاكواز وما أشبه من الآنية • وخرج الشيخ من العنبر ثم عاد بجردل الرش الكبير يعتله على ثقله فوضعه ناحية من العنبر • ثم ملأه ماء وأخذ يرش التراب وتناثرت قطرات من الرش على الراقدين • • •

ــ ما هذا ؟ ماذا تصـــــنع يا فلان ؟
ــ أرش العنبر ليبـــرد ويعتدل الجو ونتمدن •
ــ أنت مجنـــــون ؟
وأخذه منهم آخذ قوى البنية فقذف به وبجرادله خارج العنبـــر وصب عليه ماءها وأوصد دونه الباب • واغلقوا النوافذ وتركوا الشيخ المســكين يقفقف من البرد فى الهواء الطلق .
ــ تمدن وحدك برّا مع دروس الاشيا والصحة .

•• ••

لما كنا فى المدرســـة الوسطى كنا نتوق الى دخول التجهيزى • كانت كليـــة غوردن التذكارية يقال لها التجهيزى تعظيما لشأنها اذ كانت تجهز الشـــباب بثقافتها العـــالية لوظائف الحكومة الممتازة • كنا نتوق لأن يقـــال عنا : "هو بيقرأ فى التجهيزى" • كنا نعد ذلك هو الفوز العظيم ولا سيما القبول مجانا وداخليا ومع منحة Scholarship لم تكن فى المدرســـة الوسطى منحة ، ذلك بأن المنحة نفسها نوع من التجهيـــز للمرتب • ثم من يكون فى المدرسة الوسطى ينفق عليه ولىّ أمره لصغر سنه •
كنت أقرأ مجانا داخليا فى المدرسة الوسطى • كانت تســـمى الابتدائى Pirmary ثم سميت الوسطى • هذا التغيير فيه رمز الى نوع من التطور كان قد طـــرأ على روح الصراع بين الشـــــعور القومى الناشىء والدهاء الاستعمارى العجوز • كان اسم الابتدائى يتضمن معنى أن التعليم المتمدن حقا يبدأ فى هذه المرحلة لا فى المرحـــلة التى قبلها لان التلاميذ يشرعون من عند أول هذه المرحلة فى تعلم اللغة الانجليزية • واسم المدرسة الوســـطى The Intermediate School يتضمن نوعا من الاعتراف بالمرحلة التى قبلها فتكون هى مرحلة متوسطة بينها وبين التجهيزى • كانت المرحلة التى قبلها تسمى الكُتّاب وكل دروسها باللغة العربية ــ الكتاب بضم الكاف وتشـــديد التاء • وبعد هذا الاعتراف الجديد ســـميت المدرســـة الاوليـــة The elementary School واختفى اسم الابتدائى الى زمان قريب •

كلمة الكتاب بضم الكاف وتشـــديد التاء عندنا لم تكن تدل على مدرســـة القرآن كما فى مصر وبعض الاقطار الاخرى ٠ اسم هذه عندنا الخَلوة وأصل هذا اللفظ من خلوة التعبد ٠ وبلغنى أنه مستعمل بهذا المدلول عينه فى بلاد اليمـــــن ٠

كان هذا التغيير طرفا من التغيير الكبير الذى أُحدث فى سياسة التعليم بعد سنة ١٩٣١ م ٠ وهى الســـنة التى وقع فيها اضراب طلبة التجهيـــزى ذلك الاضراب الكبير الشهير بسبب ما عزمت عليه الحكومة من تخفيض مرتبات الخريجين من ثمانية جنيهات فى الشهر الى خمســـة ٠ وزعمت الحكومة أن الأزمة العالمية الحادة هى التى قد اضطرتها الى هذا التخفيض وأنها أيضا مضطرة الى تخفيض عام فى الوظائف وفى سائر سياساتها الاقتصـــادية ٠ واستعملت لهذا التخفيض اصطلاح اللفظ الانجليزى Retrenchment واشتق الناس من هذا اللفظ الانجليزى كلمة « ترنشوه » أى « فصلوه » من الخدمة فظل يستعمل فى لغة الكلام الدارجـــة زمانا ثم زال ٠

كان الطلبة قد تضامنوا وحلفوا اليمين على ألا يتراجعوا ٠ وأقلق أمرهم الحكومة فأدارت شتى وجوه الرأى والسياسة ووسطت الآباء والوجهاء من كبار الموظفين ورجال الدولة والمشايخ وزعماء البـــلاد ٠ وواجه الطلبة كل أولئك بتحدٍ وعزوف ٠

وخطب السيد عبد الرحمن بن المهدى فى الطلبة وكان ابنه السيد الصـــديق رحمه الله من بينهم متضـــامنا معهم وقال فى ما قاله لهم لما رأى من تحدى مظهر تصلبهم « هذا ليس كلام يا أبنائى ٠ هذا ليس طريقة » ٠ وكان رحمه الله رحب الصدر سخيا عظيم المروءة سيدا حقا ٠ ثم انه أخرج كفارة اليمين من ماله عنهم أجمعين ٠ وتراجعت الحكومة عن قرارها الاول من بعد الى نوع من التوسط ، فرفع المرتب من خمسة الى ستة ونصف ، وظل على ذلك الى أن تغير وضع الكلية نفسها وخلفتها المدارس العليا ٠

لم يكن ذلك الاضراب هو الاول فى تاريخ كلية غوردن ولكن الثانى ٠ كـــان الاضراب الاول فى أوائل فترة انشاء الكلية ، تسبب فى اثارته الذين جىء بهم

من رواق السنارية وذلك أنهم احتجوا على تقديم الطعام بالشوكة والسكين والزبدة والمربة وطالبوا بالكسرة بكسر الكاف والملاح بضم الميم ، الكسرة خبز رقيق من دقيق الذرة المعجون المخمر يسيرا يصنع مبسوطا ، وزعم الدكتور هنزا الالمانى عالم الاثار فى بعض حديثه لجمعية الخرطوم الفلسفية سنة ١٩٦٣ م أن السودانيين القدماء فى دولتهم التى كانت تسمى مروى فى القرون السابقة للميلاد كانوا يصنعون الكسرة ولديهم آنيتها من خمارة ومرحاكة طحين ودوكة عواسة (الدوكة تنور افطح من الفخار والآن قد يستعمل الصاج مكانه والعواسة صنع الكسرة يقال عاس يعوس) وأن كلمة الكسرة نفسها كانت مستعملة بينهم ،

ونجح الاضراب الاول ، وجاءت الحكومة بنساء يطحن ويَعسْن الكسرة ويسوِّين الملاح ، الملاح هو الإدام الذى تؤكل به الكسرة وأخفه الماء والملح وأجله اللحم والمرق وبين ذلك ضروب الخضر ،

ثم أصاب هذه التجربة الفشل ، وعدلت بعد ذلك طريقة تقديم الطعام الى ما استقر عليه العمل من وجبات فطور الفول والعدس والغداء والعشاء بالطبيخ والارز مع العدس أحيانا ومع ذلك رغفان الخبز وشاى الصباح ، ، ولا زبدة ولا مربى ولا شوك ولا سكاكين ، أجل ذلك الى انشاء مدرسة كتشنر الطبية بعد سنة ١٩٢٤ ليكون لتلامذتها امتيازا وشارة تفضيل ،

لم يقع اضراب بعد اضراب سنة ١٩٣١ م حتى انتهت أيام كلية غوردن القديمة بأسرها سنة ١٩٤٥ م وهى السنة التى انتقلت فيها الاقسام الثانوية الى وادى سيدنا (شمالى ام درمان) وحنتوب (على النيل الازرق وشرق مدنى) وانتقال اسم كلية غوردن التذكارية الى المدارس العليا ، ثم أزيل كلا اسمى غوردن وكتشنر باسم كلية الخرطوم الجامعية فى سنة ١٩٥١ م ، وظلت هذه تابعة لجامعة لندن ، فرعا منها وراء البحار ، الى أن استقلت وصدر قانون خاص بها كافل لاستقلالها بعد أن استقل السودان نفسه فى سنة ١٩٥٦ م ، رفع علم الاستقلال وجلت جيوش الاحتلال فى أول يناير وكان مبدأ العمل بقانون الجامعة فى أول يولية وهو مطلع العام

الدراسى وعرفت منذ حينئذ باسم جامعة الخـــرطوم • وكانت فيها ســبع كليات ، الآداب ، والقانون ، والطب والهندسة والعلوم والبيطرة والزراعة • وكان أول من تولى ادارتها الدكتور مايكل جرانت الذى صار فيما بعد مديرا لجامعة بلفاســت بايرلندة الشــمالية سنة ١٩٥٨ م وتتابع بعده مديـــرون سودانيون كان أولهم الاستاذ نصر الحاج على وكان قد درسنا أيام كنا طلبة فى التجهيزى •

حدث تغيير اسم الابتدائى فى آخر سنة ١٩٣٢ م أو أول ســنة ١٩٣٣ م • لم نكن نعلم له سببا ولا أعلمناه أحد • كان لاسم الابتدائى بالعربى ولاسم Primary School بالانجليزى وقع لذيذ فخور فى أنفســنا •

مات أحمد بك شوقى أمير الشعراء فى سنة ١٩٣٢ م • أذكر ذلك جيدا • سمعته من أبى على الأرجح • وكان كثيرا ما ينشـــد ويترنم :

صداح يا ملك الكنا ... رويــا آمــير البلبـــل
قد فزت منك بمعبد ... ورزقت قرب الموصلى
أنا ان جعلتك فى نضا ... ر بالحـــرير مجـــلل
وحففته فى سوسن ... ولففتـــــه بقرنفــــل

الأبيـــــات • •

وسألنا المدرس عن ترجمة الوســطى فقال : Intermediate

المدرسة الوســطى The Intermediate School واستصعبنا هذه الكلمة جدا •

ــ كرروا هذه الكلمة معى : Intermediate

وكررناها وحفظناها وافتخرنا بها :

I am a pupil in the intermediate School

ــ أنا تلميذ فى المدرسة الوســـــطى ،

ــ يا ولد ! ! !

••• •••

ثم كانت وفاة الوالد فى ١٨ من مارس ، الثلاثاء ، سنة ١٩٣٣ م (١٣٥١ هـ)

وما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

وقال أشجع الســـــلمى :

مضى ابن سعيد حين لم يبق مشرق ولا مغرب الا له فيه مادح

وقال البحـــــترى :

أين العبوس المشمئزُّ اذا رأى جنفاً وأين الابلجُ البسام

سكن العُلىَ أودى فهنَّ ثواكل وأبو العُفَـاةِ ثوى فهم أيتام

ويتم بنيه خاصـّــةً أوجع من يتم العفاة ، وهم القصّـاد طلاب المعروف واحدهم العافى ٠ قال الشـــاعر :

وإنّى امرؤ عافى انائى شِرْكَةٌ وأنْتَ امرؤ عافِى إنائك واحد

أى قاصـــد إنائى شركة من الناس جماعة يشتركون فى طعامى وقاصـــد إنائك شخص واحد هو أنت ٠ أى أنا كريم وأنت بخيل ٠

هذا ، وقد اشتد علينا الفقر بعد وفاة الوالد كل اشـــتداد ٠ واضـــطرتنا الحاجة أن نترك منزلنا ليستأجر ونرحل انســكن فى بقايا اطلال دار جدنا عبد الله فى الزمان القديم ٠ كان عيدنا بتلك الدار بعيدا ٠ سنوات مضين ٠ يذكر أيام طفولته الاولى بها اذ هو ابن أربع ٠ كانت أمامها غابـــة لفاء من أشجار الســـنط ٠ كأنه يرى الآن أخته الكبيرة ــ كانت أكبر منه ببضــــع سنين ــ تصعد احداهن للقط القرظ ٠ كان الناس آنئذ يعرفون فائدة القرظ ويجمعونه ويجنون الصـــمغ ويحتطبون ٠

كأنى أرى المحاجين ٠ أرى انسانا يعالج « مُحجانا » (١) ٠ المحجان عود محقوف الرأس لتناول ما بعد من أغصـــان الشجر وهزها ليتســـاقط البرم والقرظ ولتكسير الخشب اليابس منها وهلم جــرا ٠ لعلها أمنا خـــادم الله أم الطيب ٠ ربت الوالد بعد موت أمه ٠ لم يتزوج جدنا عبد الله بعدها وبقى

---

(١) المحجان بضم الميم فى الدارجة عصا طويلة معطوفة لجذب الاشياء وهى المحجن بكسر الميم والمحجنة فى اللغة الفصيحة وقد وقع ضم الميم فى بعض أسماء الآلة فى الفصيح .

أرملا وعمر طويــلا . لم أره ولكن ســمعت عنه كثيرا . رأته أختى وقالت كان أخضر غير شديد الخضرة . رأيت جدى جــلال الدين أبا الوالدة وهــو أخو جدنا عبد الله . أصــفر فاتح دان الى الحمرة . كان رحمــه الله طويلا أصــلع تقدمت به الســن فكان فيــه حنا . كالذى ذكره عــوف بن محــلم الشــيبانى حيث قــال :

إن الثمـــانين وبُلِّغتهَا ... قد أحوجت سمعى الى ترجمان
وبدلتنى بالشطاط الحنا ... وكنت كالصعدة تحت السنان
وجعلت بينى وبين الورى ... عنانة من غــير نسج العنان

الشطاط اعتدال القامة . الصعدة قناة الرمح . عنانة سحابة . شكا عوف ابن محلم انحناء الظهر وضعف السمع والبصر بسبب الثمانين . وكان جدنا جلال الدين رحمه الله وقد جاوزها قوى الســمع والبصر يضــم الخيط فى الابرة فيصلح ثيابه . وكان دمثا لين العريكة كل اللين . قالــوا وكــان أخوه شديدا مر الشــكيمة . قال أستاذنا الشيخ جلال فيما خبرنى به عنه أنه لم يكن يتردد من قولة الحق ولا يعجبه الخمج . قال : وكان يحب قهــوة البن ويتولى عملها بنفسه ولديه جميع آنيتها . ولمــا أخذ جماعة من أهــل البلد خلافة الطريقة الختمية ، وكان من بينهم أخــونا محمــود ، لم يعجبه ذلك ، فكان يقول :

ــ الغبا لخلافة محمود ، (أى ياللغباء لخلافة محمود)

ولما جاء أبوك فى عطلة الكلية الصيفية بعد غيبته الطــويلة ــ اذ قبل ذلك كان فى مصر ــ جاء وعليه جبة وقفطان باكمام جميلة طويلة فضفاضــة وكان عمنا الشيخ الطيب رحمة الله عليه حســن الهندام يعتنى به وكانت كذلــك « الموضة » . ولكن أبونا عبد الله لم يعجبه منظر ابنه بهذا الزى الغــريب ولا غيبته الطويلة وذهابه من مصر مباشرة للالتحاق بالكلية من دون تعريج عليه هو والده الذى كان ملتهب القلب لفراقه أولا :

ــ دحين جيتنى بخــراتيك دى مدلدلها

أى آلآن أجئتنى بهذه الاكياس الفوارغ المتدلدلات ؟

قالوا وكانت الجبة والقفطان زى الكلية فى زمــان مضى • ثم أُلبس طلبة الهندسة والمساحة البدلة • ثم ألبس طلبة كتشنر البدلة • ثم جعل الافندية يلبسون البدلة وصارت الجبة لبس المشايخ والقضــاة الشرعيين • ولبس تلاميذ الكلية الجلابية البيضــاء وعمامة القطن الناعمة الهفهافة • ثم لمــا انتهى أمر التجهيزى وتعددت الثانويات صار زيها الشــورت والقميص — (الشورت سراويل أفرنجية قصــيرة) • وزى طلبــة الجامعــة القميص والبنطلون وزى الطالبات الثوب الابيض • ثم جعل أمر الزى بأخرة تتداخله عناصر كثيرة متنوعة •

هذا ، والطيب الذى فى كنيــة أمنا خادم الله ابن عم للوالد ، أبوه جــدنا محمد • وســـألنا عنه فقيل مات فى بلد التليــان أى ارتريــا فالله أعلم ما صـــحة ذلك •

كنت أســير بجانب النيل فى زمان الدميرة ، أى الفيضـــان • ولون النيل أحمر يستدير حلقات حلقات عند الشاطىء العالى المخيف المنذر بالهــدام • وســـقطت الملابس من على كتفى ووقعت فى البحــر • وكانت ملفوفة فى حزمــة • فانفرطت الحزمة • وأرى الجلابية « المظهرة » تطفو يبتعد بها التيار • وحاولت النزول وكنت لا أعرف السباحة وجعلت أنظر اليها بانهزام مخزى • وذهبت بعيدا واحمر بها لون الدميرة وكان ذلك آخر العهد بها • وانما تعلمت السباحة فى حوض كلية غوردن سنة ١٩٣٧ فى نصفها الثانى فى وقت وجيز وكان الحوض قد بنى فى ذلك العام •

واذكر لما طلب الوالد من ريس المركب أن يعلمنى السباحة • وهذا كان من العجب اذ منعنى رحمه الله من ركوب « التكن » (بضم التاء والكاف) — والتكن مقعد سائق بقر الساقية وراءها شبيه بالكرسى باحدى الســواقى ، أظنها ساقية شيخ البلد رحمه الله ولا أعلم أقال لى ذلك أم قالـــه له غيره أن التكن بسواقى الرباطاب ضــعيف ينبغى الاحتراس منه • وأحســب أحد

الناس حذر من التماسيح • وكان الشاطىء بمقرات عاليا ، أعلى بكثير من شواطىء بلد الجعليين • وكانوا يحفرون جانبا منه بميلان فينزلق عليه الصغار وترد النساء •

والشاطىء من جانبى الدامر عالٍ ولا سيما بناحية الغرب • وكانت المراكب تجر من مسافة بعيدة بحبل طويل ويتكاثر الناس فيمسكون بالحبل وفى بعض نواحى الشاطىء العالى المنهار يوجد التواء وعرق الماء شديد وأذكر مرة أن انقطع الحبل فبعض الناس كان بالبر وحميرهم وامتعتهم فى البحر • وربما جروا المركب على شاطىء جزيرة وسط النيل ذات أعشاب وعشر وطرفاء مشتبكة فترى الأورال تتواثب فى الماء لاذنابها ايقاع • هذا وقد ابطلت البنطونات ذات المحركات القوية فى كثير من قرى النيل مراكب السنط والحراز •

واعلم أن التمساح لا ينهزم عنك كالورل ولكن يتقهقر مستقبلك لا يدبر لانه مقاتل غدار • ومن خبرك أن النيل تمدن وخلا من التماسيح فلا تلتفت اليه اذ صغار التمساح قد يكون طولها ثلاثة سنتمرات أو اكثر شيئا ما وتستطيع أن تسبح فى طول النيل الى ما شاء الله لا تمنعها قنطرة أو سدود ، اذ ما من سد الا وله أبواب لها أوقات تفتح فيها وتسد • وفى الشاطىء ذى الصخور أو الاعشاب يكون التمساح مختبئا يراك ولا تراه • ويشحو فاه ويسكن سكونا لا حركة معه الساعات الطوال • ويعمّر القرون المتتابعات • وقد يبلغ طوله عشرة أذرع والذراع البلدى قريب من ستين سنتمترا • وقد يخطف الثور الجسيم كلمح البصر ويركب على ظهره ويغطس به حتى يموت ثم يتركه بعد فى الطين ليعفن ويلين وهكذا يأكل التمساح فريسته • والتمساح الجاسر ربما عدا على الناس فيصير ورود ماء النيل من الأخطار حتى يقتله الصيادون • وخبرنى من رأى ذلك أن التمساح خطف ولدا بأحد الشواطىء ففزع الناس الى الشاطىء وذهب هو معهم ينظر واذا بالتمساح فى وسط البحر يشق العباب وبين حين وآخر يرفع جثة الغلام عالية كأنه

يتحـــدى بها والناس يعاينون ذلك وهم عاجـــزون وما زال ذلك دأبه حتى اختفى عن الانظار .

كان كلما عبر فى المركب يجد نفســـه غريبا شاذا بغرابة الشـــخص الذى سيكون أفنديا وشذوذه ، الشـــخص الذى لا يعرف كيف يســـتعمل يديه ولا يعترف له بأنه لعله يعرف كيف يستعمل يديه ولا يخلو من نعومة فى نظر أهل البداوة الاقحاح . فكان يتجشم المجذاف ويصـــطنع الخشـــونة يتبدى بذلك . وكان ربما جرح شعوره أن هـــذا من صـــنيعه ينظرون اليه بعجب تخالطه ســـخرية عميقـــة .

هذا النوع من خطر انقســـام الشخصـــية من كان يعلم أنه سيســـتشرى استشراء حتى يصـــل الى جوف الخـــلاء الاجرد ؟ كما يصـــيب انقســـام الشـــخصية الافراد فيكونون به مرضى ، كذلك يصيب المجتمع فيكون بـــه مريضا . ومرض المجتمع أشـــق من مرض الافراد وأعسر علاجا ثم أكثـــر مايكون مرض انقسام الشخصية فى الافراد ناشئا ومتفرعا منه .

ذكرنى أحد من سافروا بالبطانة أنه بينما كان يجتازها فى سيارة والغبار منعقد حوله والسراب يلتمع والحر آخذ بالمخانق اذا براكوبة ، وهى سقيفة جوانبها من الخشب وأبسطة السعف ومعروشـــة بالبروش والثمام ، فيها ثلاجة جاز فيهـــا ببسى كولا باردة . ولبث قليلا فلعلـــه أن يكون شـــارع مرصـــــوف وكشـــك وبار .

وأذكر زمانا غير بعيد زرت بئر المصورات وبئرها بعيدة الغور يورد عليها بالجمال ، يجذب الجمل حبل الدلو من نحو ستين مترا أو أكثر وحول البئـــر العرب ، عربا بدوا صِباحاً والفتيات عليهن « الرَّحط والقرن » الرحُط إزار من سيور الجلد المدبوغ والقرن رداء من ثوب قطنى ذى خطوط حمر ــ وكانت أكثر الفتيات يلبسن هكذا فى أكثر بلاد النيل السّنارى . هذا ثم زرت تلـــك النواحى من البطانة فاذا بأحد الناس يحمل شنطة يتجه الى حيث يمر أحد البصـــات . واذا بآخـــر فى ملابس نظيفة كملابس أهل المدن وبيده راديو

ترانسستر والموسيقا التى لا تمت الى جذوره بسبب •

كنت غريبا أريد أن أنتمى • لو قد عاش الوالد كنت من طبقة أبناء الموظفين المحترمين الطبقة البرجوازية الجديدة ذات المنزلة العالية •

– ياولد ، واطاتكم (أى ارضكم) كتيرة ، هسع الزارعها منو ؟

– ود فـلان

– بيديكم كم (أى كم يعطيكم) ؟

– اتنعشـراوى (أى $^{1}/_{12}$)

– ظالمكم ياولدى • الكِرِجّ (١) سدس • (الكرج أى الكراء) ظالمكم ياولدى الواطة حقتكم • الكـلام اللين يا ولدى بيودر الحق البـين • (يودر أى يضيع كأنها مشتقة من (٢) وذر بتضعيف الذال وهو مضعف الفعل وذر وهو غير مسـتعمل ومضـارعه يذر مسـتعمل)

قال وربما سألنى سـائل متى اشـتغل •

– دحـين مـا قربـوا يرتبـوك ؟

– بعد ما أروح الكلية (أى كلية غردون ، أى التجهيزى)

– ودا متين ؟ (أى ومتى ذلك ؟)

– بعدما أنتهى من المدرسة الوسطى وبعدين أربع سنين فى الكلية .

– يعنى كلهن بعد كـم ؟

– تقريبا خمس سـنين .

– ياولدى دا عُمُر • (بضم العين والميم وسكون الراء) يستبعد المدة ويرانى أضـيع زمنى •

– دحين ما خير تشتغل وتلحق أماتك ديل (أى أليس خيرا أن تشـتغل الآن وتعين أمهاتك هؤلاء ، أى المسكينات ؟)

وكنت أغتاظ من مثل هذه المساءلة •

---

(١) مصدر كرى يكرى كريا أى الاجرة وقلبت الياء جيما •

(٢) فى العامية ودر بالدال المهملة • ويذر فصيحة وفى القرآن « لا تبقى ولا تـذر » اى لا تترك • والتـوديرر بمعنى التضـييع أصـلها من التـرك •

ومرة أكثر أحدهم سؤالى عن حالى فى المدرسة وسكناى • وحدثته عن الطبيخ والفول مرتين فى الاسبوع والعدس والارز والصابون والغسيل •
ـ وكل هذا بالمصاريف ؟

وفهمته أننى لا أدفع المصاريف • وكانت حال الناس حال بؤس وضنك ضارى • كان اللحم لا يأكله أكثر الناس الا عندما يقرمون اليه قرما فيذبحون بهيمة يسمونها كرامة ـ أى صدقة يتصدقون بها على أنفسهم ـ ويقسمون لحمها أقساما متساوية مشتملة على كل شىء من البطن والاطراف والخواصر وتوزن وتقاس بالعين وتؤكل أكلا لما • وكان أهل الحال الحسنة ربما أكلوا اللحم مرة أو مرتين فى الاسبوع • وكان ملاح الشرموط من علامات حسن الحال ، وهو اللحم الناشف من لحم البقر يقطع شرائح ويعلق على حبل فى الهواء والظل وطعمه جيد • فاذا خلا ملاح الويكة من الشرموط (الويكة هى البامية) قيل له « ملاح أم تِمعيفةْ ، كيةَ المرة الضيفة » أى تغتاظ منه المرأة الضيفة كأنه يكويها بها • والملاح الاحمر الذى يصنع الآن مع اللقمة (أى عصيدة الذرة) أكثر ما يصنع من اللحمة المفرومة وهذه لرطوبتها ليست فى جودة الشرموط • وأول ما أقدم الناس على عرض الملاح السودانى لغير السودانيين واثقين من جودته كان بعدما تكرر فعل ذلك من آل عبد الرحمن بن المهدى ، وذكروا أنه قدم ملاح أم رقيقة لعلى ماهر باشا لما زار السودان عام المعاهدة سنة ١٩٣٦ م وأعجبه الملاح ولكن لم تعجبه بداوة اشتراك الناس فى أكله من اناء واحد فقال :

ـ بس لو كان كل واحد معجنته لوحديها !

هكذا بلغنا والله تعالى أعلم •

أم رقيقة إدام رقيق من مرق الضأن أو ما طاب من لحم مع الويكة المدقوقة الناشفة أو المفروكة الخضراء ويحمر اللحم ويجعل اكليلا فوق قدح الكسرة المأدومة بها •

والمعاهدة المشار اليها أعادت لمصر دستور سنة ١٩٢٣ م ويقال أنه خير

دستور دمقراطى كتب واخفاقه يدل على أن الدساتير الديمقراطية انما هى عرف وروح وعمل صادر عن صــدق اعتقاد لا مجرد حبر على ورق • وقد نظمت وأنا تلميذ بالتجهيزى شعرا انتقد فيه فرح الناس بتلك المعاهدة وكان من نصوصها العمل على رفاهية السودان وعودة الجيش المصرى وكان قد أجلي سنة ١٩٢٤ م وقد ضاعت القصيدة ثم ذكرنى الدكتور محمد الحســن أبو بكر زميل الصبا الطبيب الاديب بعض أبيات منهــا :

ان المعاهدة التى أمضيتمو حبر على ورق وسوف يمزق

وقد كان •

هذا وأكثر ما كان يحصــل الناس على الذى يقال له البروتين وربما ترجم بالزلال ، بضم الزاى ، من اللوبياء الحمراء التى يقال لها « اللوبيا العفِن » و « القُسِّيَّل » • كان اكثر الناس يعتمدون عليه اعتمادا ، يجعلونه بليلة • البليلة عبارة عن الحب الذى يغلى على الماء • وبليلة «لوبيا العفن» من حبات اللوبيا وعيش الريف ــ (الذرة الشامية) تغلى معا وهى جيدة فى الصيف لمــا فى مائها من الملح • وقد يؤكل معها التمر وفيها البصل وقد توضع فوقها فحول منه • فهذا غذاء كامل •

فى خلاوى القرآن ــ أى مدارس القرآن ــ كان يخصــص يوم الاربعاء لعمل البليلة وتسمى الكرامة •

يمر الحيران على البيوت نهار الاربعــاء • فهذا البيت يعطيهم مقدارا من الذرة • وهذا مقدارا من الذرة الشامية • وهذا من اللوبيا العدسى • وهذا من لوبيا العفن • وهذا من لوبيا الطيب • وهلم جرا • وما جمعه الحيران يجعل فى أقوات الخلوة وهو مساهمة أهل البلد والآباء الاسبوعية من أجل هذا الغرض • وأول قوت يصنع هو كرامة الاربعاء يصنعها الحيران بخشب الفزعة (أى الاحتطاب الجماعى الذى جمعــوه يوم الثلاثاء •) وكــرامة الاربعاء ، كانت دائما من لوبيا العفن وعيش الريف •

هذا ولوبيا العفـن قد كاد يختفى من الاسـواق الآن • وكان من أهم ما يزرعه الناس فى جروف النيل • يقتاتون منه وتقتات ماشيتهم وينشفون أوراقه وعيدانه ويدخرونها للعلف فى الصيف • وبليلته وهو أخضر تسمى بليلة الفساخ لان حباته تفسخ من قرون لوبيائه الخضر • وبليلة الفساخ لذيذة والاكثار منها ينفخ • ولوبيا العفـن أخضر ويابس يحتاج الى نـار شديدة لينضج نضـجا تاما • وورقه وهو أخضر يؤ تدم به فى بعض بلدان الشمال • والمعروف المعمول به استعمال ورق لوبيا الطيب وورقاته أصغر حجما وأقوى طعما وأغمق خضرة • وكان الوالد رحمه الله يعجب من أكل بعض الناس قراصة القمح وهى أعز الاطعمة بمـلاح ورق لوبيا العفن • وانما ورق لوبيا العفن علف • وورق لوبيا الطيب على جودته أرخص ملاح • وكان يسميه « بشراك » لتعويل أكثر أهل الاسواق عايه •

هذا وربما سخن لوبيا العفن اليابس ويكاش أى يزال عنه قشره الاحمر ثم يصنع منه ملاح طيب المذاق يقال له البربور وذلك أنه لثخن مادته يبربر أثناء طبخه على النار • وكان يقال : « ملاح البربور أكل الراجل التور » أى القوى لا يعنون البليد ، لان الثور فى بلدنـا لا يذكر رمزا للبلادة كما يذكـر الحمار ولكنه رمز للبسالة والفحولة ومما يوصف به الو لى الصالح ذو السر القوى والبأس الالهى • قال الشـاعر :

يا ليلى ناديهم اليـّـه
الكَسّر تيران الديـّـه

أى أهل البسالة فرسان المعركة ذات الدوى • وقال آخر يمدح الشـيخ أحمد الجعلى مؤسس الطريقة القادرية الجعلية بكدباس غرب بربر :

تور كدباس أنواره تـلالى
أحمد أبوى يا راحة بالـى
أنا راجيك تصـلح لى حالى
بالاسرار والكأس الحـالى

وقال الشاعر يذكر السيد الحسن المرغنى :

يا ليلى نادى لى الخاتم
نور ياب درّاً عاتم
الاسرار حاويها وكاتم
وخيل الغيب فوق راسها يلاطم

هذا واذا أرادوا الذم قالوا « يا بقرة » يريدون معنى الجبن والضعف . ولعمرى ليس من حق البقرة أن تجعل للذم علما اذ هى مما تكون جميلة مشرقة بالخصوبة . قال تعالى : « بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » وقديما شبهت العرب النساء الحسان بالبقر الوحشيات .

هذا ، واعلم أن صيفنا كان شديد المحل . البهائم جياع والناس جياع . « والتربال معيشته شقية » كما قالت المغنية . التربال أصلها تربان قلبت لامها نونا أى الفلاح لكدحه فى حفر الارض والتصاقه بالتراب . ومن عنده ثور أو بقرة كان ذا مال . وكانت أداة الساقية غالية والثور الذى يديرها أغلاها . وكان أكثر ما يدير الساقية ثوران أو بقرتان . وقد يسد مسد اثنين الفحل الفرد الجسيم ويقال له بلغة النوبة « أرقو » بهمزة وراء ساكنة والقاف كالكاف مضمومة مشبعة بعدها واو . وكان ثمن الثور الجيد يبلغ عشرة جنيهات أو يزيد وكان الجنيه مالا عزيزا . وكان ثمن حلقة الساقية خمسة جنيهات . ومهر الفتاة البكر لم يطمثها انس ولا جان خمسة جنيهات وكان لفظ المهر غير مستعمل . ولكن يقولون سداد المال وهى أصح لان المراد ما يسد به مال النفقة التى تنفق فى الفراش وتهيئة احتفال الدخلة . يقولون « بنت فلان سدوا مالها بأربعين ريال وخمسين ريال » . وكانت ريالات الفضة هى المفضلة فى دفع سداد المال . وكانوا يقولون الصداق للمهر وهو استعمال صحيح . ويقولون « بنت فلان صافحوها وصداقها كذا وكذا » والصفاح بضم الصاد (١) أى عقدة النكاح . وأقصى الصداق عشرون جنيها وكان كأنه شىء اسمى بعضه معجل وسائره مؤجل الى أجل

---

(١) هل فروا من لفظ النكاح الى لفظ السفاح وقلبوا سينها صادا وضموها ؟

غير مسمى مفصل من معزى وضأن وبقر وحمير وأشياء خيالية وربما ذكروا الطين عودا أو عودين فى الارض الفلانية حدها من السافل (الشمال) كذا ومن الصعيد (الجنوب) كذا والعود أربع أذرع • وانما كان يقع التمسك بالصداق عند الخلف فاذا لم ينجح مسعى الصلح نفضت المسكينة حقها لتفتدى به وكان العرف يقضى حينئذ بأن تطلق ولا تعلق وكان العمل مع العرف جاريا على مذهب الامام مالك وهو مذهب أهل السودان • ولما زالت المهدية وجاء الحكم الثنائى جعلت المحاكم فى باب الاحوال الشخصية على مذهب الامام أبى حنيفة وفى غير الاحوال الشخصية على القانون المدنى المستمد فى أصله من القانون الانجليزى • وكانت عقود النكاح وضروب الوثائق تكتب فى الخلاوى تبركا بها وتودع عند أهل الثقة ورأيت منها أصنافا ثم التمستها من بعد فقيل انها غرقت فيما غرق عام الفيضان الطوفان • فربما ذكر فى بعضها مع الريالات والماشية فى الصداق الآدمية فلانة والآدمى فلان • • • وعلى ذلك قول المغنية :

يا مّ حَكّحِكى القرعات

ود عمى جابْ فَرخات

وكان القرع يحك ويجعل أوانى وكئوسا للشراب • ود عمى ، كناية عن الزوج الذى تترقبه لان أكثر ما كان يتزوج البكر ابن عمها • فرخات جمع فرخة وهى الأَمَة الشابة • أى وسيجىء ابن عمى ويسوق لى فى صداقى أماء يخدمننى • مجرد أمان • ليس معها المسكينة من يحك قرعات كئوس العرس الا أمها • فتأمل •

من كان يستطيع دفع المصاريف المدرسية مع هذه الحالة من الفقر الشديد التى كانت عامة • كان ربع المصاريف ، خمسة جنيهات للداخلى وجنيهان ونصف للخارجى غاية ما يصار اليه من التخفيض • وكان انما يقبل بربع المصاريف اثنان أو ثلاثة فى كل دفعة جديدة •

لم يكن وراء الربع من تخفيض الا المجانية وهذه فرصـــتها اذا واتت لم تكن الا واحدة فى الدفعة • وادخل ثمن المصاريف بأخرة حين جعلت سياسة التعليم تتغير شيئا فشيئا بعد المعاهدة •

كان اكثر أبناء البلاد من الذين يرغب آباؤهم فى تعليم المدرسة رغبة أكيدة لا يســتطيعون اليه سبيلا لعجزهم عن دفع المصاريف التى كأنها انما كانت مقدرة على افتراض وجود مســتوى براجوازى من الدخل الســـنوى أو الشهرى لم يكن حقا بموجود عند عامــة « أولاد البلد » ــ أى أبناء البلاد الاصــــليين •

لم يكن ينـــال التعليم العصرى الجـــديد الا أبناء القادرين من الموظفـــين والتجار والوجهاء والعناصر التى استقرت بالسودان بعد الفتح الأخير من المسيحيين والمولدين والمستوطنين • كانت سياســة الحكام تحرص على أن تمزج بين أهداف تعليمها الانسانية وضمان الولاء لها فى بلد انما تغلبت عليه بقوة الحديد والنار •

حدث نوع من التوسع فى التعليم بعد سنة ١٩٢٤ لما أحســت الحكومة بضرورة الاستعانة بأولاد البلد فى الوظائف التى كان يشغلها المصريون وقد أبعدوا بعد حوادث تلك السنة • من ذلك التوسع مثلا انشاء مدرسة كتشنر الطبية وفتح مجال القضاء المدنى لبعض خريجــى التجهيزى • ولكن بعد أن اضرب تلاميذ الكلية ســنة ١٩٣١ م وأبرزوا أنيابا سياســية وحلفوا متضامنين أضمرت الحكومة على التعليم غضبا فجعلت تضيق من فرصــه أقلت من المجانية حتى أوشكت أن تبطلها • وشددت فى أمر المصاريف بحجة ظروف الازمة العالمية وانتهزت انخفاض عدد الملتحقين بالمدارس لعسر دفع المصاريف فأوصدت بعضها مثل حلفا والدويم وصيرت بعضها نصفيا يقبل عاما ويغب عامــا مثل أتبرا ــ هذه كانت تامة على زمــان ناظرها المصرى عبد الله العربى صــاحب كتاب الترجمة من العربية الى الانجــليزية ومن الانجليزية الى العربية وهو من أجود ما ألف فى بابه والآن عزيز الوجود •

حكاية : قالوا كان عبد الله بك العربى رجلا عاتيا • وكان معلم منحرف عنه يعرض به فى دروسه ويكتب على السبورة فى حصة النحو ويقول بصوت عال مسموع يســمعه من يكون بالجــرة خارج الفصــل :

ــ العربى ثقيل يا أبنائى •

قالوا فاقتحم عليه الناظر الجبار يوما ودفع به خارج الفصل وكان ذلك من أيام مدرسة أتبرا الابتدائية يوما مشهودا • قالوا وكان عبد الله العربى من قوته يكسر لوح ثلج السكة الحديد الشديد الصلابة بضربة واحدة من حرف راحــة كفــه •

رجع الحديث :

كنا نحن لما قبلنا بالابتدائى (المدرسة الوسطى) نحوا من أربعين كلنا ، غير واحد مجــانا ، بالمصاريف ما بين كاملة ونصــف وربع ــ كاملة داخلى عشرون جنيها وخــارجى عشرة جنيهــات • وجعلت أعدادنا بعد أول يوم تنقص بسبب المصاريف ثم انضاف الى ذلك سبب أو أسباب أخر •

كان المدرسون مشايخ يلبسون الجبة والقفطان والعمة وأفندية يلبسون السترة والبنطلون والكرفتة والقبعة الهندية (التوبى Topee) وكان الناس يرون أنها حرام وكذلك البنطلون حرام لانه محــدد • ثم قبلوهما ، وأما الكسكتة فظلوا يعدونهــا حراما ومن يلبســها مقاربا للكفر • وكانت المجلات المصرية تجيئنا بصورة بعض الزعماء مثل النحاس باشــا ومحمد محمود باشــا وهم فى طريقهم الى لندن وأوربا وعلى رءوسهم الكســكتة فنستشعر فى قلوبنا استنكارا لذلك وكان بعض الافندية من المدرسين وغير المدرسين يتحرجون من البرنيطة ويلبسون الطربوش الطويل الاحمر • وقال بعضهم أن الطربوش يسبب الصلعة • وكان بعض الافندية يتحــدى بلبس الكســكتة لا يبالى •

كان المدرسون المشايخ مثل الشيخ عثمان ابراهيم رحمه الله أشبه بالآباء وزى الجبة والقفطان كان مألوفا لدينا من المدرسة الكتاب (الاولية) كانوا

يدرسون الحساب والعربية والدين وكان فيهم حنان والقسوة منهم بعيدة جدا • من أكثرهم بعيدة جدا • وأولو الطربوش من الافندية يقاربونهم • والمتقدمون شيئا فى السن • وكان من الافندية المدرسين قساة جدا • يضربون بالكف ويركلون بالقدم ويجلدون بالسوط ويضعون الاقلام بين الاصابع ويضغطون فيكادون يكسرونها • ومنهم من كان ينفعل انفعالات جنونية ويضرب برجليه على نحو « خطوة تنظيم » ومنهم من كان يتلفظ بأقذع الالفاظ وربما اشتط فخرق القميص نكاية بالولد الفقير الذى لم تتكسر شوكته بالضرب ليغيظه فى واقعه الاقتصادى • شىء غاية فى الانحراف •

ومرة ضرب أحدهم تلميذا كفا ولما رأى ما يدل على احتجاج فى وجهه ضربه كفا آخر وكفا ثالثا ثم كفوفا متتابعات ، ثم أخرجه تحدى ذلك التلميذ البارد عن طوره فواجه جميع الفصل ، وكانوا واجمين رعبا وهولا :ـ

ـ أنا أرفتكم كلكم

وقال أحد التلاميذ يهمس :ـ

ـ المدرسة تبقى فاضية •

ـ والمدرسين ما يلقوا شغل •

وكأنما زلزلت الارض زلزالها •

وكان الضغط ومحاولة كسر الانف كأنما هو مفتاح روح المدرسة الوسطى عند كثير من الافندية المدرسين الشبان • وكانت لناظر المدرسة صولة ورهبة والفراش الذى كان يعاقب التلاميذ بالخيزرانة كان عليه كلوح يستمده من سلطان الناظر • وكان بعض النظار من المشايخ ، الا أن عنصر الافندية كان أكثر وغلب آخر الامر • وكان ضابط المدرسة أبدا من الافندية ، كان كالنائب عن الناظر ، ويمثل حزم المؤسسة وجانبها التنفيذى ذا المظهر النشيط شبه العسكرى • وكان يشرف على طابور الصباح ويعلن الاوامر الصباحية فيه وعلى طابور نهاية اليوم ، ويعلن فيه أوامر المدرسة لالعاب بعد الظهر ، ويشرف على المعاقبة الجسدية العلنية التى تكون أمام جمهور الطلبة بأمر حضرة الناظر وهى الجلد بالخيزرانة • وقد يخرج الناظر من مكتبه فينظر من بعيد والجميع يعلمون أنه رب الدار •

الطابور غير عربية على الارجح وان تك عربية فهى على وزن فاعـــول من طبـــر بطاء مفتوحة وباء مفتوحـــة أى قفز والطابـــور الصف المرصوص •

فى الداخلية كان التلاميذ يبغون أن يسيطر بعضهم على بعض • وكان مما يقع فى حياة الداخلية الارهاب والغمز واللمز والتكتلات والعصبيات الاقليمية وما يجرى مجراها ، ومحاربة الفردية واســـتغلال الذات وهذا أمـــر كان لا مفر منه حيثما اتفق حمل الناشـــئة على السكنى معا فى العنابر فى مجموعات كمجموعات الجند • وكان الخوف كأنه جزءا لا يتجزأ من طبيعة النظـــام • وكان قلما ينام التلميذ الجديد وهو غير خائف•وكانت الاحلام فيها الكابوس والرعب المحض • ولما كانت الداخلية هى قلب حياة المدرسة فروحها كـــان يسرى الى حياة الخارجية أيضا • على أنه كان مما يسود فى الداخليـــة روح دينى طيب ويكون بين التلاميذ متدينون يقتـــدى بهم اخـــوانهم فيشـــجع ذلك بينهم أنواعا من المنافسة الحسنة • وكانت تقام بالداخلية ليلتا الجمعة والاثنين ولا ينقطع أكثر التلاميذ عن صلاة الجمعة •ومنهم من كان يحرص على أن يصلى الجمعة كل أسبوع فى غير الجامع الذى صلاها فيه الاســـبوع الذى فات طلبا للبركة وليكتشف بذلك أيها أجمل خطبة وقراءة أمام • وأخذ بعض التلاميذ المتحمسين الطريقة القادرية على أحد شيوخها ، كان معروفا بالصـــلاح تدركه حالة من عنـــد بداية الذكر الى آخـــره • وكانت الثقافـــة الدينية حسنة ويستعان بها ويستعان بأحزابها ودعواتها على سلطان المدرسة المخيف • ومن خير ما كانوا يتنافسون فيه قراءة القرآن • ورأيت مصـــحف الملك المطبوع لاول مرة تلك الايام • وكانت الفطرات الريفية لم تزل غالبـــة على الناس ، ورقابة مجتمع التلاميذ بعضهم بعضا يهيمن عليها جناح العرف ولم تكن رقابة البلد عن كل ذلك بمعزل • وكان فى ذلك خير كثير •

هذا وأعلم أصلحك الله أن سعادة كل مجتمع اذا تأتت له ظواهر أسبابها مرهونة فى الحقيقة باستمرار قبول أفراده لقيم عرفه الذى فرضه عليهـــم منذ الزمن البعيد قبولا عن رضا نفس وكمال اقتناع • وأعلم أن أول شـــقاء

المجتمع حين تستمر قيم العرف مفروضة بحكم العادة والمحافظة ويكون قد داخل قبول الناس لها نوع من التردد وعدم الاقتناع وفقدان طمانينة الرضا وأول ضعف يصيب كل عُرف انما ينشأ من منشأٍ خفِى وعلى غير تنبهٍ من الناس • ومن أفعل أسبابه غزو الاجانب • ومما قد يتفرع عنه أن يأخذ الجيل الناشىء بأسباب عيش جديد يشعرون بذلك أو لا يشعرون • ولم تكن سكنى عنابر الداخلية ودفع المصاريف الظاهرة أو المقدرة من أجل ذلك من عرف الناس • انما كان هذا كله مع نظام التعليم الجديدة التى اندفع الناس اليها يتزاحمون ، جميع ذلك بدعة ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار • فلا غرو ان تبع ذلك اضطراب فى قيم العرف عظيم ، أحال جهد التمسك بهن الى نوع محافظة كالنفاق ، وجُهد طلب التجديد الى ضروب من المروق غليظة غثة سوقية رعناء ••• فتنة بلاء كجهنم المجرمين ، « انه من يأتِ ربَّه مجرما فإن له جهنمَ لا يموت فيها ولا يحيى » •

كان الناس يرسلون صغارهم الى قراباتهم وذوى عشائرهم فيسكنون مع أسر الاهل فيسعهم ما يسعها من معيشة وتوجيه وتأديب • وقد يقوم بعض أهل الفضل مقام أولى القربى والعشيرة • ومن يهاجر من كبار السن تُؤوِه الخلوات وأهلها بسخاء العرف الموروث •

وأقدم الناس على تعليم البنات فى بلداتهم بحذر شديد • وما قبلوا أن يغتربن من أجل التعليم ويسكن فى داخلياته المنظمة الا عندما دعت الحاجة والضرورة واجماع قبول الناس لذلك وهم كارهون •

فى زمان الدفعات الاولى كان مدير الكلية ومدير المعارف معا المستر كرى (السير جيمز كرى Sir James Currie) • وكان ينوب عنه فى مباشرة ادارة الكلية على نوع من شبه انفصال ناظرها هدايت بك • وكان من خريجى اكسفرد • قال استاذنا رحمه الله انه كان أنيقا فى مظهره ويصفف شعره ناعما ، ويبقى شعره على الهيئة التى صففه بها ، وكان يمر براحة يده فوق رأسه فوق شعره بمقدار سنتيمتر أو بوصة ولا يلمس شعره بأصابعه أبدا ،

فقط يحرك أحد أصابعه يشير بذلك الى نوع من الحك الرمزى للموضع الذى ربما يكون قد أكله . وكان هدايت بك رجلا صارما يخافه كل الطلبة والمدرسين والفراشين . واذا خرج من مكتبه يتفقد الأحوال كان كما قال الفرزدق فى يزيد بن المهلب :

واذا الرجالُ رأوا يزيدَ رأيتَهم   خُضُعَ الرقاب نواكِسَ الابصار

قال : وكان لهم مدرسون من أهل العلم والفضل مثل الشيخ عبد الرءوف سلام والشيخ خلّاف والشيخ الجداوى والشيخ الخضرى صاحب التاريخ وكان يدرسهم الخط الشيخ أبو المجد وكان خطه جميلا النسخ والثلث والرقعة والفارسى ويتعاطى الشعر . قال : وشعره وسط وأرسل تلغرافا يستعطف به الخديوى لما دخل ابنه فى المدرسة الحربية .

بمصر فى حربية   يدخل صبرى ابنى النبيل

ودفع مصروفاتها   متعذر أو مستحيل

ويستقيم الوزن بتسكين التاء ضرورة أو بالوقوف على مقطع الحرف كما زعم المعلى الطائى (١) .

هذا وكان المستر كرى «درويش نصارى»، لا يهتم بمظهره ويركب بغلة له ويترنم ، وكان الناس لا يخافون منه كما يخافون من هدايت بك ، لما يرونه من مظهر سبهلليته . ولكنه كان أمرأ ذا دهاء . ودبر سياسة التعليم كلها فى تلك السنوات الاولى التى تولاه فيها وكان يمر على جميع المديريات ليتحسس امكان انشاء المدارس وليفتش على ما أنشأه منها . وكان حين يركب بغلته ويمر فى الكلية اما فى طريقه الى مكتبه أو منصرفا عنه لبعض شأنه يترنم بصوت مسموع ،بغلهِ بتاعى . كلية بتاعى . للاّ .. للاّ .. للاّ .. ويجعل الغين من بغله كالقاف التى كالكاف مثل حرف G فى كلمة good ولايقدر على عين بتاعى فيجعلها همزة «بتائى» ولايؤنثها . وكان مرة بعد مرة اذا جاء

---

(١) من اوائل شعراء المولدين بصرى ذكره ابن المعتز فى طبقاته وقال فى مغنية :-

وتمزج بين السجع والرجز فى الغناء   وتسكت من حنق على مقطع الحرف

وليراجع البيت ومراده انها تسكت على جيم الرجز وهذا البيت يدلك على معرفتهم اصطلاح المقطع فى ذلك الزمان القديم فتامل .

راكبا بغلتـــه ورأى هدايت بك مارا يترنم بأغنيته تلك وهـــو يهز رأســـه ف دروشـة : بغله بتائى ، كلية بتائى ٠٠ لللا ٠٠ هدايت كمان بتائى !!
وهدايت بك يسمع ولا يقول شيئا ،وكذلك جميع المدرسين والطلبة والفراشين

كانت اللغة الانجليزية أهم مواد الدرس فى المدرسة الوسطى ، يليهـا الحساب ، ثم اللغة العربية ، بعده المواد الثلاث الرئيسية تجىء الجغرافية والتاريخ والخـــط والرســـم والدين ٠

كان مدرس اللغة الانجليزية له ســوط دقيق صــغير ، وكان أقرب أدراج التلاميذ اليه يســميه « السلخانة » وكان له يوم بؤس يختبر فيه التلاميذ وما كان ينجو من عذابه يومئذ الا القليل ، ثلاثة أو أربعة ، وكان كلما أخطأ تلميذ دعاه الى السلخانة وقال له ارفع جلابيتك ويرفـــع المسكين جلابيتـــه ويقع عليه السوط الاليم ، فكان بعض التلاميذ ربما لبسوا ردا كاكى ثخـــين تحت السروال ، (الردا هو الشورت والكاكى قماش مخضر اللـــون كثيف ورهيف من القطن) وكان أحد زملائنا قلما ينجو من ذلك الســـوط ، وكان قلب المدرس قد أُشرب حب ضربه إشرابا ، وكأن مجرد منظره كان يغيظـــه وكان هذا لا يجيب الا مخطئا ويزيده الخـــوف غباوة ، وتزيد غباوته قلب المدرس عليه تغولا وقسوة ، وكانت للانجليزية عشر حصص فى الاســـبوع كل حصة منها بالنسبة اليه عذاب مصبوب ولا سيما حصة الاختبار الكبير ، وكان الاختبار الكبير فى حفظ الكلمات ، وذات يوم من أيام الاختبار الكبير قال له المدرس : (يالله على الســـلخانة ٠) وذهب البائس وانحنى ٠
ــ ارفع جلابيتك

ورفع المدرس يده بسوطه القصـــير الدقيق كالثعبان المصـــنوع من جلد « العينسيت » أى فرس البحر ، ولكن الولد كان قد « قام صـــوف » ٠٠ أى هرب ، أسرع من كل أرنب ومن أى ولد ولم نر الا غباره لم القه أنا بعد ذلك الزمان الا بعد نحو من عشرين أو ثلاثين سنة فى احدى المصادفات ٠

ما زال بنا سوط « السلخانة » وعسر المصاريف حتى صرنا فويق العشرة

بعد أن كنا نحو الاربعين • انضـــاف الينا اثنان أو ثلاثة فى ما بين الاولى والرابعة وفارقنا اثنان أو ثلاثة •

كنت اعتقد اعتقاداً راسخا أن أوليتى وتبريزى لا غيره هو ســبب قبولى مجاناً داخليا • اعتقاد كاد يكون لو لا لطف الله شجرة ذات ثمار مُرة • وذلك لما وقع منه فى النفس أن مكافآت الحيــاة تنال بالكتابة والقراءة وتجــويد تحصيل الدروس وانتظار الانصاف • ولله در شوقى اذ يقول :

وكم منجبٍ فى تلقى الدروس تلقَى الحياةَ فلم ينجب

ولقد رأيت وسمعت أبى اذ يخاطب المفتش فريد عطية واذ كتب هذا بعد مدافعة « مجانا » بقلم الرصاص ، أى فى ذلك نظر ، بدأ بالميم وأعاد قلمه عليها من اليسار الى اليمين واذكر شعورى المختلط آنئذ •

كان طويلا يوم القبول • واذا بالمقبولين من مدرستنا حين اصفر العصر فى طابور صغير أمامنا مدرس فى سترة وبنطلون ينادى اسماءنا • والتفت أريد أن أجد أبى • وانتهرنى المدرس بعلوه الافندى غير المألوف وســألنى لماذا التفت • وتلعثمت وخزيت أن أقول أين أبى ؟ فقلت « مدرســنا الذى كان معنا » وأنا أعنى أبى وشـــعرت بهزيمة روح وانكســار • وزجــرنى المدرس الافندى مرة أخرى • • • •

قرأت فى كتاب الكامل لمحمد بن يزيد المبرد أن أحد الخوارج طعن فتى من عسكر المهلب حديث العهـد بالقتال فلما أحس هذا بالرمح صـاح يا أماه واجتذ به الخارجى منه وتركه ليموت وارتجز لا يبالى :

أمك خيرٌ لك منى صاحبا تسقيك محضا وتَعُلُّ رائبا

ما كان أشبه حالنا فى تيه اقتحام طريق التجهيزى بحال ذلك الفتى الذى دفع به تدبير الحجاج ملك بنى أمية الى رماح الخوارج •

••• ••• •••

وقال لى الذى كان يسألنى وفهمته أننى لا أدفع المصاريف أنه لابد أن كان أبى يهادى المدرسين والنظار والمفتشين فلذلك قبلونى مجانا • وأضاف آخر يؤيد ذلك بآية ما زعمه من أن أبى كان يتردد على ناس المدرسة الوســطى

بمقطف مملوء لا شــك كان هدية الناظر والمدرس والمفتش ، ودافعت عن قضية الاســتحقاق والتبريز والترتيب وشرف مؤسســات التعليم المهنى وشرف القائمين على أمرها .

ـ خلك يا والدى ناس المدارس كلهم ناس لحوسات

أى يريدون ما يلحسونه من الرشــوة . واشــمأززت من فكرة أن يتهم أبى برشوة أحد .

ـ شــيخ الطيب يا زول كان راجلا كريم خــلاس (أى جدا) . منو ال (الذى) ما بيعرف عطاه .

ـ الله يرحمه رحمة واســعة

وأخذ أحد المادحين ينشــد من بعد :

جميل الصور يا جميل الصور (أى الرسول صلى الله عليه وسلم)
يا حبيبى الغالى ساكن أم سور (أى القبر الشريف بالمدينة المنورة)

يا با للكامل

وكرر الحاضرون :

ـ جميل الصور ، يا جميل الصور حبيبى الغالى ساكن أم سور
ـ نحن نحن ســعاد (أى سعداء) نحن قوم الشاهد المجــاد

يا با للكامل
يا با للكامل

يــوم نقــوم أفــراد طه شــافع الحشر والميعاد
ـ جميل الصور يا جميل الصور يا حبيبى الغالى ساكن أم سور ،

يا با للكامل

كان الناس يذكرون الوالد رحمه الله ويحترمون ذكراه فى نوع من حزن شديد . حزن شــديد فى قلبى أنا مخلوط باعتزاز منكسر . والحق أنه كان يجيئنى بمقطف مملوء كعكا كانت تصنعه الوالدة من نوع المنين ، جيد للغاية ليس كثير السكر ، موزون السمن ، هش ، متماســك ، فيه شىء كالملوحة .

حتى أولاد دنقلة الذين كان يرســـل اليهم القرقوش ويجيئون بالغريبــة استجادوه باقبال شديد ، لم أذق مثله قبله ولا بعده ، صناعة عجيبة أحسب أن الوالدة تعلمتها بكسلا ، وقالت مرة ، رحمها الله انها لم يعلمها صناعة شيء من هذه الاطعمة المعقدة أحد ولكنها اتقنت منها أصنافا مثل هذا المنين ومثل الكنافة ، أول أمرها لم تكن تعرف الا البلدى ، ، اللقيمات ، أم رقيقة اللحم المحمر ، ثم انها من بعد كانت متى أتيحت لها مصادفة مشاهدة عمل شيء من الأطبخة الجديدة وملحقاتها صنعته كما رأته كما لو كانت تحسنه من الدهر القديم ، وكانت خضراء جارتنا زوجــة عمى داود جميلة جزلــة حسنة العشرة ، وكذلك عمى داود ، وكانت فى كسلا أخلاط من الناس سوى أهلها الاصليين ، وكان بها الرديف وصــنوف من موظفى الحكومة والتجار وناس من الجعليين والرباطاب والشايقية وفى غرب القاش الهوسا والفلاتة والبرنو وغيرهم ،

وكانت امرأة ضخمة جدا مسافرة مع زوجها الى مصر ، فكنا اذا تحدثنا عن شيء ضخم من بعد ضربنا المثل بها ، وكنا معا فى القطار جميعا مفارقى كســـلا ومعنا بطيخ كســـلا لم تر عينى اكبر منه الى الآن وكانت احدى البطيخات خضراء عظيمة تحت الزير والقطار مغذ ،

كرهت ما قال ذلك الشخص من زعمه مهاداة أبى المدرسين أو رشوتهم حتى قبلونى مجانا أشد كراهية ، ولم لا ، فقد كان من المشايخ زملاء لأبى عرفوه وأحبهم واحبوه وذكروا عهده ، فمنهم من كان يبرنى ولا أزال أجد لبرهم على قلبى ثلجا وراحة ،

وقال لى آخر وســألنى عن حالى بالمدرسة وخبرته بترتيبى ومحافظتى على الاولية : ألا تخاف أن يحسدك أقرانك ؟

الحسد قضــية مسلم بها فى السودان ، واذا عجبت لشيء شــنيع يقع وسألت عن سبب حدوثه فقيل لك : « حسد أو « حَسَادة » فقد انقطعت الحجة واعتبــر ذلك ســببا مقنعــا ،

ـ ياولدى ما بتخاف رفاقتك يحســـدوك

واستنكرت هذه الملاحظة ولماذا يحسدوننى ؟ وما كنت أفهم معنى الحسد حقا ، وكنت أقرأ : « قل أعوذ برب الفلق » وشُرح لى قوله تعالى : « ومن شر حاسد اذا حسد » وأحســـب أنى فهمت الشرح ومع ذلك ما وقع معنى الحسد فى قلبى موقعا ، مع أنى كنت أعرف معنى الحقد ، وفى ثالثة كتاب (المدرســة الاولية) لقينى أحد زملائى وكانت بيننا منافســة فى الصراع وضربنى كفا بلا سابقة مشادة وعلى غير توقع منى وتمثل بقول صالح بن عبد القـــدوس بوجـــه شـــتيم باســل :

ان العدو وان تقادم عهده فالحقد باقٍ فى الصدور مغيّب

وكنا تلقينا القصيدة فى دروس المحفوظات ، وهجمت عليــه وهجــم على ، وكلما نتذكر هذا الحادث من بعد نضــحك ، وكنت أفهم شـــيئا من معنى المنافســـة والغــيرة ،

غاظنى مرة أحــد الذين هم أكبر منى ، فزعــم أن قريبا له كان معى فى الفصل هو أذكى منى على تأخر ترتيبه لانى انما فتنه بالحفظ وليس الحفظ بذكاء ، وكتب أحد المســئولين عنا فى المدارس العليا فى التقرير أن ذكـــاءه ـــ أى أنا ـــ مـــداره على الذاكرة ، يعنى أن الذاكـــرة ليســـت بذكـــاء ، وتكررت هــذه الأحدوثـــة مرارا ،

نعم كنت أفهم شـــيئا عن معنى الحقد ومعنى المنافســـة ومعنى الغيرة أمـــا الحســـــد فلا ،

مرة فى الكتاب (أى المدرســة الاولية) فى حصـــة الحســـاب أجبت عن المسائل فى سرعة البرق ، المسائل التى وضـــعها لنا أحــد أولاد التجهيزى الزائرين ، أولاد التجهيزى ، كلية غردون التذكارية ، فلان وفـــلان وفـــلان واعطونى كراسة التجهيزى الحمراء أم أربع وســـتين ورقة مسطرة بيضاء

منذ ذلك الزمان أحب الورق الابيض المسطر أسطارا أفقية بين كل سطر وسطر بياض كاف ولاسيما ذو الحجم الوافى منه الذى كنا نقول للزوج منه «فرخ» (فلسكاب) وللمجموعة الصغيرة «فريدة» وللمجموعة الكبيرة التامة « رزمة » • وكانت دكاكين السوق الرثة تبيع مع الصابون الخشن والكزبرة والحرجل ظروفا رديئة الورق غثة الصمغ مع جوابات أى أوراق رسائل قميئة مطبوعة باهتة اللون غامضة السطور متقاطعاتها أفقيةوعمودية مربعات مربعات • كم كنت أكرهها ومن أجلها ظللت أكره الاوراق التى من هذا النوع جميعها حتى حين تكون جيدة الصنع ناصعة البياض •

هذا ثم ان أولاد التجهيزى وضعوا لنا أسئلة أخرى وأجبت بنفس السرعة والصواب وأعطوا الجائزة ولدا آخر واغتظت وبكيت وغضبوا من سوء خلقى • أتذكر الحادث الآن • وأعلم أننى حينئذ — أعلم الآن — أننى حينئذ حسدونى على أن أبرز مرتين • وسوء خلقى أننى حرصت على اثبات حقى واثبات الحق واحقاقه أمر لا يحرص عليه الا الانبياء وهؤ لاء ، عليهم السلام قد ختموا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والا الصالحون وهؤلاء معدن نادر معدوم فى مدنية العهد الحاضر ، والا أهل الطيش وما أكثرهم ونعوذ بالله أن نكون منهم •

علمتنى الأيام فيما بعد أن طريقة المجتمع السودانى خاصة — أم المجتمع البشرى عامة ؟— هى الا يقبل التبريز وأن يقرن بالمبرز حمارا ليكون له ضريبا تأديبا له وكسرا لأنفه وحفاظا على المساواة الفطرية والديمقراطية الطبيعية كما أرادها الله سبحانه وتعالى كظنهم فى أزله القديم • وعلى هذا فقد أخطأ أبو الطيب المتنبىء حيث قال :

وفى تعبٍ من يحسدُ الشمسَ ضوءَها ويَجهَد أن يأتى لها بضريب

فهذا الذى لا يبرح الناس يفعلونه ويفلحون فلاحا عجيبا • والتى تتعب هى الشمس لأن الضريب دائما هو الذى يضىء فى مكانها •

المرء كثير بأخيه • وفى كتب النحو :

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساعٍ الى الهيجا بغير سلاح

والأخ شىء قلما يصاب • والعاقل من عرف قدر نفسه • وقديما قال النابغة الذبيانى :

ولست بمستبق أخا لا تلمّه على شعثٍ أى الرجال المهذب

فأوشك أن يجزم بفقدان الاخاء •

كان أخى حسن نعم الرفيق وغرق فى الغرب بالمترة (وهى البئر التى يسقى بها الزرع تستمد ماءها تحت الارض من تسرب النيل) عام الفيضان سنة ١٩٣٤م • وكان يلعب فنفذ القدر • حضرت الفيضان بالغرب وأذكره جيدا • ملأ البحر كل مكان واستدار حول الديار • وخرج خور «الفّوركيت» فملأ ما بين العشير والفريع واستدار حول الجبانة حتى قارب الشيخ المجذوب •

وكأنى أنظر الى الشيخ أحمد مجتهدا عليه الغبار ومعه جماعة يعملون وقد أحاط الماء بداره من كل وجه وقد هدم نصف الجدار وجعله ردما يحجز به مد الماء • ولكن الماء كان يتسرب من تحت الارض وانفجر فى داخل الحوش وطما • وجعلت الجدران تنهار • وسقطت غرفة ثم اخرى • ثم لم يكن من الرحيل بد •

صحوت من الصباح واذا بالماء تحت العنقريب • (عين مفتوحة • نون ساكنة • قاف كالكاف مفتوحة • راء بفتحة مما له بعدها ياء ناشئة من الإمالة • باء موحدة تحتية.وهو السرير المستعمل عندنا وله أربع أرجل مستطيل منسوج بالحبال وهو درجات أرقى أنواعه مخروط الارجل حسن الصنع وعنقريب العرس كان ينسج بالقد أى الجلد • ويحمل الميت على العنقريب • ويقال لنجوم بنات نعش العنقريب • وما استبعد أن يكون أبو الطيب قد نظر الى أصل اسطورى يزعم أن بنات نعش يبكين أخا اسطوريا لهن محمولا على نعش حيث قال :

وكلمة العنقريب من أصل سامى قديم لعله حمّيرى ، والله تعالى أعلم)

صحوت من الصباح واذا بالماء تحت العنقريب .

كنت قضيت اليوم السابق أصنع نُؤْياً ــ أى حاجزا ــ أحبس به الماء شرق السيالة . وكنت محتزما جادا واثقا أننى أصنع شيئا . فأصبح لا شىء . أحسست الماء تحت البرش (البرش حصير من سعف الدوم) الذى كنت راقدا عليه فوق العنقريب ، صحوت . واذا بالفناجين وأثاث من البيت كل ذلك عائم . واذا بأحمد الريس رحمه الله ومركبه يمر بى أمام السيالة .

وكانت السيالة معلما . لها فروع كبيرات ظليلات متينات . قديمة سيالة جدنا عبد الله . وفرع متجه الى الجنوب سميك ثابت رصين . قالوا مرضت وقطعوها « نامات » ــ النامة الفرع الكبير السميك المعطوف كأنه قوس قطاع من دائرة بحيث يصلح جزءا من حلقة الساقية . كان الناس يصلون عندها العيدين والقادرية يدقون الطبل بعد الصلاة .

كان أول العهد بالرجعة الى دارنا بعد فراقنا لها الى كسلا فمقرات فى أواخر العشرين (م) ونزلنا بالفريع وكانت فى دار خالنا الطيب ود آمنة سيالة عليها السنابر وكانت بنته الصغيرة آمنة حية حينذاك وكان الفريع ريفا بحتا ليس فيه أحد غريب .

وأخذنا الوالد الى الغرب اذ عدنا زمن الاجازة من مقرات ووجدنا الغرب قفارا . ذهبت غابة السنط بعدما كانت مثل جنينة «ود الاحمر» . هذه كانت مضرب المثل فى « أب حمد » .

بعد ذلك بزمان قطعنا للغرب ، الوالد وأنا معه يوم التاسوع أى يوم الوقفة ويطلق اسم التاسوع والوقفة على اليوم الذى قبل العيدين واصل فى التسمية عيد الاضحى لانه فى عاشر ذى الحجة ووقفة عرفات فى تاسع ذى الحجة . نزلت مطرة شديدة تلك الليلة . وكان أبى قد أحضر معه

الشـــاى والســكر والدقيق لعمل لقيمــات العيد ولما نزلت المطرة بتنا فى « العنقــور » القــاف بين المضــمومة والمفتوحة والــواو اشــباع لذلك ٠ والعنقور بيت صــغير مثل الخيمة من برش كبير أو برشــين فوق عيدان معطوفــات ٠ كان يشاهد المسافر بالســكة الحديد كثيرا من العناقير بين الخرطوم والجيلى فضلا عن بينها وبين شندى وبينها وبين ســوى ذلك ٠ أذكر لما أقبل الوالد على حفــر المترة وكانت قد انطمســت معالمها وجــاء بالحطب وبدأ العمل ولم يعش بعد ذلك طويلا ٠

كان باستبالية (مستشفى كما نقول الآن) أتبرا زمنا ٠ وكان يجىء الى الرصيف ليلقى المحلى وأنا فى طريقى به الى الدامر ٠ وكنت لو جريت من المحطة بمجرد وقوف المحلى أصل الاستبالية بســهولة وأزوره فى العنبــر وألحق القطر ٠ ولكن أين اللب ٠ وزجــرنى على أن لم أفعل ذلك وقــال : « الله يهديك يا ولدى » ٠ واعطانى خمســة قروش ٠ وكان المحلى يقف بالكيلاب أو دار مالى فنشترى الموز ، القفــة بقرش ونصف ٠ وكان الموز فاكهة جديدة جاءت مع الاجــانب ٠ فواكه بلدنا التديمــة المعروفة التمر والبطيــخ والقاعون (الشمام) والــلالوب والنبق والحنبق والدوم ٠ وفى تاريخ بلادنا القديم ذكروا زراعــة الكروم ولم نجد لذلك خبرا ولا أثرا ٠ اللهم الا أن بعض الناس كانوا يعرفون الزبيب الذى يباع فى السوق عند التجار الكبار يجلبونه من الخارج ٠ وفى مديح ود مصــطفى رحمه الله :

أحــلى من العنب ، أحــلى من الزبيب

وثقافة مداح الرسول عليه الصلاة والسلام كانت واسعة ٠

مات والدى رحمة الله عليه وقد جاوز الاربعين ٠ قالوا فى فراش البكا كان ابن سبع وأربعين سنة عربية ٠ وأول ما بدأ العمارة تناولته ــ تناولتنا ــ العين ٠ كــانت خير أيامــه وأيامنــا بكســلا ٠

كنت بالداخلية أنشــل الماء لاغســل ملابسى لما صعقنى نبأ وفاة حسن غريقــا ٠

عطف على التلاميذ عطفا شديدا بعد وفاة الوالد • كانت فى الناس رقة وبقية دين وانســـانية •

كان خطى واضحا ولكن لم يكن جميلا •

صورة خلوة سيدنا مالك واضحة نوعا ما فى ذهنى • أرى الالواح وهيئة الخط عليها • خلوة فكى (أى الفقيه) أحمد غير واضـحة • واذكر جرينا بين صرائف البيوت اليها جريا لا نهاية له • الصريف كالجدار سياج حول ســاحة البيت من العيدان والقصب ســاتر • تعلمت التهجى تحت النبق بمدرســة كســلا الاولية قبل دخولها ونحن أولاد عدد نكتب على التراب وعلى ألواح الاردواز وعلى ألواح الخشــب المدرســية ونقرأ كتاب ألف أرنب يا بط وهو كتاب مصرى والبط طير كان فى بلدنا لايعــرف ولا يؤلف • وفى ذلك الكتاب المصرى عالقة بذهنى منه « أين الفيل يا خليل » ، ولعل هذا الســـؤال قد كان فى جنينة الحيوانات بالقاهــرة أوائل عهد الناس بانشائها •

غير عالقة بذهنى حقا تفاصــيل تقدمى فى القراءة والتهجى وانما اذكر أنهم امتحنونا لدخول السنة الاولى الاولية وذلك فى سنة ١٩٢٩ م ــ ذلك كان أول دخــولى الكتاب • وأذكر كتاب المطالعة الذى يبتدىء بكلمــات متفرقــات من تأليف الشــيخ بابكر بدرى رحمه الله وينتهــى فى الدرس الثلاثين بقصــة الملك الاطرش الذى طلب من كل مظلوم أن يلبس عمامة حمراء فيعرف بعينيه اذ كان لا يسمع أنه مظلوم • شىء شبيه بشــجرة تولستوى • ولو فى هذا الزمان لزيد فى الظلم ظلمــا باحتكار بعض الناس للقماش الاحمر الذى تصنع منه عمامات المظلومين •

حاشية : قولنا شىء شبيه بشجرة تولستوى ، مع فارق وهو أن تولستوى جعل لمظلوميه الشجرة ليكونوا خارج داره فلا يدخلوها عليه ــ تعاليا طبقيا منــه عليهــم بــلا ريب فتأمــل •

هذا ، وأحسب أن القراءة ـ المطالعة ـ أشرقت على بفجاءة من طريق ديوان الشيخ المجذوب ، ذكرى عكوفى على قطعه وحبى له ووضوح خطه المطبوع وجمال شـكل الابيات ، كل ذلك واضـح جدافى ذهنـى ، رأيت الديوان مرارا من بعد ولكنه لا يشبه صـورة تلك الأوراق منه المتفرقات التى كنت أعكف عليها عكوفا :

متى فى طيبةٍنركعُ   وفي روضـاتها نرتعْ
ويحوينا بها سلع   وأحْـدٌفوقه يُعـلى
أيا ذا القبة الخضرا   وياذا الحلة الحمـرا
ويا من مدحه نقْرو   بكتب اللـه مذنـزلا
صلاة الله دائمة   على المختار فى الرسل

تلك الأوراق كانت كأنها عطرة ،

كان خطى الرقعة غير جميل ، وبفجاءة أشرق على تجويد الرقعة ، كنت أحسن أعسر الإملاء ، الهمزات والألفات الليـنة جميعا ، وقرأت منظومة ابن مالك التى يذكر فيها الواويـات واليائيات من الافعال ، وتعلمنا برى قلم البوص ،

كانت أقلام البوص وألواح الاردواز وأقلامه وألواح الخشب المدرسية الرباعية الشكل بزوايا قائمة وطلاء أبيض وإطار كاطار الصور والكراسات للكتابة وللرسم والحسـاب والخط والورق المسطر وغير المسـطر وأقلام الرصاص والكوبية والريشات والاسـاتيك ومسـاحات الالـواح اللبّـاد والسبورات والطباشير والخرائط والصور المعلقة على الجدران جميع ذلك يستورد من الخارج ليؤكد معنى مدنية التعليم الجديد الطارىء على بلـد الأهالى .

كان خطى الرقعة ـ والرقعـة خط أولاد المدارس والخـلاوى ما كانت تعرفه ـ قبيحا ، التلاميذ يفوتوننى فى درجات الخط ، جاءاتى تبدأ من فوق

السطر وتتغلب عليّ وتنحدر تحت السطر • وأجتهد ولكن بلا جدوى • كان خط الوالد الرقعة مجودا • كنت كثير المذاكرة لكراساته بكلية غردون والمباهاة بها • كانت عندى كراسته فى تاريخ العرب الى خبر التتر والمغول بقلم البوص رقعة متقنة غاية الاتقان • ومسودات أشعاره بقلم الكوبية والرصاص كلها رقعة • وكذلك دفتر حساباته لما كان كاتبا تجاريا بالرقعة ناصع بديع • مرة واحدة فقط كتب نسخا لى فى أول سورة الدخان لما شرفتها واضح جيد على اللوح • أعجب الجيران ولكن لا كما أعجبهم خطه الرقعة الذى رأوه فى كراساته عندى أتباهى بها • أشبه شىء بخطوط بعض الأسلاف الحسنة التى فى وثائقهم القديمة ولا سيما أبونا محمد ود أحمد •

كان أحد أولاد الدفعة التى قبلنا فى ما أذكر جيد الخط ، رقعته حسب القواعد ، صافية ، خالية من زخرفات التزيين • هى من نوع خط الوالد • عطف هذا عليّ بعد يتمى وأنا بالسنة الثانية وهو بالثالثة وشجعنى ونبهنى على أن حروفى منفردات صحيحة حسنة وأن خطى حقا ليس بقبيح ولكن النِسب بين حروفى غير سليمة • وكتب يرينى النسب • وأحسب أنى نظرت الى طريقة رسمه • وفجأة أشرقت على النسب • ووجدت ريشتى الصفراء « الريليف » تنساب على ورقة الكراسة أم أربع وستين والأُحرف لها رونق ولألاء : « يكاد يبيض من نورها الحبر » • أفهم الآن معنى هذه العبارة من شعر أبى الطيب •

وما قلت من شعرٍ تكادُ بيوته اذا كتبت يبيض من نورها الحِبر

فهماً كأنه جديد • ينبغى أن يكون مثله فى مقاله هذا حسن الخط جدا •

تعليق : كرر أبو الطيب هذا المعنى فى قوله يمدح كافورا ويذكر سواد لونه :

يفضح الشمس كلما ذرت الشمس بشمس منيرة سوداء

ونظر الى هذا الوصف ابن خلكان فى ترجمته لكافور ونعته له بأنه كان أسود بصّاصا •

هذا ، ولم تكن كراسة نجيب هواوينى التى كنا نتعلم من تقليدها الخـط من أحب الدروس التّ • والآن لم تكن بى اليهـا حاجـة إلا من حيث انهـا اختبار أجتازه بنجاح وتبريز • وكانت للمدرسين فيها محاولات مختلفـة كنا نبـدأ بالمسـافة التى تحت النموذج مباشرة فالتى تليها فالتى تليها • ثم بعد أن استمررنا فى ذلك زمنا جاء مدرس جديد وأمرنا أن نبـدأ من تحت الى فوق وزعم اننا بهذه الطريقة نكون دائما نحاكى النمـوذج فيتحسـن مستوانا أو على الاقل نحافظ عليه ، أما اذا بدأنا من فـوق الى تحت فـإنا سنحاكى خطنا فى كل مسـافة تلى بعد المسـافة الاولى ، وينحدر مستوانا الذى هـو ردىء ••

« فهمت علىّ يا غبى !! »

وفهمت علىّ هذه عبارة غريبة سمعوها لاول مرة من المدرس الجديد وكان مما يقع فى حصة الخط ضرب موجـع •

وأنا خاصة أفضل البداية من المسـافة الأولى لأن الذى يبدأ من فوق الى تحتيقدر أن يوازن بين أدائه فى كل سطر وبين النموذج والذى يبدأ من تحت الى فوق لا يقدر على مثل هذه الموازنة بيسر ثم قد يطمس السطر الأسفل فى حين انتقالـه الى السـطر الذى فوقـه •

لم يشرح لنـا أحد معنى النقط التى فى نمـاذج نجيب هـواوينى بجوار الحروف شُرحت لنا من بعد فى المدارس العليا • وهى نفس قصـة النسب • كان خطى فى الانجليزية حسـنا وكانوا علمونا طريقة ميلان الحـروف من البداية • وجاء مدرس كان محبوبا مرحا ممتازا أبوى الروح وخطه جميـل الا أنه كان يكتب باليد اليسرى ولاميلان لحرفه الانجليزى • وسئل عن ذلك فأنكر ضرورة الميلان وازدراه • ودفع الاعجاب به بعضنا فما استطاعوا أن يدركوا مستواه واضـطرب مستوى القواعد الذى كانوا عليه • وأخطأ هـو رحمه الله اذ أنكر أهمية ميلان الحروف شيئا •

الصـغار مولعون بالتقليد ، والاعجاب واستشعار البطولة والهيبة كثيرا مـا

يدعو الى المحاكاة ، ويوقع ذلك فى التشويش والخطأ وغير قليل من تقليد التلاميذ بعضهم بعضا مما يدخل فى هذا الباب •

لم نكن نستشعر وجود تناقض بين كون كتب المطالعة والجرائد والمطبوعات كلها نسخية والمكاتبات المخطوطة بالرقعة • كان هذا مثل خط الطبع فى الكتب الانجليزية وخط اليد الانجليزى • كانت الرقعة رمز تعليمنا الحديث • النسخ فى خط اليد ، نعم ••••• للزينة والزخرفة •

كان خط الخلاوى من قبيل النسخ وكان وسطا مضطرب النسب حتى فى كثير من المصاحف • لكن خط شيخنا محمد ود الطاهر رحمه الله كان من نوع البغدادى المسلسل تخالطه استدارة ما ذات لون من الخط الفارسى ولا سيما النون واللام • كان غاية فى الجمال ينساب على اللوح برونق وبيسر وإسماح وسلاسة • عرفت خلوات الدامر النسخ الجميل منذ أيام السلطنة الزرقاء (سلطنة سنار) تشهد بذلك الوثائق المخطوطات • وخط شيخنا محمد من أجمل ما عرفته مع أصالة فى ذلك •

◊◊◊ ◊◊◊

كان ذهابنا للخلوة كأنه من قبيل التسلية لأنا كنا أولاد مدارس نذهب بعد الظهر الا فى الاجازة فنذهب حينئذ صباحا وظهرا ومساء •

أنا خاصة بدأت تعليم التهجى فى تحضيرى المدرسة والقراءة فى المدرسة والبيت • وقرآن المدرسة لم يكن يعجبنى أبدا ــ أذكر من ذلك جزء عم والمرسلات وسورة التحريم والتغابن وقل أوحى • نَغَمُ القراءةِ فى الفصل كان شيئا استشعرته ، حتى حينئذ ، شاذا • لم أتجاوب معه •

أذكر الوالد واللوح و « هل أتى على الانسان حين من الدهر » وكلما قلت ذلك نهاية ما بلغه لوحى عنده ، تذكرت تصحيحه تُمْنَى بالتاء الى يُمْنَى بالياء فهذه سورة لا أقسم بيوم القيامة وكأنه شك فنظر فى المصحف المطبوع • كان حفظه بأبى عمرو وتدريسه لى بحفص ولا أذكر خطه لى ذينك اللوحين من هل أتى والقيامة مع أنهما كانا خطه ونسخا ولكن أذكر الدخان ونوناتها ذكراً جيدا ــ ولكن بعد ذلك بزمان •

كان صـــوته رحمه الله شـــجيا بالتلاوة ٠ حفظ بالغرب على عمنا الفكى (الفقيه) الحسين ود عبد الماجد رحمة الله عايه ٠ ثم قرأ على شيخنا محمد ود الفكى على الكبير بغرب بربر ودرس التجويد هنـــاك والشاطبيـــة على ودراوى من فقراء الصعيد المجودين ٠ كان يتلو الساعات الطوال من الليل ٠ وكان اذا اتفق أن حضر ليتفقدنى وبات عند ضابط الداخلية نهض الفجر أو الثلث الأخير وتلا ٠٠٠ كانت التلاوة ذكره منذ نشأنا عـرفنا ذلك منه وأقبل عليها أيما اقبال أخريات أيامه ٠ وسمعت من الثقة الذى لا يشك فى خبره أنه اذ كان بكســلا كان مما يقيم الليل تاليا عند الضريح أحيانا كثيرة ٠ وأذكر قراءته عند قبر والده بصوت جهير بالجبانة بالدامر ٠

كان أستاذنا الشيخ بابكر عبد الله حسن التلاوة ٠ أذكر تلاوته ســورة مريم وكسره صاد صـليا وعين عتيـا وجيم جثيا كحفص وحفظه بروايـــة الدورى عن أبى عمرو وأحســبه نبه على الروايتين من دون نســبة لهما ٠ وقرأ سورة الانفطار فأنصت الفصل وكان صوته شجيّاً ولا سيما حين وصل « والأمر يومئذ لله » ٠ وذكرت تـــلاوة الوالد وكأنّ قد أغــرورقت عينـــاى بالدموع ٠ كان شيخنا محمد ود الطاهر رحمه الله قوى الصوت صـحيح الأداء برواية الدورى عن يحى اليزيدى عن أبى عمرو ، سريع الحدر ٠
القراءة ترتيل وتدوير والحدر وهو أسرعها ٠

كان فى الرمية شيخنا يكاد يدرج بسم الله الرحمن الرحيم ٠ وفى قراءة الليل يسمع كل حوار فمن أخطأ رماه بحصاة وصححه بصوت واضح وكان ربمـــا أخــذ بعض الحـيران بشـــدة ٠

الحـيران (ننطقها بامالة فتحة الحاء متولدة عن ذلك ياء الإحالة) جمع حُوّار بضم الحاء وتشديد الواو مفتوحـــة ٠ واشتقاقها ــ لا أشـــك الآن فى ذلك ــ من الحَوارِىّ ، أحد الحواريين أصـــحاب سيدنا عيسى عليه السلام ــ وهكذا فسروا معنى الحوار لنا زمان كنا فى الخلوة ، وحسب بعضنا من بعد

أنه من الحوار ولد الناقة الذى يتبعها ، وذهب الى هذا الوجه الاستاذ الكبير عبد العزيز أمين عبد المجيد رحمه الله فى كتاب له ومما يبعد عندى أمر ولد الناقة فى أصل هذه الكلمة أن الحوار بمعنى الغلام الذى يدرس فى الخلوة أويتلمذ على شيخ ، مشددة الواو فى نطقنا الدارجى شدة واضحة غير خفية وحوار الناقة لاشدة فى واوه . ثم أن الحمير أكثر بريف النيل عند عامة الناس من الابل ، اللهم الا أن يزعم زاعم أن الحوار يكون أيضا فى أولاد الحمير كما قال بعض المفسرين ان البعير لغة فى الحمار يفسر به قوله تعالى « ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم » فى سورة يوسف .

كأنى أسمع صوت العلياب رحمه الله فى سورة محمد وقد صححه الشيخ وحثه بشدة : يتـ.ـمتعون ـ ويأكلون ـ كما تأكل الأنعام ـ والنار مثوى لهم . يقطعها تقطيعا . وصوت الطاهر الشكوت رحمه الله وقد قيم (بتشديد الياء المفتوحة أى أقام على لوحه فبات عنده لم يحفظه ويعرضه على الشيخ) . واشتد عليه الشيخ . وقام ليصلح وقود النار وهو يردد بتقطيع . كانت قراءة المساء قراءة جد . كانت الاصوات فى قراءة الظهر حادة جهيرة صاخبة ولكن كان أكثرهم الصغار ، والحيران المتقدمو الالواح والمتقدمون فى السن يقرأون بكالسر . أما فى الليل فكانوا يقعدون حلقة حول النار .

كان شيخنا الفقيه الكبير ، الفكى عبد الله قد قارب التسعين . ولكن كان متماسكا مشرق الطلعة يحضر صباحا فى القرآنية عندما يجلس الحيران عند شيخنا محمد للرمية .

كانت القرآنية غرفة كبيرة واسعة مكنوسة وفى طرف منها رف كبير توضع عليه الالواح ويجىء الحيران فيأخذ كل منهم لوحه . ويغسلون ألواحهم فى حجر المحاية ، أى الحجر الذى تمحى فيه ألواح القرآن بغسلها بالماء ، ولا يخلو من بركة . ويجعلون عليها الجير للكتابة .

كان الجير حجارة صغارا هشة هرمية الشكل والقطع الكبيرة منها تتشقق ويخالط بياضـــها شيء من كُهْبَة • كنت استغرب من شدة بياض طباشــير المدرسة ولكن الطباشير إذ بُلَّ بالماء لم ينزدح على خشــب اللــوح اندياحــا سهلا • كان الجير يجاء به من جهة جبيل أم علي (هكذا صحة الاســم جبيل بالتصــغير وهو كذلك لا جبل كما نقول الآن) • كنا نحضره من ناس عمنا الفكي منصــور ولد ود منصور رحمــه الله وكان عندهم كثيرا يجيئهم من المحمية • كان بعض الالواح قد جعلوا يصنعونه من خشب السوق الابيض المستورد من الخارج ــ روسيا أو بلاد البلطيق • وكان ذلك الخشب فى الواح القرآن لا يعجب أحدا • وكان لا يمســك الجــير وربما ترع عليه الحبــر • وشكله رباعى مستطيل بزوايا قائمة ورقبته من نفس شـــكله • لوح العشر بضم ففتح ــ ثخين سمين ورقبته غير منتظمة • لوح الهجليج أملس مرهف الاطراف ويتفق فيه وجود عين واعوجاج جانب وبعض ميلانٍ أحيانا ، رقبته مهندسة كالشكل المعين أحيانا وأحيانا حادة المثلث الاعلى وأحيانا كالهــلال كثيرا ما تكون كالهلال • وبعض ألواح الهجليج طوال ضوامر وبعضها ذات عرض ولاسيما ألواح الحيران الكبار ويقــال المهاجرين منهم الطــلّاب أى طلاب علم الدين الواحد طالب • وهذه ــ أى ألواحهم ــ لا توضع مع الالواح الأخر ولكن تكون مع صاحبها لا يفارقها • وألواح بلاد هوســا أجمــل من معظم ألواحنا لأن الاخشاب ثَمّ أفضــل وأهلة رءوس الالواح حســـنات الهيئة ثم أسفل اللوح هلالى الانعطاف واسعه حرفاه الى أســفل دقيقــان يسهل اتكاؤه واسناده بهما على الرحال عندما ينــزل المســافرون ومنهم من يكونون أهــل طريق ودرس وقرآن • وقد رأيت من ذلك كثيرا عند الذيــن يجيئون بالجمال من الصــحراء الى « كنوُ » وتكون منازلهم بالقــرب من رحالهم تحت أشجار « التُّوروا » الظليلات الفساح • وأحسب أن الالواح فى كسلا حسان ويصنع بعضها من الأندراب وهو شجر خشبه جيد • غير ذى شوك وله ثمر يؤكل • أذكر جرينا فى كسلا نلقط ثماره الحلوة ذات اللزاجة •

أجود من الحنبق ، بضم الحـــاء وسكون النون وباء مضــمومة بعدها قاف ننطقها مقاربة للكاف • الحنبق ثمر التنضب بضم تائه وضاده فى الدارجـــة ولكن هذا (أى الحنبق) أحســـن حمرة ، أرجـــوانى اللون ، منظر نُوّاره الأرجوانى الزهرات بهج مفرح فى طريق ما بين القطينة وود الزاكى • واذا لعبت مع أحد الناس وغلبته ولم يكن رياضى الروح فذلك يقال له : « حَنّبَكَ يُحَنْبِك » وأحســـب أصـــلها من الحنبق أى التوى وتلزج • والحَنْبَكَة أكثر شىء بين الناس • وأذكر اشتراء الوالد كرسيين من خشـــب الأندراب من كراسى كســـلا ذات اللون الاحمـــر الفاقع ، لازالا معنا على تعدد العوادى عليهما • ورأيت بعـــد دهر عند ناس المغربى رحمه الله (الحـــاج عبد الله المغربى رحمه الله) وكنت أزورهم كثيرا فى الوسطى والتجهيزى والعليا ـــ كانوا أهلا وأصدقاء وكان أحمد زميلى منذ الاولية ـــ كراسى مســـند ذكر أحمد انها من الاندراب وشعرت عليها بعطف التذكر القديم • وكـــان محمد المغربى أبرع الناس فى اللغة الانجليزية وتعلمنا منه كلمات • وصحح نطقى فى أمثال « كردج » carriage ومردج marriage وذلك أن أحد مدرسى الدفعات التى قبلنا كان ينحو بفتحتها الى الإمالة وكان تلاميذه يحدثوننا عنه باعجاب فحاكيتهم على الخطأ • زعموا أنه يقول لهم : كيردج ، ميردج ، زد شيئا فى المدة carriage, marriage, a bit longer

هذا وكان تراب القرآنية يلمع ببقايا شظايا الثمام والقصب التى تتساقط من قص الاقلام • كانت الاقلام تُبرى طوال اليوم وأكثر شىء وقت العصر فى ساحة الخلوة الفسيحة ، وكان معظمها من قصـــب الذرة وكـــانت أقلام الثمام ـــ وبعضه جَلْدٌ ـــ أدق وأرق ولابد منها لعمل خطوط بعض الشرافة • وكان قلم القصب ، على كثرة القصـــب وكون الفص منه الذى تجعله قلما لا ثمن له ، يبقى عند صاحبه الزمن الطويل فاذا انكسر حرفه أو احتاج الى تجديده أو تجويده براه •

قرأت منـــذ زمن قريب فى كتاب أعلام المغرب العربى للأستاذ عبد الوهاب

ابن منصــور أن الفقيه ابراهيم بن أحمد الرياضى من علماء القرن الثالث الهجرى بالاندلس حكى عنه أنه كتب على كبره كتاب سيبويه كله بقلم واحد مازال يبريه حتى قصر فأدخله فى قلم آخر وكتب به حتى فنى بتمام الكتاب» والكتاب قريب من ألف صفحة كبيرة بحرف المطبعة الدقيق فى كلتا طبعتى بولاق وباريس فتأمل ٠ واعلم اصــلحك الله أن القلم الجيــد من ضروب القصب الجيد أفضل من أقلام المصانع المعاصرة التى يباهى بأنها فاخرة ، وذلك لخزنه الحبر خزنا طبعيا فينساب من سنته فى يسر وإسماح ٠

وكان الحبر يقال له العَمار ٠ وأحسب سبب هذه التســمية أنه تعمر به الالواح التى بتعميرها تعمر المساجد وتطمئن القلوب ٠ والعمار يصنع من سواد آنية البيت الذى نقول له السَّكن والسجم بالتحريك فيهما ومنه قول النساء « سجمى سجمى » للتفجع ٠ يكشط من تحت الدوكة والصاج والحلة والكنتوش وغير ذلك ، وقد يحرق بعض الثمام وليس سواد حريقه فى جودة ما تقدم ٠ ويجاء بالصــمغ فيدق ويبل ويخلط بالســواد وينبغى أن يكون السواد كثيرا أكبر نسبة من الصمغ ــ نحو ١ : ١٢ وينبغى مع المحافظة على هذه النسبة أو قريب منها أن يكون مقدار الصمغ ونوع جودته مما يمكن من استيعاب السكن كله عند الخلط ٠ ويخلطان خلطا جيدا حتى يصير كل ذلك عجينة واحدة سوداء متماســكة مرنة متينة ٠ ثم يقطع أقراصا صــغيرة مستديرة وينشف فى الهواء حتى ييبس ٠ وكلما كان السكن ســواد دخان حقيقى لا مدقوقا من شىء محروق كالثمام والعيدان وما أشــبه ــ وكانت نسبته الى صمغه الجيد عالية كان القرص الناشف منه حين يخلط مع المقدار المناسب له من الماء حريا أن ينشأ عنه مداد حسن ٠ ثم بعد ذلك يجاء بالدواة وهى من الفخار مقعبة الاسفل مخروطة الاعلى ضــيقة الفم كما ينبغى ٠ والدوىّ أشكال ٠ وفى زمــاننا بدأت تبطل دوى الفخار ويســتعمل الناس استنسهالا « علب الورنيش » الزجاج وهى قباح ، وهذه سنة التطور ٠ كما بطلت القواديس وهى عندنا جرار الفخار السود التى تستعمل فى السواقى

لرفع الماء واستبدات «بالجوالين » والقرب والأسقية من الجلد التى يوردبها الماء واستبدلت بصفائح البنزين • وكما بطلت الكناتيش من أوانى الفخار يصنع فيها الطعام وملاحها ــ أى ما يطبخ فيها من أدام ــ ألذ وأطيب ملاح واستبدلت بحلل الطلس وحلل الأ لمونية • والآن أحسب أنه قد جعلت تظهر بعض الكناتيش مرة أخـــرى • ولكنهـا الآن كناتيش « فلكاوريــــة » « انثربولوجية » يشوب مأساة قديمها افتراء مر حديث ، كثير •

توضع الاقراص اليابسة السود ويوضـــع فوق كل قرص أو قرصـين شىء من سبيب شعر أذناب البقر ليفصل بينهما حتى اذ صـــب عليها الماء وهى فى الدواة احتفظت فجوات السبيب الفاصلات بين الاقراص بالهواء فيعين ذلك على سرعة تخمير العمار واستوائه •

أذكر أذناب ســبيب البقر زمانا مضى اذ كنا نمعطها ونجىء بصـــفيحة ونقددها قدودا كثيرة ونعقد فى كل ثقبين منها سبيبة نجعل لها عقدة انشوطة مفتوحة ونغطى الصفيحة بالتراب وننثر عليه الحب وتجىء الزرازير لتلقط الحب فتقع فى الشرك ونذبحها وننتف ريشها ونشويها ولا نخلو من أن تلذع أصابعنا النار التى نوقدها وهى لذيذة جدا ولا سيما صدورها •

كانت تعجبنى قصة الحمامة المطوقة فى كليلة ودمنة وأتعصب الى جانبهــا ضد الصياد ، وكان المنطق يقتضى عكس ذلك ولكنه كانت له شبكة لا صفيحة وسبيب وكنت أنا الحمامـــة المطوقة • ولما ســمعنا طلقات نارية فى ناحية « بيت مرى » فى طريق « برمانة » من جبال لبنان وقيل لنا هؤلاء يصطادون العصافير تذكرت كسلا وجرينا نطارد العجول وننتف من ســبيب أذنابها بسرعة وهى جارية وتتألم وتمد بأذنابها وتنطلق انطلاقا •

وما كانوا بالطاقات النارية يصطادون العصافير على الأرجح • كان ذلك أول صيف سنة ١٩٥٨ م • كانت تلك بوادر قتال عميت علينا • ولعمرى ان صيد الكبار العصافير لمن الضـــلال •

لا أذكر أننى وضعت سبيبا فى زجاجة الورنيش التى كنت معجبا بها وكان زجاجها نظيفـا يلتمـع • ولكن وضعت خيـوطا من قماش سـلكتها أو سلكت لى • أحسب أن الوالد ذكر أن هذا يسد مسد السبيب • و كان ربمـا استقذر بعض الاشياء أحيانا • وقال بعض الناس : لا ، الا السبيب • أى لا يصلح لعمل الحبر إ لاالسبيب ، لا الخيوط •

وخمر العمار وفارله زبد وغمست القلم فيه فاذ هـو أسـود عامر • واذا لحسته بلسـانك وجدت له طعمـا فطيرا طاعمـا •

أظن ـ ظن تذكر ـ أن الحيران كانوا أول شىء يقرأون أسماء الله الحسنى ثم يرفع شيخنا الفكى عبد الله يديه بالفاتحة وكان يجىء معه فكى الطـاهر ود بابكر وفكى على ود نور الدين يصحبانه وشـيخنا محمد والحيران كلهم واقفون لفاتحة الصباح بعد اسـماء الله الحسنى • وبعـد الفاتحـة يرمى شيخنا الفكى عبد الله تمرات ويتخاطفها الصغار • ثم يخرج شيخنا الفكى عبد الله بوقاره وترتفع أصـوات الحيران •

المبتدئون يقرأون بانَصَبْ ـ بى خِفِضْ ـ بورُفُـعْ ـ أب جَزمْ ـ باجـاب ألف ـ بى جيب يا ـ بو جاب واو وألفْ • ولكل من هؤلاء المبتدئين ولد أكبر منهم يدرسهم (يخطـون على التراب) • تراب القرآنية كان ضـاربا الى السواد ويخالطه لون رماد • هذه القرآنية القديمـة • ويكتب شـيخنا أول كتابة على كل لوح ـ الحروف ـ ال باجاب ألف ـ الفاتحة ـ كل ذلك ايذانا بالبركـة •

***** *****

يكون أمام الشيخ صف نصف دائرى الشكل أمامه ، فيه الحيران ينتظرون الرمية ، أى املاء الشيخ ، كانه يرمى لكل واحـد منهم الحرف الذى ينتظر منه كتابتـه على لوحـه •

وشيخنا كانت له ذاكرة حسابية السنخ • « كمبيوتر » ذهنى هائل • هـذا يقول له : سيدنا ـ (هكذا يخاطب الحوار شيخه السين من سـيدنا ممالة

الفتحة مع اشباع يولد منها ياء وبعد ذلك دال ساكنة ونون وألف ولا تشـــدد الياء من سيدنا) سيدنا « كلا » فيقول الشيخ على الفور : لـــو تعلمـــون •
وهذا حوار آخر يقول له : سيدنا ، لكيلا يعلم • فيقول الشـــيخ : من بعـــد علـــم شـــيئا •

حوار (٣) : سيدنا لكيلا يعلم الشيخ : بعد علم شيئا (بدون من)

حوار (٤) : سيدنا ، لم يكن الشيخ : الذين كفروا من أهل الكتاب

حوار (٥) : سيدنا ، لم يكن الشيخ : الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا

حوار (٦) : سيدنا ، وانظر الشيخ : الى العظام كيف ننشرها

حوار (٧) : سيدنا ، ولكن أنظر الشيخ : الى الجبل فان استقر

حوار (٨) سيدنا ، يتمتعون ويأكلون الشيخ : كما تأكل الانعـــام

حوار (٩) : سيدنا ويأكلون الشيخ : التراث

ويكتب الولد ألفتاء ويرى الشيخ ذلك فينهره ويتناول اللوح ليصلح خطأه ويصيح حوار من وراء الذين يتلقون الرمية حـــوار (١٠) : ســـيدنا ، أب كراع قرصـــــنى

الشيخ : تعال ياولد ••• حوار (١١) والله ما قرصته ياسيدنا حوار (١٢) : سيدنا ، فيها فاكهة ••• الشيخ يضرب الحوار (١١) ضربة واحدة ويقول له : امش ، مطموس ••• ويرمى بحصاة بعيدا ••• اقرا قر ينفخك •••
حوار (١٢) : سيدنا ، فيها فاكهة ••••

الشيخ : والنخل ذات الاكمام

حوار (٦) سيدنا : ننشرهـــا

الشيخ : ونكسوها لحما وانظـــر الى حمـــارك

حوار (٧) فان اســـتقر

الشيخ : مكانه فسوف تريني

حوار (١٣) سيدنا ، ما أنا بمصرخكم

الشيخ : وما أنتم بمصرخى

حوار (١٤) سيدنا ، ونبئهم

الشيخ : عن ضيف ابرهيم

حوار (١٥) سيدنا ، وهل أتاك

الشيخ : نبأ الخصـــم اذ

حوار (١٦) سيدنا ، من جبال فيها

الشـــيخ : من برد فيصـــيب

وينظر الشيخ الى ولد يتلاعب فيرميه بحصاة : ـــ ود الحرامات

حوار (١٦) من برد فيصـــيب ••••

حوار (١٧) سيدنا ونبئهم •••

الشيخ للحوار (١٦) : من يشاء ويصرفه • وللحوار (١٧) : أن الماء قسمة بينهم ـــ حوار (١٨) : رجيما الشيخ : لعنه الله وقال ••••

وهلم جرا • وانما هذا تمثيل والذى كان يصنعه شيخنا أعجب مع تناول لوح ذاك وطمس حرف خطأ بأصبعه ومعاقبة مخطىء وســماع عرضـــة مُقيّـم وتدريج حوار بطىء وآخر فى مرحلة التهجّى ••• بسم الله الرحمن الرحيم ، يكاد يدرجها شيخنا ادراجا ••• هذا حـــوار مبتدىء •• ألم تر كي ••• ف يخطىء الولد ويمســـح العمار باصـــبعه ويبصم بياض اللوح بصـــمات من الاصبع •••• ويلحسه بلسانه •• وقد يكون يبكى •• وقد يكـــون ضرب أو زجر •••• وآخر يتلقى كلمة •• وآخر يتلقى أكثر •• ولا يقـــول الحيران ســـيدنا ســـيدنا يطلبون منه الرمية واحـــدا وراء الآخر كما قد يتبادر من التمثيل الذى مثلناه ، ولكن يقولون ذلك ثلاثة وأربعة وأكثر وأقل معا وهـــو يجيبهم تباعا وربما التفت الى حوار فى بعض الشأن والقى بالرمية الى آخر كل ذلك فى سرعة وعفوية خالية من التكلف كل الخلو من جانبه •••• بل هم فى شك منها ••• سيدنا ••• بل هم فى شك منها ••• ـــ بل هم منها عمون

•••• عمون •• ع •• مو •• وأخطأ الولد ••• سيدنا وما نــزل من الحق
•••سيدنا ••• الى البيت العتيق ••• ســيدنا من الضــالين ••• ويرمى
بحصاة لولد بعيد ••• ففررت منكم لما خفتكم ••• ســيدنا •• لما خفتكــم
•• سيدنا ، قالت أمرأة العزيز ••• الآن حصــحص الحق أنا راودتــه عن
نفسه ••• سيدنا ، عن نفسه •• وانه لمن الصادقين •• أم يقولون افتريــه
••• فاسلكى سبل ربك ذللا •• قياما للناس والهدى والقلائد ••• عــزين
فى روضات الجنات • • نذقه من عذاب السعير • • • فاذا هى شاخصــة ،
سيدنا ، فاذا هى شاخصة • • • الحسنى وزيادة • • • أبصار الذين كفروا
بعض الحيران آيات لا تبلغ ثمنا • • بعضهم خروبة أى نصف ثمن • • •
الذين جعلوا يصعدون يكتبون ثمنا ثمنا • • • يبدأ الحوار بالفاتحة تبركابها
لأنها أول المصــحف ثم يشرع من عند قصار المفصــل • النــاس • الفلق •
الاخلاص • وهكذا يصعد نحو عم • تبارك • قد سمع • قال فما خطبكم •
حم (الاحقاف) • اليه يــرد • • • فمــن اظلم • وما أنزلنـــا (يس) ،
(ربع القرآن) ويستمر صاعدا حتى يبلغ البقرة • القرآن كله ثلاثون جزءا •
كل جزء فيه حزبان • مثلا جزء عم الحزب الاول فيه يبتدىء بعم يتساءلون
وينتهى فى آخر ســورة السماء والطارق فمهل الكافــرين أمهلم رويــدا •
والحزب الثانى يبتدىء بسبح اســم ربك الاعلى وينتهى فى آخر ســورة
الناس • جزء تبارك الحزب الاول من تبارك الى آخر سأل سائل والثانى من
قل أوحى الى آخر والمرسلات • وهكذا وهلم جرا • وكل حزب مقسم الى
ثمانية أقسام كل منها اسمه ثمن فالقرآن كله فيه ثمانون واربعمائة ثمن •
العائدون (وهم الذين قرأوا كل المصحف من الناس الى البقرة وشرعوا مرة
أخرى من الفاتحة فالبقرة بحسب ترتيب المصــحف ليجــودوا حفظهــم)
يكتبون فى الغــالب ثمنين وهو الذى يقال له ربع حــزب • ومن أصــحاب
الالواح الكبار العراض من قد يكتبون مقرأ ـــ المقرأ أربعة أثمان ، اشتقاقه
من قرأ يقرأ كما ترى ، وهؤلاء أصحاب الدراسة ، يتدارسون القــرآن معا

وهؤلاء تجاوزوا مرحلة الرمية من الشيخ ، يكتبون حفظا من صدورهم والمناظرة أى الكتابة من النظر فى المصحف تنتقد ، ويصححون ما كتبوا بعضهم لبعض وربما رجعوا الى الشيخ •

******* *****

اذكر أنه كان يجىء الى الخلوة مهاجرون كثير • ومع بعضهم ألواح كبيرة ومن أهل الغرب شناقيط وهوسا وسواهم ، منهم من يكتب بحرف غريب الفاء نقطة واحدة من تحت والقاف نقطة واحدة من فوق ، هذا هو الخط المغربى ، قراية ورش (أى رواية ورش عن نافع) ، يميلون والنجم اذا هوى امالة كاملة •

ومن بعد قال لنا الحذاق هذه الامالة البطحية ، يعنى الشديدة ، فى رواية ورش خطأ لان ورشا كله بين بين عند من روى له الامالة • وفى كتاب ابن مجاهد ما يدل على أن البطح فى رواية ورش له أصل •

وكان كلما فرغ حوار مما رمى عليه الشيخ ، وأتم كتابة لوحه ليومه ذلك ثمنا أو دونه ، ناوله الشيخ ليصححه • والمتقدمون من طلاب الدراسة ، كما تقدم ، يصحح بعضهم لبعض • والصحة ــ هكذا اسمها ــ المراد منها تصويب الاملاء والشكل كما هو فى المصحف •

بهذه الطريقة ، طريقة الاخذ عن الافواه والمحافظة على الرسم المأثور ، تواتر نقل القرآن تواترا متصلا منذ زمان الصحابة والرسول صلى الله عليه وسلم الى زماننا هذا • وليس لملة من الملل من تواتر نقل كتابها وسنة نبيها ما لنا معشر المسلمين • ورحم الله البوصيرى اذ يقول :

بشرى لنا مَعشَر الاسلامِ ان لنا من العناية ركناً غير منهدم
لما دعا الله داعينا لطاعته بأكرم الرسل كنا أكرم الامم

فعلى الذين يريدون أن يستعينوا بالوسائل الحديثة والتحليل العصرى فى تعليم القرآن أن يتذكروا أن التواتر المأثور مقدم على جميع ذلك وهو السنة وفيه البركة • بعض مصاحفنا فيها امالة البطح وبين بين والثانية غير

معمول بها فى المراحل الاولى لعسرها ويجعل مكانها الفتح فى المواضع التى تكون فيها مروية لابى عمرو من طريق الشاطبية والتيسير مثل رءوس الآى فى طه والنجم وسأل والقيامة والنازعات وعبس وسبح والشمس والليل والضحى وأقرأ ، والمجودون يعرفونها ويتلقونها أخذا عن شيوخهم . وبعض مصاحفنا تكتفى ببيان البطح دون التقليل كما فى « رأى » و « التوراة » و « الكافرين » والعمدة فى قراءة القرآن كما قدمنا على تواتر التلقى . ومن أجله جردت المصاحف الاولى من النقط وبقى العمل على ذلك دهرا . وكتب التجويد مراجع واسناد ومما أعان به الله جل شأنه مع التواتر على حفظ الذكر الحكيم ويذكر أن محمد أحمد المهدى رحمه الله أخذ الناس بالفتح فى القراءة كلها واحتج له فى هذا الذى صنعه بأن الفتح أصل والامالة فرع وهو قول ابن القاصح فى شرح الشاطبية وابن عقيل وبعض شراح الالفية فى باب الامالة وفى الامر نظر وكلا الامالة والفتح لعله أصل وأمسك ابن الجزرى عن أن ينتصر لمن قال أن الفتح أصل أو قال انهما كليهما أصل . وفى كتابه النشر ما يفيد صحة الفتح لابى عمرو فى الحروف التى ذكروا له فيها امالة بين بين مثل الاحدى عشرة ومثل الحسنى والدنيا وعيسى وموسى وعلى هذا الوجه جاء الرسم بتركها فى المصاحف التى تركتها وهو صحيح ، قال ابن الجزرى « وكل من الفتح وبين اللفظين صحيح ثابت عن أبى عمرو من الروايتين المذكورتين قرأت به وبه آخذ » ولم يتواتر عن أبى عمرو الفتح فى ما امالته له شديدة باتفاق نحو : وانصرنا على القوم الكافرين ، والله تعالى أعلم .

هذا وبعد الصحة يأخذ الحيران فى القراءة وترتفع أصواتهم . ويرفع الشيخ يديه بالفاتحة ايذانا بمسامحة الصغار اذا رضى عن أصواتهم ونشاطهم . وآخر النهار قبيل الزوال يرفع يديه بالفاتحة فينفضون جميعا ويعودن بعد الزوال عند استحكام الظهر واحدا واحدا واثنين حتى تمتلىء القرآنية ويكون بعض من قيَّموا (أى لم يحفظوا فى اليوم السابق) يصححون فى هذه الفترة أو يعرضون (أى يسمعون الشيخ ما حفظوه) .

ويمضون بالأمر هكذا الى وقت العصر • وبعد صلاة العصر يكون منهم فى داخل القرآنية ومنهم فى ظل الظهر (أى ظل عشية اليوم) ثم يرفع الشيخ يديه بالفاتحة فينصرف الصغار ويبقى حيران قراءة العشاء • وهؤلاء يستديرون حلقة كاملة بعد صلاة المغرب ويبقون الى صلاة العشاء ويبقى كبارهم بعد العشاء والشيخ أبدا يؤذن بانصراف من يُراد انصرافه برفع يديه بالفاتحة •

خشب النار التى توقد يجمع بالفزعة نهار الثلاثاء • الفزعة بفتح الفاء وسكون الزاى وربما حركها بعضهم • يخرج للفزعة كبار الحيران غير العائدين وغير المتقدمين جدا ، الحزاورة الشداد المتوسطو الاسنان الذين يستطيعون الاحتطاب ويصلح أن يكونوا معا جماعة ، فهذا فزعهم ومن أجله سميت الفزعة • يقطعون كل ما يصلح من حطب الوقود وأخشاب السلم والسيال والتنضب ، هذه كانت أجود ما يحتطب • تحزم وتحمل وتوضع بمكان تنشف فيه وتيبس وتوقد من بعد • والتنضب قد يوقد وهو أخضر فيشتعل اشتعالا • التنضب الذى ذكرناه آنفا وقلنا يثمر الحنبق وطعمه فيه لذع ويصلح الغصن من أغصانه مساويك وهو فى هذا دون الأراك ، وله شوك دقاق حداد وقالوا وجوده فى الارض دليل خصبها وهو أخضر الاغصان أبدا خضرة جفاف تعلوها فى الصيف غبرة ويقال تأوى اليه الحيات فاحذر • والسلم من أسرة السيال والسنط لا يكبر ، عهدى به وتقوم أغصانه عيدانا معا ، وجيد فى الوقود ، وتصنع منه العصى القويات المعطوفات الرؤوس التى تصلح للدفاع عن النفس واصلح العصى لقتل الثعابين • وقد تعلم خبر الحطيئة الشاعر اذ كان يرعى غنيماتٍ له ومر به رجل وأراد سؤاله شربة لبن • قالوا فقال الرجل ، يا راعىَ الغَنَمْ • فأجاب الحطيئة يُشِير بعصاه : عجراء من سلم • فقال الرجل : انى ضيف • فقال الحطيئة : « للضيفان أعددتها » • وكان حيران الفزعة يزعم بعضهم أن عصى البشم (أحسبه هو بشام جرير حيث قال :

سـقى الله البَشامَ وكلَّ أرضٍ   من الغورَين أنبتتِ البَشـاما

وحيث قال :

متى كان الخيام بذى طلوح   سقيت الغيث أيتها الخيـام

أتذكر اذ تودّعنا سـليمى   بفرع بشامةٍ سُقِىَ البشـام

وعصىّ السمر أجود من الخشب القريب الميسور • لا ، عصـا السّرحْ • _ لا عصـا الددا • • • • وربما لعبوا السـيجة والطاب • وكثيرا ما يتشاجرون ، حيران الفزعة وتتم بينهم الشرور • فاذا بلغ الشيخ شىء من ذلك فـربما أدى الى عقاب « وفلقـة » أى ضرب على القـدم ، ويكنى مثل هذا العقاب « أم سعد الله » يقال دقّوه أم سعد الله أى على قدميه • وهو فى الخلوة كثير ولعله أفضل من جلد المدرسة الذى على العجز يخيّل الى أن جلـد المدرسـة فيه اهانـة أبلـغ •

مكان النار القرآنية يسمى فى كثير من خلوات بلادنا « التقابة » بضم التاء وتشـديد القاف بعدها ألف وتقابة القرآن أى نار القرآن • والتقابة لفظ عربى قلبت ثاؤه المثلثة فى الدارجة تاء مثناة واشتقاقه من ثقوب النـار وأثقابها • قال تعالى : « السـماء والطـارق وما أدراك ما الطـارق النجم الثاقب » أى المضىء المتوهج • قال الطبرى فى تفسيره : « والعرب تقول أثقب نارك أى أضِـئْها » وهذا أصل اشـتقاق « التقابة » عنـدنا لأن نـار القرآن يراد منها الاضاءة • وبعض خلوات القرآن يكثر فيها رماد التقابة ويكون أكواما ضخمات • ذكروا ذلك عن « أم ضبان » شرق النيل الازرق • ونار القرآن فى خلوات بلدتنا ليست حولها أكوام رماد • فقيل ذلك كرامة من رجال الجبانة الطاهرة التى يسمع منها حدر القرآن وتدويره فى الليل البهيم ، اذ كانت نار القرآن بها قديمة • وعندى أن السبب فى ذلك لعله من الوقود • نوع الوقود الذى يستعمل تستهلكه النار فلا يبقى من رماده الا هباء يسير تذروه الريح فيختلط بسطح التربة الرملية ، ذلك غاية مايبلغه

ويقوِّى هذا الوجه أننى لم أر رمادا كثيرا بالغبش ونار القرآن فيها قديمة ومعروفة بالتجويد وخلوات بربر شرقا وغربا كانت معروفة بعلم التجويد مثل خلوة شيخنا محمد ود الفكى على رحمة الله عليه التى قرأ فيها الوالد رحمه الله ٠

كانت نار القرآن ثاقبة متوهجه تضيء على كل لوح ٠ وكل حـــوار كان يقعد فى الحلقة مُتحرِّفاً شيئا ما ولوحه مُتَحرِّفٌ شيئا ما حتى يعمه ضوء النار .

ـــ اســتطراد ـــ

أذكر اذ احتفلنا بعلى بك الجارم فى حدائق المقرن عصرا ٠ وكان ذلك بعد أن احتفل به الخريجون فى ناديهم بام درمان وكان مركز الحركة الوطنية وألقى ــ رحمه الله ــ قصيدته الطويلة الحسنة التى جارى فيها شـــوقيا وابن زيدون وقال فيها :

وأنت بالجبنات الحمر تسقينا . .

وألقاها بصوته ذى النغم النفيس الاوتار

كان على بك الجارم قد قدم تلك المرة ممتحنا خارجيا لدفعتنا فى المدارس العليا فى امتحانها النهائى ٠ وكانوا قد ذكروا لنا أننا سنعطى بمـــده دبلــوم المدارس العليا ٠ ثم عدل آخر الامر عن ذلك ٠ وأعطينا وريقة بائسة مكتوبا عليها بالانجليزية بالالة الكاتبة

Final Examination certificate

أى شهادة الامتحـــان النهائى ٠٠٠

وكان ذلك بتأثير من المستر غريفث عميد بخت الرضـــا وكان قد تقمص روح تحامل خبيث على المدارس العليا ٠

وأنشدت فى تكريمه باسم الزملاء والاســاتذة كلمة على البحـــر والروى وجاء فى انشادى « ناراً لسارينا » وكان فى الحاضرين أستاذنا الشيخ جلال فقال « نورا » وهى أكثر ملاءمـــة لذلك المقام ، وأدل على معنى نار القرآن كان الاستاذ أحمد ابرهيم بلطة رحمه الله يخوفنا بالجارم قبل مقدمه ٠٠٠

ــ دا أقسى ممتحن فى الدبلـــوم

وكان رحمــه الله يحس من بعض الطلبة أنهــم لا يقدرونه ، فكان اذا جــاء الامتحان كشر لهم عن ناب ليث هصــور . سأله أحدهم فى قاعة الامتحـــان عن كلمـــة فى بيت عمـــر بن أبى ربيعة :

أيها المنكح الثريا ســـهيلا   عَمْرَكَ اللهَ كيف يلتقيان

وكان مطلوبا إعرابه ، فرفع صوته يقول له :

ـ عمــرك اللـــه ...

ورقق الراء واللام ، كان ذلك منه رحمه الله طبيعة .. وكرر : عمرك الله .. هذا السؤال ليس لاختبارك يافلان .. هذا لاختبار الذين يظنون انهم علماء ... ياسى .... عمرك الله ... عمرك الله كيف يلتقيان ... نبأى نشوف العلم ... عمــرك الله !!

ومرة سأل عن جمـــع العسل فقيل الأعســـال وقبـــل الجـــواب وانبرى أحدهم فقـــال : عســـائل وأنشـــد :

وأفردت من أمها الفصـــائل   وسكب الالبان والعسائل

وغضب الاستاذ . واستبعاد البيت . ثم أنه سأل عنـــه أســـتاذ العربيـــة الشيخ محيى الدين عبد الحميد وكان يعلم الشريعة فى قسم القانون وعلوم العربيـــة أيضـــا .

كان صوت الشيخ محيى الدين رحمـــه الله عندما يحاضر طلبـــة القانون بجهارته وفخامة القائه الازهرية الجزلة يفعم الســـاحة كلها ويتغلغل الـــى طلبة الهندســـة واساتذتهم وهم فى مكتب الرســـم بكواغدهـــم العـــراض البيض ومســـطراتهم الطـــوال . وكانت كلتا مدرســـتى القانـــون والآداب مستعيرَتَىْ جناحين من بناء مدرسة الهندسة على غير كبير رضا من عميـــدها بســـلطان مدير المعارف الذى كان رئيســـا له .

وكان المستر سوبر ، عميد كلية الهندســـة ، رجلا ضعيف الصـــوت دقيقه متوتر النفس ، حاد المزاج

فيقال انه كان كلما أغار عليهم صوت الشيخ محيى الدين رحمه الله يرونه يحمس وينكمش ويضيق بالدنيا ذرعا • وكان لا يقدر على أن يحتج خوف أن يحمل ذلك منه على روح التعصب الدينى • وعسى هذا التحرج من جانبه قد كان مما يعمق عنده ، مالم يكن يخلو منه ، من روح ذلك التعصب مع النفور الشديد عن العربية والاسلام • والله تعالى أعلم •

وقال الشيخ محيى الدين : ألا تعلم يافتى أن الصدق سجية العلماء وأن الانتحال يعاب وبه أخذوا على خلف الأحمر وحماد الراوية ما أخذوا وما هذا البيت الذى فيه العسائل :

وأفردت من أمها الفصائل وسكب الالبان والعسائل

ـ ومن يافتى نسب هذا الرجز الركيك الى القدماء ؟

وكان الشيخ جلال ثم ووجهه مشرق بابتسامة وروح ضحك • واعترف الفتى أنه صنع البيت • وحمل جميع ذلك محل الفكاهة • الا أن الاستاذ بلطة رحمه الله أحس فيه نوعا من عدم التوقير • فشكا ذلك الطالب الى إدارة المدرسة • وكان العميد رجلا صارما • غير أنه كان غائبا آنذاك واستناب آخر كان أديبا معروفا بازدراء العمل الادارى ، لم يستنب الا لأنه انجليزى • فلما بلغته الشكوى وعلم فحواها قال أن مدرسة الآداب انما أسست من أجل أن يحيا فيها مثل هذا النوع من النشاط الأدبى وحق هذا الطالب أن يكافأ لا أن يعاقب • ولما خافه المشيرون عليه آنئذ أن يتمسك بهذا الموقف نبهوه الى أن عفوه عن الطالب قد يؤول على معنى التحامل على الاستاذ المصرى ومثل هذا التأويل السياسى غير مليح • وانتهت القصة بفصل الطالب يوما • وكأنما كوفىء بذلك اذ صادف يوم فصله آخر الاسبوع فتهيأت له بذلك عطلة يومين كاملين •

وكان الاستاذ عبد الحميد رئيس القسم وكنا نقول له البيه لمظهر حزمه وغلبة قوة شخصيته • وكان يدرس التربية والاخلاق وعلم النفس • وفى

أول درس له همس أحد الطلبة الى آخر يجاوره أن سَمْعه هو ضعيف وأن يلتمس من الاستاذ أن يملى ببطء حتى يقدر على تتبع ما يقوله • وكأن « البيه » سمع بعض ذلك الهمس • ثم ان الطالب الآخر قال بصوت مسموع غير جد جهير : « من فضلك ياأستاذ ملينا بالراحة »

ورفع الاستاذ « البيه » رأسه بدهشة حازمة « بأه دا أنا بملى ، دا أنا بحاضر » وتضاءل الطالب : ـ « قف ياطالب » ••• ووقف الطالب •

ـ « اسمك مين » • • • وذكر اسمه •

ـ أنا راجل بتاع علم نفس ، انت فاهم يا طالب ، دا أى كلمة انت تئولها أنا استطيع أأولها وأعرف مصدرها ومورده ا ، انت فاهم ؟

ـ نعم يا أستاذ

ـ اقعد

وران صمت ما ••• واستمرت المحاضرة أو الاملاء • وكان بيد أحدهم ديوان العقاد الذى أحرزه حديثا يقرأ فيه غير ملتفت الى ما كان من أمر املاء المخ والمخيخ

انى سعدت بقدر ما أحببت لى   يانبل من حقبٍ ومن أسلاف

كان يريد أن يكتشف شعر العقاد وكان بعض زملائه به معجبين وكان شوقى أحب اليه ويستبعد أن يكون العقاد شاعرا وأقلقته هذه المسألة كل اقلاق

ـ دا أقسى ممتحن فى الدبلوم •

ودخل على أقسى ممتحن فى الدبلوم لما نودى لدوره فى الشفهى • • وجد أريحية الفضل وذوق الأدب على أسارير وجهه الصبيح واضحة وبصوته الأجش سأله أن ينشد من محفوظه • واندفع ينشد لامية أبى العلاء :

طربن لضوءِ البارق المتعالى   ببغداد وهنا ما لهن ومالى

ولم تكن مما أملاه استاذ الادب أو حاضر عنه • ولم يلتفت على بك الجارم

الى أى تنبيه وحث الطالب أن يستمر لما أعجبه انشـــاده وسأله عن معانى أبيات • وطلب منه أن ينشـــد شعرا آخر فأنشـــأ ينشد :
مغانى اللوى من شخصـــك اليـــوم أطـــلال

وفى النوم مغنـــــى من خيالك محـــــلال

ونسى الجارم أمر الامتحان برهة وتولى هو بأدائه البارع الانشـــاد :

فيا وطنـــى ان فاتنى بك ســـابق من الدهر فلينعم لساكنك البال
وان استطع فى الحشر آتك زائرا وهيهات لى يوم القيامة اشـــغال
ــ وهل تنظم الشعر

وأنشده مما نظم كلمة كان بها معجبا • • • وانصرف من قاعة الامتحان وأقسى ممتحن فى الدبلـــوم عنه جد راض ، وأن رغمت أنوف ، وكان نظام المدارس العليا يجعل الكلمة الفاصلة فى تقدير درجات الامتحـــان للممتحن الخارجى • وظل على ذلك العمل من بعد فى جامعة الخرطوم •

وكان على بك الجارم قد زار الخرطوم من قبل ممثلا للجانب المصرى فى مداولات تتعلق بموضـــوع إنشـــاء المدارس العليا ومســـتقبل التعليم فى السودان فى ظل الرفاهية المتفق عليها • كان ذلك فى أخريات الثلاثـــين قبل الحرب • واستبشر الناس بقدوم الجارم خيرا • واحتفل به الخريجون فى ناديهم بام درمان • وكانوا قد عرفوا كلمته الطنانة :

بغداد يا بلد الرشـــــيد

ومنوا أنفسهم بسماع أخرى مثلها • وكان الشـــعر مما يرفع من جناح العزة وتصلح على ايقاع رناته وبيانه أفئدة العـــرب • ولم يخب أملهم اذ أنشدهم داليته من نفس البحر وعلى روى آخر :

أخلفت يا حســـــناء وعدى

وجاراه الاستاذ أحمد محمد صالح بكلمته :
فينوس يا رمز الجمال وزينة الالباب عندى

وجاء فى احدى قوافى على بك الجارم رحمه الله كلمة الفرند .
وجاراه الاستاذ البناء بدالية طويلة رنانة جاء فيها :

الشعر قلت هو الفرنـــ ـــد فخذ نصـــيبك من فرند

والقاء أستاذ البناء كان مما يختلس فيه الاشـــباع الذى يقع فى مجارى القوافى ويقارب به السكون على نحو من الترنم . . .

. . . . . فخذ نصيبك من فرنـــ . . . . ـــدِ

ووجدت كلمة الفرند سبيلها الى قصيدة لشاعر من الطلبة واعد جارى بها دالية الجارم وأنشدها صحبه يباهى بها ويقلد طريقة الجارم فى الالقاء :

الشـــعر قلت هو الفرند فهاك إفرند الفرند

وأقامت كلية غوردن احتفالا بالجارم شهده المدرسون أجمعون والطلبـــة أجمعون . وألقى الاستاذ الشيخ جلال قصـــيدة نونية جيدة بالقائه المعبر الواضح الفصيح المبين ، جاء فيها مما علق بالذاكرة :

هَجَــرنا القريضَ فلما رأَيناك هـــاجَ القريضُ بأوزَانه
ســـــليل النبيِّ وســـِـبْط الوصيّ مرتّل آيـــاتِ قرآنه
ومنه حَظِينا بقاضى القضـــاة أبى يوسف الفقهِ نعمانه

يعنى فضيلة الشيخ محمد نعمان الجارم وكان قاضى القضاة . وكان هذا المنصب الى أن جاءت السودنة بعد اتفاقية سنة ١٩٥٢ م لا يشغله سودانى ولكن مصرى مشروط فيه أن يكون على مذهب الامـــام أبى حنيفة . وكان عمل المحاكم الشرعية على مذهب الامام أبى حنيفة مع أن أهل الســـودان كلهم مالكية الا بعض الشوافعة ببربر وسواكن لصـــلتها القوية من طريق التجارة والقوافل والبحـــر بمصر واليمن والحجاز . وفى قصـــيدة « ثريا بإكليل الســـماء تكللت » للشـــيخ ود الطاهر المجذوب ما يدل على أنه كـــان شافعى المذهب وهو قوله : « وان شئت زدنا مالكا وابن حنبل » . هذا ولم يكن عمل الناس كلهم فى القضاء على مذهب واحد من عرف دول المســـلمين

ولافعلته التركية السابقة (١٨٢١م ــ ١٨٨٥م) حين كان لها الامر المطلق في السودان • وانما جاء هذا الحمل على مذهب واحد هو لائحة المحاكم الشرعية المقتبسة من المذهب الحنفي والمنصوص فيها على أن يسرى العمل في ما لم يرد في موادها على القول الراجح في مذهب الامام أبي حنيفة ، بسبب سياسة اللورد كرومر والشيخ محمد عبده • أراد كرومر ، بحسب الذي ألفه في بلاده وكان عليه العمل في فرنسا وسائر بلاد أروبة ، أن يكون أمر القانون كله موحدا مرتب المواد وكان الشيخ محمد عبده يريد الاصلاح ولم يكن رحمه الله يخلو من افتتان بالحضارة الاوربية الحديثة ورغبة متحمسة صادقة في تطوير حضارة بلاد الاسلام وتجديدها من طريق الاقتباس منها • وفي هذا نظر • كان منصب قاضي القضاة وهو قمة المحاكم الشرعية ادارة وقضاء ، تابعا للسكرتير القضائي وهذا أحد أقطاب مجلس الحاكم العام الثلاثة الذين كانوا أعضاء فيه بحكم مناصبهم والاخران السكرتير المالي والسكرتير الاداري وكان الحاكم العام في مجلسه هو السلطة التشريعية والتنفيذية العليا وجميعهم بريطانيون وكان السكرتير القضائي بحكم منصبه الرئيس الاعلى الاداري والقانوني لجميع مؤسسات القضاء • فصار مذهب الامام الاعظم من حيث كرومر يعلم ومحمد عبده لا يعلم فرعا من قانون السودان المستمد من القانون البريطاني والخاضع لهيمنته عند مسائل الخلاف • وهذا كما لا يخفى ، كان تحت رعاية الملكة فكتوريا وخلفائها القائمين على الامبراطورية والحامين لحمى الكنيسة والصليب •

وقد جاء الاستقلال • وذهبت دولة السكرتيرين الثلاثة ومجلس الحاكم العام والحاكم العام والحكم الثنائي بأسره • على أنه بقيت من ذلك بقية ميراث ازدواجية مؤسفة في اطار وحدة قانونية مزعومة تجعل من الشرع غريبا في داره وتهب القوانين الوضعية التي جاءت من عرف الافرنج وبلاد النصارى ودار الشرك وما أشبه عليه هَيْمَنَةً واشرافا

وليس يصح فى الافهام شىء اذا احتاج النهار الى دليل

كادت سنوات المدارس العليا الثلاث تكون بالنسبة الينا زمنا ضاع سدى انما أفدنا حقا من حصص الادب الانجليزى ولا سيما دروس المستر هارت • منه عرفنا عن ليتون استر تشى وادوارد ليروشارلس لام ووليم هازلت فضلا عن شكسبير وشعراء تلك اللغة الكبار • وأفدنا تنويرا بقواعد التجويد وأصول الخط النسخ والثلث ومسائل من الفقه على مذاهب الامام مالك من استاذنا الشيخ جلال • وكان الشيخ محيى الدين عبد الحميد رحمه الله ، باجماع طلبة القانون استاذا فحلا مشرفا بأيما مقياس • وكان بلطة والبيه خيبة أمل ، على أن فضيلة له ينبغى أن تذكر وتشكر ولا تنكر أنه دعا على بك الجارم ليكون لنا ممتحنا خارجيا اذ كان مقدمه علينا ، رحمه الله ، من عطر جنة العربية النادر ، تلك الجنة التى طالما تقنا الى رؤيا لمحة طيف من طيوفها الحسان •

ثم ذهبنا الى بخت الرضا • وهى على الشاطىء الايسر من النيل الابيض قريبة جدا من بلدة الدويم شماليها • وبلدة الدويم تبعد نحو مائة وعشرين ميلا من مدينة الخرطوم •

كان فى الخرطوم معهد لتدريب معلمى المدارس الاولية تابع لكلية غردون يقال له قسم العرفاء نقله المستر غريفث سنة ١٩٣٤ الى بخت الرضا فى وجه معارضة من كثير من الناس •

وتولى معهد بخت الرضا تحت ادارة المستر غريفث أمر اعداد مديرى المدارس الاولية والاشراف على تفتيشها ومناهجها ثم أمر الاشراف على التعليم الاوسط ومناهجه من بعد •

كان المستر غريفث رجلا متسيطرا من بُغَضَاءِ من عرفنا من رجالات الاستعمار والتعليم •

قال لنا استاذنا الشيخ جلال رحمه الله ونحن بازاء السفر الى بخت الرضا

تمام الحج أن تقف المطايا   على خرقاء واضعة اللثام

وأوشك بتبيين نطقه خرقاء أن يضع تحتها خطا •

كانت أيامنا ببخت الرضا مع المستر غريفث ومعاونيه ، حقا أيام بلاء وتمحيص •

وكان لقاء الجارم ، رحمه الله ، على قصره ، مما اعان على تقوية زادنا من الصبر الجميل •

رجع الحديث

الى ذكر الخلوة ونار القرآن المتوهجة من حولها الالواح المتحرفات لكى يعممهن الضياء •

هذا صوت العليابى رحمه الله يردد •• والنار مثوى لهم • • • وكأين من قرية • • • وهذا الطاهر المشكوت رحمه الله قد اصلح النار ويردد ولوحه بيده • • • وهذا • • • وحِمِىَ الحيران شيئًا فشيئًا • • • عَلَت الاصوات لا فى صخب ولكن فى جد • قراءة الظهر فى القرآنية فيها حيوية انفعال الصغار وصياحهم مع الحر وبعض ازدحام الأنفاس • لكن قراءة الليل ، « إن ناشئة الليل هى أشد وِطاءً (١) وأقوم قيلاً » صدق الله العظيم • هذه تَرَنُّمَةُ صوتٍ نقىٍ : أجعلتم سقاية الحاج وعمارة • • • وتلاشى الصوت فى الجمع القارىء وهذه هَدْرَةٌ مقتدرةٌ : « نبِّىء عبادِىَ أنّى أنا الغفور الرحيم » وجعل الصوت يبعد عند « وأنّ عذابى هو العذاب الأليم » • • • « وقتل داود جالوتَ » ••• « قال أنظرنى الى يوم يبعثون » • • • « قال ألم أقل لك » • • • « قل من كان فى الضلالة » • • • « واذكر أخا عادٍ » • • • جمهرة أصوات منسجمة من حَدْرٍ ذى حيوية واجتهاد واستشعار أدبٍ من جو الخشوع عند قراءة القرآنَ • واستتمام جرس التلاوة المجتمعة بهدير منهمر ، بدوِىٍّ كدوِىّ النحل • • • هكذا وصفوا القرآن فى تلاوة العصور الاوائل •

---

(١) قراءة أبى عمرو • وقراءة عاصم أشد وطئا واقوم قيلا •

كانوا انما يذكرون بالكراهة أنْ يُهَذَّ القرآن هذّاً كالشعر . والهذ كان طريقة من الانشاد السريع المندفع فى الأراجيز والأشـــعار الذى ربما تخفى معــه الالفاظ والمعانى . لعل طريقة العرب البقارة عندنا حين ينشدون ويندفعون فى أخريـــات الابيات بأداء يحاكون به ركض الخيـــل مما يشبه الهذ . حدر القرآن واسراعه وادراجه أى المضى بقراءته قدما كل ذلك ليس من الهذ ولكن من صـــــميم الترتيل .

دوى كدوى النحل . هذا هو القرآن كلام الله المحكم القديم ، كتاب الله المنزل المحروس بحفظ الصدور والسطور وتجويد التعليم .

قراءة المدرسة لطيفة ، لكنها كأنها تلحين بحت . هل ينقصها عنصر خشوع حيوية تلاوة الخلوة وأصالتها ؟ لصغار المدارس خشوع عند القرآن ولكـــن يصحبه رنين صياح غناء غريب ... ينقصها عنصر الانســـجام الذى ينشـــأ من حرية أداء أنواع الاصوات والمقدرات والمواهب المختلفة كلهن معا وعلى انفراد .. وينقصها عنصر العتق ومنشـــأ تـــواتر ســـند التلقى شفاها عن الأشياخ جيلا بعد جيل .. وينقصها .... عنصر البساطة والترابية .... قراءة المدرسة مع قصد الخشوع بالقلب المسلم المؤمن مما يهيمن عليها شىء من أسلوب النظام المدرسى .. نرى التلاميذ المتشابه قاعدين على مقـــاعد المدرسة وأمامهم قماطرهم المتشابهة ... ناظرين بانتباه واحـــد الى أجزاء مطبوعة متشابهة والى المدرس والسبورة ... الضبط والربط العســـكرى نوعا ، الذى ترمز إليه الأزياء والسبورة والأدراج والمقاعد وطلاء الجـــدار وأسمنت البـــلاط .. قبعة حصان كتشنر قدام المالية .

وطربوش بعير غردون فى ميدان السراية عند نهاية شارع فكتوريا .... أشباح شهادة الامتحان المدرســـية لنصف العام ولآخره .... بســـطورها وحبرها الأزرق والأحمر وملحوظاتها ... انتهازية انتظار الوظيفة ..... دراهم الوظيفة وجاهها

ـ ياولدى ما قريت تشـــتغل ؟
ـ مـا قريته يرتبـوك ؟
ـ ياولدى دحين قرايتكم دى فيها علم ؟
ـ قراية المدرســة ما فيها علم وقرعان (١) علا (٢) دنيـا ساكت
أصوات التلاميذ الصغار فى المدرسة حلوة جزلة الروح لطيفة على كل حال . جزالة الروح مصدرها البراءة والاندفاع . مقرر منهج المدرسة الاولية ... جزء عم . جزء تبارك . جزء قد سمع . مطبوعة برواية حفص عن عاصـم بعض المدرسين تعلم قرآنه هذه الاجزاء الثلاثة فى المدرسة وما عرف الخلوة. قراءته ينقصـها التواتر . بعض المدرســين قرأ فى الخلوة واختلطت عنـده الروايــة المطبوعــة بالتى تعلمهــا من اللــوح ...

عــم يتســاءلونْ ... ءونْ
عن النبأ العظيــم ... إيــم
قم الّليل الا قليلا ... إيــلا
نِصفَه أو أنقُصْ منه قليلا ... إيــلا
ذرنى ومن خلقت وحيدا ... إيــدا
وجعلت له مالاً ممــدودا ... ءودا

قــراءة مدارس . اســتحسنها وتعجبنى بتكلف . فى نغمهــا نظــام ... رتابــة ... وتلحين بلا ترتيل خاشــع أصــيل الاصــول ...وتحزيـن كأنه جزء من النظام ، نظام برجوازية الافندية وعسكرية الضبط والربط .. تلحين ليس فيه عنصر الشجو والتهزم المطرد الذى يخالط أوتار القلوب...

*** ** *****

بين حين وآخر رنــة مُتقَنة . الشــيخ مصغ سامع بصير ... نار القرآن ساطعة ... عيدان سلمها وتنضبها مشتبكة حمرٌ ، ثاقبات يفوح ويضطرب ويصخب حولهن أوار شعلات اللهيب ... والكل ... حيران وشيخهم ... قعود حــول النار على تراب المسجد ... « قل آلذكرين حرم أم الانثيين .

---

(١) و (٢) بقلب الهمزة عينا فى الدارجة ـ وقرآن إلاّ .

« من صلصــال كالفخار » ••• « أم يقولون شاعر نتربص به رَيْبَ المنون»
هــذا العــليابى رحمــه الله قبــل أن يصـــل الى ســورة محمــد •••
« لَعَلِّى أبلغ الاسباب أسـباب السـموات والارض » ــ غافــر ، قــلّامة
الأظافر • دنا وقت العرضــة ولمــا يــأت بعــد •

كنت فوضويا استعجل قبل زمان العرضـــة وشيخنا يشير على أن أقعد •
كانوا يعطفون على فى حياة الوالد وبعد وفاته • كان فى شيخنا صبر وتسامح
وبركـــة • ومرة وقفت للعرضـــة عجلانًبها • كنت محوت لوحى مــرتين فى
نفس اليوم • وقفت مستنفرا بسَـمْتِ العرضـــة وقلت : أعوذ بالله مــن
الشيطان الرجيم •• بمد اللســـان فى أعوذ وبيان فتحـــة الشـين وســكون
الياء ••• أحاكى الحفــاظ البارعـــين •

كان الشيخ ودتكرون رحمه الله ربمـــا استعاذ فى مجامع تلاوات الحفاظ
الكبــار فى الختمات التى يُعْقدون بها : •• « أعــوذ باللـــه من الشـــرك
والكِبْـرِ والشـيطان الرجيـم » •

ويستحســـن بعض القَرَأَةِ الآن أن يقولوا فى الاستعاذة أعوذ بالله السميع
العليـم من الشـيطان الرجيـم •

وكل هذا حسن • والاستعاذة المختارة عند القــراء هى أعــوذ باللـــه من
الشيطان الرجيم وهى المستفادة من ظاهر آية النحل : فاذا قرأت القــرآن
فاســتعذ باللــه من الشـيطان الرجيــم •

قالوا وكان الشيخ تكرون الكبير ، رحمه الله ، حافظا معروفا بجودة الحفظ
وصحته وقعد فوق العنقريب بحضرة السيد الحسن رضى الله عنه ، لأنه ــ
كما ذكروا أنه احتج به على بعض من أرادوه ألا يقعــد على العنقــريب فى
حضرة الســيد ــ كمصــحف لحفظه فلا يُوضَعْ على الأرض • قالوا وكان
صوته كبيرا أجش وكذلك كان صوت الشيخ ابنه رحمهم الله جميعــا •
وكررت الاستعاذة •••أعوذ بالله من الشــيطان الرجيم •

وذهب اللوح الذى حفظته من ذاكرتى مرة واحدة • وجدت أنى نسيت • وذكرت ذلك لشيخنا فزجرنى مع عطف عريض ••• أحسبه قال : بِسَ •• اقعد • • • الله يهديك
ــ الله يهديك يا ولدى
هكذا كان يقول الوالد رحمه الله •

كان للعرضة وقت يعرفه الحوار المتمرس وكان الشيخ يأذن بها حين يحين وقتها • يقف الحوار مُمْسِكَ لَوَحِهِ وراءه بيمناه ومُمْسِكَ يمناه من وراء ظهره فوق المِرْفق • نوعٌ ما من هيئة سَمْتِ قبض الصلاة • يقف بأدب واستعداد نفس ويعرض بصوت جهيرٍ جزلٍ • الاستعاذة ثم البسملة الا فى براءة لانها نزلت بالسيف • وقراءة العرضة مدٌّ وتحقيق وأداء واضح مع فردية ترنم ما يغلب عليها أسلوب الأداءِ الذى يريد أن يتجرد للصحة فوق كل شىء • الشيخ يستمع • يستمع لينبه على الخطأ والنسيان أو يجيز • وقلَّ حوار يُقدِم على العرضة قبل أن يكون قد استوثق من حفظ لوحه •

ترى الالواح قد جعلن ينخفضن عند دنو وقت العرضة ومعهنَّ الأصوات كل يُسَمِّعُ نفسه يَعرِضُ لنفســـه يَروزها ويستثبتها وقد صـــارت العيـــدان جزلاتهن وشختاتهن جمراً يعلوه هباءُ الرماد بين ذلك أوار لهيب ضـــوء يعلو ويخفت مع ما يعنُّ من إصلاح • كانت العرضة الجيدة يُستمع اليها ويُنْصَت ويُتَحدّثُ عنها من بَعْد • كالذى فى مناقب الشيخ المجذوب رضى الله عنه من صفة عرضته الجميلة للثمن الذى أوله « فاستمسك بالذى أُوحى اليك انك على صراطٍ مستقيم » فى سورة الزخرف وهى الرابعة من الحواميم للطالع وللنازل • « فاستمسك » من أصعب الاثمان •

مراس الحيران ــ أجيالٍ من الحيران ــ حفظ أثمان القرآن أكسبهم معرفة بما هو منها أســـهل حفظاً وما هو منها أصـــعب • وكلها بعد قد يسره الله سبحانه وتعالى للذكر « فهل من مدكـــر » • وكانت لهم فى ذلك ســـجعات

وأشباه سجعات ، من ذلك مثلا : « فاستمسك – من الرقبة يمسك » « كان الناس ، غلّب الدُّراس » « ومن يهاجرْ – قتل له راجل • » وقد يضيفون على سبيل الفكاهة : جا ينقلب ، قتل له كلب • جايْزاخرْ ، قتل الاخر •

وذكر أستاذنا الشيخ جلال أن سورة الجاثية كانت مما يختبر به الحفاظ •

هذا وللحيران الصغار فى سائر خاوات السودان – ونبئت أن لذلك مشابه فى بلاد المغرب وسائر بلاد المسلمين – أيضا سجعات فكاهة على قدر مستوى ما يرجى لهم تحصيله وشرافته • مثلا :

ألم تر كيفَ • – كسره رِهَيْفه (السجعة بتطويل فتحه كيفا ورهيفا)
لم يكن • قدحاً ممكونْ (بتطويل ضمة يكن) • ممكون أى مملوء جدا بالكسرة واللحم •

– سيدنا ، آكل والا أقوم

– قوم ، تاكل أم دلدوم

ام دلدوم اللكمة بجمع اليد • والفكاهة ههنا فى محاكاة الرمية ، الحوار المتشيطن الخيالى يقول للشيخ كأنه يريده أن يملى عليه القرآن ياسيدنا هل آكل أو انصرف • والشيخ الخيالى الفكاهى يفطن لشيطنة الولد ويجيبه قم منصرفا لا أكلت الا لكمة موجعة •

هذا وكان بعض الحيران فى بلدنا يجيدون العرضة ويعرفون بذلك ومن هؤلاء يكون من بعد الحفاظ وحملة القرآن • وكان بين خلوات القرآن روح تنافس طيب فى طلب التبريز • وكانت خلوات الدامر والجعليين شرقا وغربا وبربر شرقا وغربا والغبش والشايقية وخلوات الصعيد بينهن فى الحفظة والدراس تبادل مستمر فى الزمان القديم • كان ذلك كله حيا منذ نحو أربعين سنة • ثم قد زال الآن كله أو قد اوشكت بقاياه أن تزول الا ماشاء ربك

انه عليم قــدير • قال تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا لـــه لحافظون »
صـــدق الله العظيم

******* *******

كان يــوم الخميس للحيران ــ كما نقول الآن ــ نصــف عطلة • يمحــون الألواح أول الصــباح وتكون من بعــد بداية ثم ينفضــون • وكان يــوم الجمعة عطلة كاملة • كان يوم الخميس كأنه عطلة كاملة • وكان مما يقــوله الحيران : الســبت سبُّوت والأحد نبوت (أى عصا وضرب) والاثنين بابين والثلاثا فزعة ، والاربعا كرامة ، والخميس أخونا ، والجمعة أبونا • وكنت ســمعت من الصــديق العلامة الدكتور دفع الله الترابى ضربا آخر من هذا المعنى وأنسيته وكتبت اليه استكتبه اياه ففعل ذلك مشــكورا : الاحد باب والاثنين بابين ، والثلاثا بشــارة ، والاربعا عمــارة ، والخميس صفقـــة ورقيص ، والجمعة سرحنا ومرحنا ، والسبت الفكي شالي سوطه وسلخنا •

كانت فزعة الثلاثاء كالتمهيد لكرامة الاربعاء • وكان يوم الاربعاء كالتمهيد لعطلتى الخميس والجمعة • ومن جعل الأحد بابا فلمكان الذكر فى ليله الذى هو ليلـــة الاثنين فتنقصر بذلك ســاعات قراءة الليل • وكانت الكرامة يــوم الاربعاء يوقد لها من أول الظهر وكانت من « لوبيا العفن » « وعيش الريف » ويكون مع ذلك التمر وينجز عمل البليلة وقت العصر • ويكون حرّ الشــمس قد انكسر واخذت الظــلال تطول • ويرفع الشــيخ يديــه بالفاتحة ايذانــا بالكرامة • وتوضع أقداحها : قدح أمام الشيخ ومعه بعض الحيران وأقداح لســائر الحــيران ، فيأكلــون ثم يشــتت لهم التمر ويشيل الشيخ يديــه بالفاتحة وينصرف الحيران الصغار ويبقى الحيران الكبار لقراءة الليل • وكان يجاء أحيانا أثناء الدرس فى يوم الاربعاء ــ وفى غير يوم الاربعاء ــ بتمــر هدية، فيرفع الشيخ يديه بالفاتحة ويرفع الحيران أيديهم بالفاتحة ثم يشتت لهم التمر • وكان بعض الناس يفعلون ذلك يعتقــدون أن فاتحــة الحــيران لبراءتهم مقبولة فيقدمون التمر بين يدى الفاتحة صــدقة • وكــان ربمــا يجاء بهدية طعام للخلوة فيؤكل وترفع الايدى بالفاتحة •

وكانت الشَرافة مما يهيىء لصاحبها سؤال الشيخ اطلاق سراح الحيران قبل الأوان • والشرافة اظهارٌ واعلامٌ أن الحُوّارَ أدرك كذا وكذا حفظا من سور القرآن « لم يَكن الذين كَفروا » أولى الشرافات الكبيرة يصلها الحوار وهو صاعد من « الناس » الى «البقرة» على النحو الذى قدمنا ذكره • (الفاتحة) يبتدأ بها للبركة و « الناس » آخر الكتاب الكريم يبتدأ بها من بعد ليُيسر القراءة والكتابة والحفظ • « ألم تَرَ كيفَ فَعلَ ربُّك بأصحابِ الفيل » مرحلة تشريفٍ صغير اذا بلغها الحوار صنع أهله شيئا ظريفا جاء به الى الخلوة ولذلك قالوا :

« ألم تر كيف ، كسرة رِهَيْفة » أى كسرة ناعمة معها ملاح « إدام » لطيف كُرَّارة (١) مثلا أو مرقة ولحيمات حسنات وصحين فيه لقيمات(٢)حلوة • « ولم يكن الذين كفروا » شرافة أكبر يُزيّن لها اللوح • ويصنع أهل الحوار طعاما كثيرا طيبا فيه اللحم والكسرة والملاح ، فهذا قول الحيران «لم يكن قدحاً ممكونٌ» يمدون ضمة كاف «يكن» والتنوين فى لهجتنا للتأكيد (قدحاً) وينصب أبدا وكلما كانت مرحلة الشرافة أعلى كان تزيين اللوح أكثر وأرقى وأجود • وألواح المتقدمين من الحيران بطبيعة الحال أحسن شكلا وصناعة خشب • وشرافة أرباع القرآن والسور المتقدمات كالرحمن وتبارك الفرقان أعظم زخارف وأكبر خطرا • والبقرة عظمى الشرافات جميعهنّ تليها الاعراف وهى أول الربع الثانى والكهف وهى أول الربع الثالث •

أبسط الشرافات خطوط وزخارف بالحبر المجرد •

وقد تعلم الحيران تسطير اللوح منذ زمن • وذلك أن الالواح أول ما يكتب عليها الشيخ يسطرها بسرعة تسطيراً أُفقيا بنواة من تمر • ثم يحذق الحيران طريقة التسطير بالنواة •

كانت سطور شيخنا محمد على سرعة خطه اياها بالنواة مستقيمة ليس

---

(١) ملاح الكُرَّارة من الروب واللبن الرائب ثم بعد طبخه يوضع عليه سمن بلدى نقى ومذاقه لذيذ •

(٢) وهى التى يقال لها الان الزلابية •

فيها أدنى انحراف والمسافات بينها متساوية كما لو قدرت بمسطرة ومقياس
وخبرنى الشيخ قمر الدين بن الشيخ عبد الرحمن عن عمه الشيخ ود الشيخ الطاهر أنه كان يضع الورقة البيضاء غير المسطورة على راحته اليسرى ويكتب عليها بيمناه مستعينا بما بين أصابعه سطورا ، وأنه صنع ذلك وهو واقف لما التمس منه تشطير قصيدة الفا هاشم الفلاتى التى مطلعها

ألاواصل الله السلام المرددا

رحمهم الله جميعا واسكنهم روضات جناته •

هذا وقوام الشرافة إطار زخرفى من خطوط ومربعات ومثلثات ودوائر داخله فراغ يكتب فيه أول السورة المشَرَّفة بخط جميل • وكثيرا ما يكتبه شيخنا • هذا على واجهة من اللوح • والأخرى لا تكون عليها زخرفة ولكن كتابة الحوار السابقة للشرافة • مثلا آخر « هل اتيك حديث الغاشية » اذا كانت شرافة الحوار « سبح اسم ربك الاعلى » والجزء الاعلى من الاطار مكان أهم الزخرفة وتجعل فوقه قبة وأهلة ويفتن المزخرفون فيه خاصة وكان للشرافة حيران معروفون بإحسان تزويقها وخلط ألوانها واصباغها•

وكان صفار البيض ربما استعمل للون الأصفر • وأحسب أن أكثر الالوان التى كانت تستعمل فى الزمان الماضى كانت محاية (١) • ولكن فى زماننا كانت تشترى الاصباغ التى يقال لها التفتة وكانت معروفة فى أكثر البيوت لان النساء كن يصنعن البروش (أبسطة السعف) والمقاطف وقد يصبغن ما يرين تزيينه منها ولا سيما طبابها (أى حواشيها المحزوزة بكسر الطاء وتخلص تاء فى الدارجة) بألوان التفتة الزرقاء والحمراء • فكان الحوار يستعير من أهله مادة ما به يصبغ •

وفى زخرفة الشرافة الكبيرة مثل البقرة والأعراف والكهف ويس ربما تعاون حواران أو ثلاثة ويكون أحد هؤلاء أحذق بعمل التصميم وكالرئيس على صاحبيه • وربما اتفقت فى الخلوة شرافتان أو ثلاثة فى يوم واحد • فكان منظر المتعاونين على تزيين الشرافة مما يعجب • وقد يلتف حوله

---

(١) مثل خضرة الزرع وصفرة الكركم وحمرة المغرة •

جماعة من الحيران ينظرون ويتأملون ليتعلموا محاكاة ما يرون من فن جميل • وبعضهم ليفر من جد القراءة • واذا بحصاة الشيخ تقع قريبا منه ، واذا به يعاود القراءة • • •فجعله نسبا وَوَوَ ياسيدنا ـ وصهرا وكان ربك قديرا • • • • اقرأ يا مطموس ، خل اللعب

تمكين الحوار من فرصة سؤال شيخه إعفاء أقرانه بسبب الشرافة مما قد يعين على أن يمزج بالغبطة والاعجاب به عندهم روحا من المحبة وأن يفل من غرب الحسد •

هذا وكان مما يزيد فن الشرافة الجميل جمالا أنه أمر عتيق ذو أصول عريقة وأنه عفويّ الروح بسيطها غير متكلف وأنه فوق ذلك كله بَرَكة •

لم يكن فى المدرسة شئ يماثل هذا حقا • والقلة البغيضة التى توضع على الطربيزة بالقرب من السبورة ويشرح المدرس الذى لا يعرف موضوع الظلال طريقة التظايل • انما كان يؤدى واجبا • وتمتلىء الورقة سوادا قبيحا من قلم الرصاص الناعم • كَفْ ! كانت حصة الرسم أيضا يقع فيها الضرب الموجع • والألوان ــ هذه أحب • الدائرة التى فيها ألوان قوس قزح • الأزرق والأصفر معا يكون من امتزاجهما لون أخضر • اللون الاخضر جميل لم يعلمنا أحد التلوين فى الرسم • وكان استعمال ألوان الشمع صعبا ويشوّه الورقة أحيانا كثيرة • كَفْ ! مع سواد قلم الرصاص القبيح • كف ! واذا تساقطت الدموع فالويل لك • يا بِتْ •

أركع دِيسْ • والركباتُ الى الأرض وباقى الجسم معتدل والوجه الى الجدار • كأن هذا نوع من الحبس والرفض والإهانة للتلميذ الذى يعاقب بهذه الطريقة • كان فهمنا هو أن « ديسا » هذه تدل على هيئة البروك ومواجهة الجدار وما شرح لنا أحدٌ معناها ، وهو من الفرنسية وصل الى مصر ومنها الينا ، وديس معناها عشرة أى أركع عشر دقائق ، وهيئة البروك أو الركوع التى تقدم ذكرها هى الذى عليه العمل فى صلاة الكنيسة•

لم يكن رسمى رديئا • كنت لا أحب ألوان الشمع • وألوان الاقلام والحبر الاحمر كل ذلك كان أحبَّ إلىَّ • وكنت أُحِبُّ رسم الخُرَط وأصبر عليه وأُتقِنه • لم يكن تلوينى فى مستوى رسمى ولكن تعلمت أن المرور بالقلم الملون بعد خط الحبر يجعل اللون أسطع • اللون الاصفر سيد الالوان • كيف ترى الخط الجيد منه ، المتابع لخط الحبر ، يشع مثل نوار القطن ! والتحبير نفسه يحتاج الى مهارة وفن • نرسم بقلم الرصاص وتمحو ذلك بعد التحبير بالاستيكة فتكون الورقة ناصعة نظيفة فيها خطوط الحبر • تعاريج النرويج • قرن أفريقيا • ايطاليا • وأرخبيل اليونان • هذه تعرض التلميذ لاعوجاج الرسم وتضييع النِّسب وينشأ شىء مختلف عن صورة الخرطة التى فى الأطلس

ــ تعال هنا يا حمار •••• امشى •••اتلهى

ــ تعال هنا يا أهبل •••

ــ لا مشكدة يا غهيم

ما سمعنا بفهيم هذه الا فى المدرسة الوسطى •••

ولكن كان فى وقت عمل الخرط متسع ، لانها كانت تعطانا واجبا نعود به ناجزا بعد أيام ، فهذا كان يمكننا من أن نتعاون ، وكان الحذَّاق من الرسامين والخطاطين بين التلاميذ يستعين بهم أصحابهم ــ وإياكم والشف • وكان كثير من التلاميذ يستعملون الشفافة والمدرس يتفرس فى الخرطة فاذا وجدك استعملتها ••••

ــ لا والله يا فندى ما شَفَّيت (بامالة فتحة الفاء)

ــ كمان كدّاب (بالدال المشدد واللهجة الدارجة عندنا بالضاد : كضاب)
كَفْ • • ! كَفْ • • !

كان استعمال الشفافة يحتاج الى حذق • وكان كثير من التلاميذ يرسمون بلا شفافة ويحتقرون صورة الخريطة المشفوفة •

ــ يا سلام ، انت فنان ممتاز •

ـ يا خى دا شــف ســاكت •
هذا كان أفعل فى النفس من كف الاســتاذ •

شىء من روح الاتقان الفنى الذى فى الشرافة كان مما يوجد بعض مشابهه فى رســم الخرط ــ امريكا شــمالا وجنوبــا ــ مديريــات الســــودان ، الفونج ، جبال النوبــة ، منقلة ، بحر الغزال ، أعالى النيل ، حلفا ، دنقلــة بربر ، البحر الاحمــر ، كســلا ، النيل الابيض ، النيل الازرق ، كــردفان ، دارفــور ، الخرطوم ــ مناطق الدنيا الســبعة ، الغــابات الحــارة تهطل الامطار كأفواه القرب الخ ــ سخالين ــ أرخبيل اليابان • الخرائط السياسية فيها مجال للتلوين الزاهى من أجل تبيين الحدود السياســية • الخــرائط الاقليميــة تعطى فرصــة لغمر الورقــة بالالوان من التندرا الى الغابــات الحارة • والخرائط الطبيعية التى فيها بيــان المعادن والنباتات والحيوان • صــورة شجيرة البن فى اليمن ، صــورة البيزون واليــاك واللامــا والجمل ذى الســـنامين •

ـ خرطــة الهنــد •

ـ فندى فندى تشــبه النهــود

وجوم واســتنكار • وصرف المــدرس الذى كــان يلبس البالطو الدّمّــور والطربوش المغربى والعمــة الصغيرة بميلان فى مقدمــة الرأس الى الامام شيئا ــ صرف كل زوبعــة بحركــة من يــده •

كان مرهَق الوجه ، مُتعَبَ الصــوت ، فيه بحّــةٌ ما ونوع خفوت يتكلّفه • يعرف الانجليزية جيدا ــ هكذا قالوا ــ والحســاب وكل مــادة • يــدرس بســأمٍ شديد • سأم من الاعماق • فى هيئــة بالطوه ووضــع طربوشــه عدم رســمية • ذو نفس من ثورة • ثائر وشــاعر • أملى بصوت متحشرج وكتب على الســبورة بخط حســن ، فيه روح الســآمة :

افريقيا تِنْسمّ من الوجــودِ   فى شكلِه أشــبَه بالعنقودِ

وذلك العنقودُ فى الماءِ انغمَرَّ ما أملحَ الماءَ وما أحلى الثمر
مدت اليه يدَها أوربّا من فوقِهِ كمن يريدِ الحبّا
وآسيا بالجنبِ كالمحتــال تحفُّه من شرقِهِ الشمالى

لا تعجبه الاقاليم ٠ قالوا منقول ٠ قالوا مُعَاكَسٌ من فوق يعنى الخرطــوم هذه أول نفحـــة من نفحات ضغط جو الاســتعمار ٠ كانت غير واضـحة ٠ ستتضح فى ما بعــد من طــريق نظيراتها ٠

***** ***** ****

من الأشياءِ المدرسـية ذات الشــبه شيئا ما بالشرافة شجرة الحمـّام ٠ الحمام ، بتشــديد الميم الاولى ، كلمة كان معناها عندنا الحر الشـــديد ، تماما كما فى قول الشـــاعر القــديم :

نَذُقْ برد نَجْدٍ بعد ما لعبت بنا تهامَةُ فى حمّامها المتوقــد

أى فى جــر المتوقــد ٠

وكنا نقول « البَرود » بفتح الباء ٠ « وأنا ماشى أتبرّد » أى أبترد يعنى استحم كما نقول الآن ٠ وما كنا نقوله أصح وعليه قول ابن أبى ربيعة :

زعموها ســألتْ جــاراتها وتعرّت ذات يوم تبترد

أى تَتبَرَّدُ ٠ ٠ ٠ ٠

أصحّ لأنه أفصح ثم هو أشبه بأحوال جو بلادنا لانا لم نكن نسخن الماء ولكن نصـــبه على أجســامنا باردا ٠
جاءت كلمة الحمام مع المدارس والتمدن ٠

كان جمال النساء الدهن والمُشاط « بضم الميم » أى ضفر الرأس ضفيرات دقيقات ، والرشّـــة وهى جعْل آخرِ كلّ ضـــفيرة كالمروحة وتثبيته بالودك وذريرةِ الصندل ومدقوق المحلب وبالمغرة والمحلب المدقوق ، وبالمغرة وحدها لغير ذوى اليسار ولحاء الشجر المدقوق وعروق السِّعْدة المدقوقة للفتــوات (أى ، العذارى) ٠ والعروس والنُّفَساء لا بد فى رشتهما من الصندل والمحلب وكان الصــندل والمحلب من الأشــياء العزيزة ، يجلبان من الهند ٠ وجاء فى الأغانى الشـــعبية :

يا المحلب الدَّقَّنَّـهْ (١) (أى يا أيها المحلب الذى دَقَقْنَـهُ)

فوق الربع ختنتـه (أى وضعنه فى الربعـات والربعة حق من خشـب مزين تحفظ فيه العطور الناشفة)

ويا مجربين فُرقَ الحبيب كيف إنَّه

(فرق الحبيب أى فراقه)

هذا وكان الأولاد قديما يتمسحون بزيت السمسم وهو مفيد للجلد ومزيل للرطوبة يخرجها من جوف المظم • والنساء يجعلن معه العجين فيطرّى ذلك البشرة • والى حين قريب كانت توجد عصارات زيت السمسم تديرها جمال العصارة بالخرطوم • وزيت العصّـارة الجديد نظيف نقى ولونه كالذهب • اختفى ذلك كله الآن •

كان الرجال يتمسحون بالزيت ولهم ثوب دسم أغبر خصـوصى للمنزل يقال له هدم الدهن أو ثوب الدهن • وكان الماء للصالحين والعلماء والأولياء قال الشـاعر الـدارجى :

رجـال اللـه أبـّان مسـوحا ما

أبان أى آباء مع تسهيل الهمزة وتنوين يـراد به التوكيد • وكذلك تنوين مسوحا • وما أى ماء • أى هؤلاء رجال الله الذين مسوحهم المـاء من أجل متابعتهم الوضـوء والطهـارة •

كان مما يحاجينا به الوالد رحمه الله ونحن بكسلا صغار : كار (أى يجر) البيت ورا البيت ، مسوحه الجاز والزيت ، يَتلوْ لوْ مثل الثعبان ، ويتفشّى من مكـان الى مكان ــ أى قطار السكة الحديد • وكان المسوح أيام صـبانا معمولا به معروفا • هذا وانضاف اليه الماء والصابون فصار ذلك مسوح جيل حديث ، جيل التمدن الذى لعله ينكر الصلاح والولاية والعلم « التقليدى » كله •

---

(١) فى دارجتنا توجد نون النسوة ومع المضعف مثل دَقّ ومَدّ يجاء بها ساكنة وحركـة ضـمير الغـائب تجعل النـون كأنها مشـددة مضـمومة •

أهمّ شي الحمام
ونظافة الاجســـــام
الزول يكون بســـــام
اصله (١) الجمال أقسام • • • • تمَدّنْ

بمد فتحة الميم من تمدن ترنما بها • • • تمادن ، هذه قفلة الاغنية التى ظهرت زمـــان « التم تم » ـ طريقة من الغناء فشـــت أخريات الثلاثين ـ وكانت روح معانيها قد ظهرت من قبل

الزول أى الانسان الظريف ثم صارت يراد بها الشـــخص ونطقها بفتحة مشربة ضمة وهى فى الفصـــيحة زاى مفتوحة بعدها واو ســـاكنة والمؤنث زولة • قال ذو الرمــــــة :

ومهمهٍ داوية مِتْكــالِ قطعتهُــا بفِتيــةٍ أزوالِ

وفى شـــــعرنا الدارجى :

العَطْوي ال جانا دابْه (أى العطوى الذى جاءنا الآن منذ حين قريب)
يسلّنْ فى رقابْه (له رقبة طويلة يستلها يباهى بها)
سَنّك لَبنْ زولاً ظريف حلا به (أى سنك بيضاء كحليب اللبن الذى حالبه انسان ظريف فهو نظيف فى بياضه)

كان حمّام المدرسة إجباريا •

كان الوضوء يترك فى ظاهر اليد والقدم قشفا • ويكون فى شقوق القشف أحيانا دم • ومع اشـــتداد البرد فيما بين نوفمبر وفبراير كان التدقيق فى الاجبار على الحمام يشـــتد • وزعموا أن الحمام يزيل القشـــف أو يكون لا قشف معه أبدا • القشف متأخر • القشف غير متمدن •

كانت رئاسة مراقبة الحمام يومية دورية بين كبار التلاميذ الذين ليسوا برؤ ساء عنابر فى الغالب ، فى ما أذكر • وكان رئيس اليوم للحمام يجلس على كرسى ، ظاهرا عليه فَرَحٌ بنوع الإمارة الذى صار اليه • وبعضــــهم يتصنع صرامة وجه وبيده كراسة الحمام مفتوحة مرسومة عليها شـــجرة

(١) أى اصـــل الامر ان الجمـــال اقسام •

الحمام • مثل سدرة المنتهى التى تكتب عليها أسماء الله الحسنى • فى العصر السابق ليوم الحمام الذى يكون هو مسئولا عنه يستلم رئيس الحمام ليوم الغد كراسة الحمام ويرسم شـجرة الحمام على الورقة التى تلى ورقة من استلم منه • ويفتن فى تصـميمها وتصـميم ورقاتها وتزويق ذلك بأقصى ما يستطيع • ولكل تلميذ رقم • فيجعل هو لكل رقم ورقة من أوراق شجرته يكتب الرقم فى داخلها أو فوقها أو بين انعطافات تضاريسها أن يك قد جعلها ورقة ذات تضاريس • وقد يعين رئيس الحمام أصحابه بالتلوين والزخارف وقد يكون هو غير حسن الرسم فيعهد الى حاذق يهيئه له • وكثيرا ما يجتمع التلاميذ حول من يرسم شجرة الحمام يستحسنون ويقترحون •

ويخرج الولد يكتكت من برد كيهكِ (ديسمبر) وطوبه (يناير) • ويجرى الى رئيس الحمـام أو يمشى مشـيا مسرعا • وينظر رئيس الحمـام اليه بسلطنته القصيرة الامد • هل استحم ؟ (فى الحقيقة هل استبرد) ؟ بعض رؤساء الحمام لؤماء جدا وبعض التلاميذ كانوا يغشـون ، يمسـحون الاطراف والوجه مسحا ظاهرا ويخرجون يكتكون مع مبالغة فى ذلك كأنما قد غطسـوا فى البحر وأخرجوا منه •••أرنى رقبتك ••أرفع سـاقك •••• ويمد الولد رقبته ويرفـع رجله وبين الجلد الذى مسـه الماء والذى يمسـه الماء حد ظاهر •••مستهبل •• والله اسـتحميت ••اذا لم يقتنـع رئيس الحمـام فله الحق أن يقـدم اسم التلميذ الى ضابط المدرسة حيث تنتظره الخيزرانـة أو يرجع مرة ثانية فيسـتحم • وتحصـل الوسـاطات ، فى النهايـة يشـطب رقـم التلميـذ

تشـطب جميع الارقام • حضروا كلهم واسـتحموا • انتهت الامارة • الشرافة أمتع • الشرافـة بركة • ثم مع الشرافة التمر والطعام والشـاى أحيانا واللقيمات أيضا أحيانا كثيرة • لما شرف الطيب النقر ذبح خـروفا — أو عجلا لا أذكر جيدا — فأطعم نعم الطعام وطلق الحيران فى وقت واسع ، أول العصر • أذكر قراءته ليـلا بعد ذلك فى ألواح البقـرة « سيقول السفهاء

من الناس » وهى أول الجزء الثانى ، ويغلو فى تحرى صـــحة النطق بالقاف يقارب بها الكاف جدا والغالب على نطق الخلاوى مقاربة الغين وبعض ناس الخلاوى يخلصها غينا • وقال لى شيخ محمد ود الجلال ، رحمه الله ، عمدة الدامر وكانت له بعلوم الادب والعربية دراية وذوق دقيق ، ان الكتيـــاب ـــ وفيهم علم وفضل كثير ـــ كانوا يحرصون على القلقلة ويمتحنـــون الحيران الكبار فيها بسورة اقتربت وبقوله تعالى فيها «فى مقعد صدق عند مليك مقتدر» وعن أســـتاذنا الشـــيخ جلال أن بعض فقراء الخـــلاوى فى الماضى يمدون اللسان فى الغين ليفرقوا بينها وبين القاف فى نحو « استغفر لهم أولا تستغفر لهم » مع ملاحظة أن رواية الدورى على المشـــهور من ادغام الراء فى اللام ـــ اســـتغفلّهم أو لا تستغفلّهم ـــ

حاشـــية : نطق القاف عندنا مقارب للكاف وليس بكاف وهذا النطق فاش فى معظم البلاد العربية ويقرأ به القـــرآن فى بعضها كاليمن • ونطق الغـــين عندنا من مخرجها وقد يجاء بها ضعيفة مقاربة لمخرج القاف • هذا فى العامية الدارجـــة • وفى قراءة القرآن وأداء النطق الفصـــيح ما قدمناه من مخالطة القاف مخرج الغين ولا يخطئون فى أداء الغين • فالذين يخلطون نطق الحرفين فى القـــراءة ويخافون الالتباس هم الذين يمـــدون اللسان • وليت المدرسين الان يفعل بعضهم شيئا من هذا القبيل • اذ الان قد جعل نطق الغين والقاف فى المدارس يختلط اختلاطا قبيحا حتى ان الكلمـــات التى كان ينطقها الناس غينا فلايخطئون قد جعل ينطقها التلاميذ قافا فيخطئون والخطأ من التدريس فى هـــذه الحالـــة مثل كلمـــة صـــغير التى ينطقهـــا بالعجمـــة المدرســـية صـــقير ـــ خطـــأ جـــديد جـــدا •

نطق الجيم عندنا من سقف الفم حرف شديد أخو الياء لا يخالطه الانتشار الشـــينى الطابع كما فى جيم أهل الشـــام ولا مشابهة ما بين الكاف والقاف كما فى جيم أهل مصر • وفى كتاب شرح نهج البلاغـــة لابن أبى الحـــديد ان بنى عك من اليمن كانوا ينطقون الجيم كافا فيقولون الكمل للجمل • وزعـــم

أبو العـلاء المعرى فى رسالة الغفران أن العبـاديين رهط عـدى بن زيـد الشـاعر ، كذلك يفعلـون ، والله تعـالى أعلـم •

أصل الشرف فى اللغـة الارتفـاع وفى العامية نقول فـلان يتشرف لكذا أى يمد رأسـه تطلعا اليه وفى اللغـة العربية الفصـيحة شرف فلان منزله أى جعل له شرفـة أو شرفات والشرفـة (وهى التى يقـال لها البلكونـة الان) مرتفعـة ومزينـة بأعمـدة وزخرفة بناء • والعرب قد عرفت هذا النـوع من هندسـة المسـاكن وزينتها فى اليمن وحضـرموت واليمامـة وغيرهن • وارم ذات العمـاد الاسطورية الجمال انما كانت بجنوب جزيرة العرب وزعـم بعض أهل التفسـير أنها هى المرادة بقوله تعالى : ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البـلاد والسـياق يدل على أن ارم ذات العماد بدل أو بيـان لعاد من قوله تعالى الم تر كيف فعل ربك بعـاد ، فـارم هى عـاد الاولى وعمادها خيامها أو طول أجسامها وهذا ما عليه أرجح أقـوال أهل التفسـير واللـه تعـالى أعلـم •

هذا وقد عرفت العرب أيضـا أنواع الوشى والزخرفـة فى صناعة الثياب مثل برود الخال اليمنيـة التى ذكرهـا أمرؤ القيس فى شعره وفى صناعـة الهوادج التى يقال لها التزيديات نسبة الى بنى تزيد وعليها دوائر ومربعات حمـر يقال لها العَقل والرّقم وذكرها علقمـة فى شـعره والى ذلك أشـار أبو تمام حيث قال يصـف حسـن ديباجة قصيدته التى مدح بهـا أحمـد ابن أبى دؤاد واعتـذر اليـه :

كشـقيقهِ البردِ المنَمْنَم وَشْـيُه ... فى أرضِ مَهْـرةَ أو بلادِ تـزيد

وانضـاف الى الزخرفـة العربية الاصيلة القديمة زخارف العجم فنشأ من ذلك زخرف اسـلامى انتظم ما بين المشرق والمغـرب تجـده بكنـو وبسـمرقند وبـلاد البوسنا فى أوربا وبقايا آثار العرب بأسبانيا والاندلس ومن أقـوى شواهده الزخرفة التى فى أول المصـحف الذى طبعته الحكومة

العراقيـة بروايـة حفص عن عاصـم وحكومـة المغـرب بروايـة ورش عن نافـــع •

هذا وكانت مواضـع غير أوائل السـور التى للشرافـة تزخرف أحيانا مثل آية الكرسى وجلالتى الانعـام (رسل الله الله أعلم) • وفى المجـودة النسـخ من مصـاحفنا الخطيـة التى برواية الدورى عن أبى عمرو تجعل لكل جـلالة منها صفحـة مزخرفـة • وفى المصـحف الذى تركه الوالـد كانت الصفحتان قد تركتا كل منهما بيضـاء لتزخرفا فيما بعد • فأخـذت نفسى باسـتدراك هذا الذى فات وجئت بقلم الرصاص أرسـم به الزخرفة على طريقة رسم الخرط لامسـحه بالاسـتيكة بعد تحبيره بالعمار وأصناف الالـوان فمـا أدرى ما صـنعت •

هذا وكان صغار الحيران ينطلقون بالشرافة ليرى الناس أنهم حصلوا كذا وكذا من كتاب الله • وكان الحيران فى طوافهم بالشرافة يسـألون الناس الجوائـز عليها فكل يعطيهم ما يقدر عليه • أم نحضر زمان كان للحـيران سلطان بسؤال الشرافة • لا يخفى ما فى ذلك من ربط محكم للمجتمع بمعاهد التعليم • لا بل مصدر ذلك من صنيع الحيران انما كان من حقيقة الارتباط الروحى القوى بين التعليم فى الخلوة والمجتمع • أمر طبيعى لا تكلف فيه •

شاهدت فى مدينة كنو بعض الصبية بأيديهم الالواح يطوفون بها ويتغنون أغانى حلوة جـدا ذات نغم حى ، سريع متلاحق • ولكنه بلغة هوسـا • وسمعت نفس النغمة أو نغمة مقاربة لها جدا بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم من أُصَيبية صغار بناحية جبل أُحد يدعون للزوار •

ومن أناشيد الحـيران التى كانوا يتغنون بها وهم يسـألون بالشرافة ويخوفون من لا يعطيهم جائزتها تهاونا واسـتخفافا وبخلا ، ذكر لى ذلـك الاخ المفضال والزميل العلامة الدكتور دفع الله عبد الله الترابى :

ال ما بيدينا الشرافة ،

بالعقرب النتاقة ،

تنتفه فوق ندييـــه ،
تشـــهّل عنقرييـــه .

أى الذى لا يعطينا حق الشرافة ندعو عليه بالعقرب النتّافة (أى الشديدة اللسـع لان العقـرب حين تلسع تغرز ابرتها ثـم تنتف ذنبهـا عنك كمـا ينتف الريش) ، تنتفه فوق ندييـه بنون مفتوحة ثم دال مفتوحـة ممالة مشبعة بالامالة ثم باء بعدها الضمير بالتحامها معه (بو) ، أى عظم سـاقه سمى بذلك لندوبه وصيغة فعيل بفتح الفاء وامالة العين نادرة لا أعلم منها غير هذه الكلمة ولولا ما فيها من معنى الندوب وهو واضح فى حرف الساق لقلنا انها بجاوية أو نوبية أو غـير عربية . تشهل : تهىء . عنقرييـه : أى نعشه الذى تحمل عليه جنازته . شـحذت مرة بالشرافة ولم أحصـل على طائل وعلم أبى ولم يرضه . رأيت عدم الرضا فى وجهه .

لا أدرى كيف صرت الى شرافة سـورة محمـد ولا شرفت الرحمـن ولاتبارك قبلها . كنت فوضويا كأنما أثب وثبا . الدخان ، يس . أذكر لوحى فى يس . لكن لا أذكر شرافتى لها . وبين لى الوالد رحمه الله اجاءها بالادغام واذ جاءها بلا ادغام وقـال انها قراءتان بيانا سهلا واضـحا فى غاية اليسر وذكر لى فكى الطاهر ود بابكر رحمه الله وكان ينوب عن شيخنا محمد ود الطاهر رحمه الله ، اذا غـاب أن قراءتنا فى الخلوة بعمرو أى أبى عمـرو وقراءة المدرسـة حفص والقراء سبعة . لا أذكر صاد ولا والصافات . نعم كان جماعة الشيخ البدوى فى المولد والحوليات ، وحلقتهم صغيرة ، ويجيئون ومعهم قنديل كبير مكسو ومزخرف يحملونه أمامهم ، يقولون بأصـوات ملائمة لطريقة انشادهم فى الاذكار :

سُبحان رَبِّكَ رب العزّة عمّا يصِفُون
وسـلامٌ على المرسَـلينَ
والحمـد للهِ ربِّ العـالمينَ

ـ الله . . . . يشْرِبونها هاء من عند أولها
ـ أهـله . . . أهـله . . . . .

وينشدون نشيدا غريبا وبعضهم معه رق ، دف فيه أصناج نحاس رخيمة لا ترن رنينا شديدا • • • والدف نفسه خافت الصوت خشبيه غير ذى تهزم رنان • • • رخيم جد رخيم • •

كان بين رحمه الله مقدمهم وهو الذى يقول فيقولون معه سبحان ربك رب العزة عما يصفون • وما كنت أربط بين هذا وآخر الصافات • ولا أذكر « تنزيل » ولكن أذكر « غافر » وهى أولى الحواميم وآخرها للصاعد • أذكر « فصلت » يذكر فيها آذان فكى عبد الله ود المريف رحمه الله ، جهيرا صيتا ندياً قوياً : ـــ ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين • • • الله أكبر الخ • • • وأذكر رمية شيخنا فى غافر : أسباب السموت ، هى أيضا فى كتاب قواعد اللغة العربية لحفنى ناصف ـــ لعلى أبلغ أسباب السموات والارض ـــ مثال على أن لعل للترجى ، رمية شيخنا « فاطلع » بالرفع (قراءة أبى عمرو) وكتاب القواعد « فاطلع » بالنصب (قراءة عاصم) • وليت للتمنى • وكان الوالد رحمه الله يترنم ترنما عذبا بهذا البيت :

ليْتَ الكواكب تدنولى فأنظمَها　　عُقودَ مدحٍ فما أرضى لكم كلِمى

وهو شاهد فى كتاب القواعد على أن فاء السَببية تنصب الفعل بأن مضمرة وجوبا ـــ فأنْظِمها •

وقصة النمرود ، أيضا متصلة بآية سورة غافر • وهو أيضا حاول أن يصل الى المولى جل وعلا فى السماء وسمَّن صقوراً وطار بها ، جعل لها لحما مُعلّقا فوقها وهى تطير لتأخذه • كنا نتذاكر بها مع فكى الطاهر ود بابكر رحمه الله ، وكيف أن النمرود الملعون أهلكه الله بأضعف خلقه ودخلت ناموسة فى أنفه وصارت الى داخل رأسه وجعلت تــزِنّ فى داخل رأسه وتتغذّى بمخه وهو من ذلك فى أشد التعب ويضربونه بالبراطيش ـــ أى النعال القديمة ـــ حتى انكسر قحف رأسه وخرجت الناموسة مثل العصفورة•
هل مات النمرود بتورم خبيث فى المخ ؟

وفاطر وسبأ أذكرهما الى النمل وأذكر مذاكرة فكى الطاهر ود بابكر رحمه الله وتفسيره القطمير بأنه قشرة النواة والنقير بأنه نقرة النواة • وشارك فى هذه المذاكرة فكى على ود نور الدين رحمه الله • وفسر فكى الطاهر كلمة مِنسَاة فى خبر سيدنا سليمان عليه السلام ، فمادلهم على موته الا دابة الارض تأكل مِنْسَاتَهُ ـ بأنها العصا • وخبر سيدنا سليمان عليه السلام كله طريف ممتع • وكنت أحس عطفا على العفريت الذى تبرع أن يحمل عرش بلقيس فحرمه من الفرصة سيدنا آصف بن برخيا ذو القوة الخارقة : أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك بصرك • قالوا كان عنده اسم الله الاعظم .

وخبر سيدنا موسى عليه السلام • وكنا نتذاكر بقراءة لامية ابن الوردى وشرحها • وفيه أن فرعون كان اسمه الوليد بن مصعب وكان صعلوك البداية وكانوا يقولون له فرَّعَوْنْ نَفْسِه لأنه كان دائما يفر وكان أنانيا فلقب لذلك بفَرّعَوْنُ نَفْسِه ثم اختصرت الجملة الى فِرْعون • وكنا نتحدث عن قوة سيدنا موسى عليه السلام وأحسب أن أصحاب الاخبار خلطوا بينها وبين قوة شمشون صاحب دليلة •

وكان حاج آدم يعرف النحو والأدب وعنده شرح المعلقات وكان من أهل الغرب اما جهة شاد واما برنو ويقرأ بحماسة • وكان فكى على ود نور الدين حسن الصوت ويستطرف من أشعار التصوف أبياتا رائقة • وأذكر قراءتى من البقرة الى الاعراف ومدارستى صاحبا لى (الاستاذ محمد أحمد الهوارى) كان جيد الحفظ مهذب الاقبال على التعليم سليم طوايا الصدر

ـ كنا نقرأ معا ومعى فوضويتى

ـ قرايتك قراية جن فى جن

كان فى الخلوة نشاط ثقافى كثير كبير متعدد النواحى منه درس ومنه

عبادة ومنه أدب ومنه تصـوف ومنه عرف قديم كالتحنيك والتميمة للمولود ولامه وحجـاب العروس وتمائم ورقات الاولاد • ذكـروا فى الخبـر عن الشـاعر غيلان ذى الرمـة انه انما سـمِّى ذا الرُّمَّةِ لانه كان يلبس تميمة أى تعـويذة ، هذا بعض التأويـلات فى اسمه • والبخـرة وهى ورقــة صـغيرة فيها تعويذة تحرق ويتداوى بها من كثير من الاوجـاع • وصـار اسـم البخـرة فى المدارس يطلق على الورقـة التى يختصر فيها الطـالب بعض الاجـوبة ويدخل بها غرفـة الامتحان وينقل وبالطبع يكون قد خمن الاسـئلة • وربما غَفَل المتحنون المراقِبَ وبعثوا بالبخرات بعضـهم الى بعض وأكثر ما كانوا يفعلون ذلك فى مسـائل الحسـاب •

والشـقيقة وهى الصـداع الذى يصـيب الرأس تُدَاوى بالبخرة وقلَّما ينجح فيها دواء آخر • وقد يلفون الرأس بمنديل ويربطـون المنديل بمفتاح باب خشـبى • كانت تصـنع الابواب من الخشـب المحلى وتكـون لهـا مفاتيح من الخشـب وأقفـال من الخشـب وجعل بعضـهم يسـتعمل مفاتيح الكوالين الحديد مع منديل الشـقيقة وبخرتها ، وقيل هذا لا يجدى• وكان فى القوم أطباء يقرأون التذكرة ونحوها ويصـفون للناس الكراويـة والرشـاد والكمـون والحلبـة • وكـانت تسـتعمل كثـيرا وتكـون فى صـناعة الكسرة ويصنع منها شراب سـاخن وبارد • قالوا : والحلبـة مـدرّة للبول • وكان حاج مجذوب ود مصـطفى أوده رحمـه الله ينهى عن شراب اللبن فكان هذا من أمر طبه عجبـا • ولعله رحمـه الله قـد فطن الى كثرة ما عسى أن ينتقل من طريق اللبن من أمراض ان لم يكن معتنى به كـل العنايـة •

وكانت الصـدقة موسـم فرحة طعام الحيران ووقتها وقت الغداء وتكون فى اليوم السـابع بعد وفـاة من يموت يتصدق أهله بذبح شـاة من معزى أو ضان ويدعون الحيران وشيخهم والفقراء (أى الشيوخ) • وكان اللحـم عزيزا ففرح الحيران كان من أجله • وكان بعض الناس لا يأكل لحم الصدقة

يستنكف من ذلك . وهـؤلاء فى من رأينا قليـل . وفى الصـــدقة الكبـيرة يذهب الحيران ومعهم عدد من الفقراء الحافظين والطلاب المهاجرين ويكون معهم مصـحف أو مصـحفان . والمصـاحف مخطوطة ـ فيفرقها الشيخ غرفات غرفات كل غرفة فيها حزب أو نصـف حزب أو جزء بحسب عـدد الناس . وترتفع أصـوات التلاوة ويكون لها دوى جيد .

وحضرنا أخريات زمان كان الطلاب يقدمون من المشارق والمغارب . وكان فقيه صالح من الشناقيط ـ يقال لبلاد شنقيط الآن موريطانيا وهو اسـم صـنعه الافرنج ليخلدوا به ذكر الروم ويمحوا به ذكر العـرب ـ لا يغيب عن الخلوة وأقام بالدامر زمانا طـويلا كثير العبادة ويقول له الحيران هـذا هذا كالتلقيب له لكثرة استعماله اسـم الاشارة على هذا النحو بـدلا من دا وداك كما فى دارجتهم . وكان أحد النـاس نظيف الثـوب ، يلم بالمسـجد أحيانا فيقيم الايـام ، وكان يقال انه يشـتغل بالكيمياء وكان ذلك قد كـان يسـتتكر للحاقه بالتنجيم والطلاسـم والاسماء التى يراد بهـا تـرويض الخدام الروحانيين . ومسـك الاسماء فيه خطـر جسـيم لانك اذا مسكت الاسـم من دون شـيخ فان خادم ذلك الاسـم من الروحانيين قد يغـير عليك فلا تتماسـك ويذهب عقلك مرة واحـدة ويروى عن أحـد الفقـراء اذ كان شابا جلدا انه مسك اسما فرأى شيئا مخيفا مهولا ذا شعر كثيف أحاط وهيمن وجثـم عليه جثوما واسـتعمل اسما بعد اسم ليتخلص منه فما أجدى ذلك . ثم آيـة الكرسى . ثم أخيرا يّس ويّس قويـة وهى سـلاح الفقراء الذى عليه يعولون فجعل الشيء يتلاشى شـيئاً فشـيئاً حتى ذاب فى ظل شعلة سراج (لمبة جاز) كان فى جانب من البيت . وجاء الفجـر وذهب الى الصـلاة وبعد الصـلاة ناداه شيخنا الفكى عبد الله رحمـه الله وقال له يا ولدى نحن لا نشـتغل بهذه الاسـماء ولم يسبق للفكى عبد الله رحمه الله علم بهذه المغامرة التى كانت من الفقير ، أى علم إلا من طريق الكشـف فتأمـل .

وكثير من الخلوات فى السودان يداوى بها المجانين بعضهم مطلقون وبعضهم يرسفون فى السلاسل وكان الدكتور التيجانى الماحى رحمه الله يستحسن بعض أساليب الفقراء فى مداواة الجنون ويقول لها أصل علمى ، وكان رحمه الله ذا صدر رحب وعلم واسع وتعمق جمع فيه بين المعرفة والتخصص فى الطب والتحصيل الجاد فى أبواب الادب وحضارة الاسلام .

هذا وكانوا فى الدامر لا يداوون المجانين وكان الفقيه حمد ود عبد الله راجل درو ضمين الدامر وجد أهلها الكبير تعاهد هو مع الجن والتماسيح ألا تتعرض لنسله ومن حولهم وهؤلاء لا يتعرضون لها . وحافظ الناس على هذه المعاهدة وكذلك الجن والتماسيح فى ما يبدو .

وكان من عبادات الخلوة سوى الصلوات الخمس اعداد الطريق وأوراده ولياليه فى الاثنين والجمعة . والعدد كبير وصغير بيالطيف ويس وسوى ذلك . وفى أزمان الشدة يجتمع الفقراء لقراءة العدد الكبير يس. وفى الليالى يقرأون مولد الشيخ المجذوب ويمدحون من مجموعته ومن ديوان الشيخ عبد الرحيم البرعى رضى الله عنه . وكنت مواظبا على المديح وحفظت البردة والهمزية . وكانت فى المولد حلقات فيها مجيدون لانشاد المديح مفتنون فى روايته . وكانت رواية مديح الشيخ السواكنية من أحب الانغام الى وكذلك مدائح البرعى ولا سيما حين يشترك فيها مداح كثيرون يتجاذبونها ، ينشد هولاء بيتين وهولاء بيتين بحماسة واندفاع . كان فكى أحمد ود بابكر ود النور لا يجارى جهارة صوت واشراقه مع جودة أداء بالغة وكان مالك أب روف يسانده . وكان فكى حسين ود الريح رحمه الله محبا ذا صوت صحل ونفس حماسة صادق . وكان فكى أحمد ود النور الكبير نسيج وحده .

••• •• •• ••

كان حينما يحضر الشيخ جلال الدين (استاذنا شيخ جلال) بالعطلة يتصل عمران الدرس والفضل فى داره بعمرانها فى الخلوة . وكنت اتردد

على داره فسمعته البردة والهمزية وحضرت دروسا فى شرحهما قرئت عليه أذكر من ذلك خبر الطالب المغترب الذى نهض ليتوضأ للمغرب فذكر أهله فكان من بركة شيخه عليه أنه وجد نفسه يسير الى أهله وأقام عندهم ستين ليلة ثم عاد وأدرك صلاة المغرب ـ اختصر له ببركة شيخه البعد الزمانى وكأنه ما غاب الا طرفة عين وكنا أنا وابن الاستاذ ، الاديب الشاعر الجزل محمد المهدى مجذوب نتذاكر كثيرا ونقرأ فى المجموعة النبهانية ومقامات الحريرى ٠ أذكر جيدا قراءتنا المقامة الشعرية وهو عرفنى بها وعجبت مع عجبه وعجب أخيه فضيلة الاستاذ الهادى وكان فى قسم القضاة فى التجهيزى ، من :

يا خاطبَ الدُّنيا الدَّنِيَّةِ إنها ... شركُ الرَّدى وقَرَارةُ الأَكْدارِ
دارٌ متىَ ما أضحكتْ فى يَومِها ... أبكَتْ غداً تبّاً لها من دارِ

كيف صار بها حذق الحريرى الى :

يا خاطب الدنيا الدنية انها شرك الردى
دار متى ما أضحكت فى يومها أبكت غدا

ونقلت متنا وشرحا فى العروض للشيخ محمد الامين القرشى وكان قاضى الدامر آنئذ ، كبير قضاة المديرية ٠ وقال فى الشاى وكنا نعجب لقوله هذا :

جاء الإناءُ مذهّبا يابانى ... فابن القصائد عند ذا يابانى

وأخذت مبادىء التجويد من مولانا شيخ مجذوب عندما شرع فى تدريس أرجوزة الجمزورى التى أولها :

يقول راجى رحمة الغفور ... دوما سليمان هو الجمزورى

ورسخ فى الذاكرة قوله فى حروف الحلق :

همز وهاءٌ ثم عين جاء ... مهملتان ثم غين خاء

وقوله :

للنون أن تَسْكُنْ وللتنوين ... أربع أحكام فخذ تبيينى

وأن حروف الادغـــام يجمعها قولك : يرملون والغنـــة تكـــون مع حـــروف ينمـــو وادغامك النـــون فيهـــا غير محض

والثان ادغامٌ بغير غنـــة   فى الـــلام والر ثمَّ كـــررنه

وعند بعض القراء ، ذكره ابن الجزرى فى النشر ، وليس ما عليه الجمهور جـــواز الادغـــام بغنـــة فيهما ، والله تعـــالى أعلم •

*** *** *** **

وكانت تقام الحوليات بالخلوة ويذبح فيها ثور ويغلى لحمـــه ويطبخ مع الذرة فيكـــون ذلك بليلـــة لحم ، كرامـــة ، (أى صـــدقة عامـــة) ويحضر أهل الطرق جميعهم ، الشـــاذلية وهى طريقة أهل الدامر والقـــادرية وهى الطريقة القـــديمة ويحضرها حيران الشيخ الجعلى وحيران قادرية الصـــعيد فتكون لهم حلقتان كبيرتان والبدوية جماعـــة (بين) بفانوســـهم المتمدن الذى يداخلـــه روح مصرى فى النغـــم والاداء ـــ ولم لا ؟ والشـــيخ أحمـــد البدوى ، صـــاحب البيرق النبـــوى ، « راجل طنطا » ، وقصـــته مع السيدة فاطمة بنت بر عجيبـــة • كان فكى الطاهـــر ودبابكر رحمـــه اللـــه ملمـــا بهـــا أيمـــا المـــام • •

كان الاديب المصرى مصـــطفى صادق الرافعى رحمه الله يحب الشـــيخ البدوى وله فيه عقيـــدة • وأذكر اذ مررنا فى بعض رحـــلات مجمع اللغـــة العربيـــة الى اســـكندرية بطنطا فاستشعرت أســـى شـــديدا اذ لم نتمكن من زيارة ضريح الشـــيخ البدوى ـــ أسيت على الصـــبا الـــذى زال ـــ على أواخـــر حضارة لابســـناها ولم نكـــد نفعل •

وكانت حلقـــة الختمية كبيرة • كانت دائما كبيرة حتى ظهرت الشبابات ـــ وهى منظمـــات الشباب ذات الطابع السياسى نوعا ما •

كانوا يحضرون بأحزمتهم الخضر والوشـــاح الأخضر فـــوق الكتف الى الحـــزام ، والثيـــاب نظيفـــة والعمائم محكمـــة :

حى قيـــوم • حى قيـــوم • حى قيـــوم •

ويجىء الخلفاء أحدهم كان يلبس جبة وقفطانا • ويفتنون فى الانشاد الذى ينشطون به الذكر :

ـ يا حَسَنْ •••

ـ ••• قيوم ـ يا حسن ••• ـ قيوم

يمدون فتحة الحاء والسين من حسن :ـ يا حاسان •• ـ قيوم كنت أتحمس للقادرية • لنوعى القادرية • مديح جماعة الصعيد ، جماعة الكباشى والعركيين ، خفيف والنوبة ـ وهى الطبل الكبير ـ صوت دقتها يجلجل فى الصدر •

كنت غاضبا جدا من كتاب كليلة ودمنة حيث ذكر أن الطبل كبير له صوت مهول ولكنه أجوف لا طائل وراءه • الطبل محاكاة للقلب فكيف يكون لا طائل وراءه • الطبل قلب كبير •••دق

اللــــه هـــو

صوت من الاعماق • ثم تصير الاناشيد خفيفة ••

خيول النُّورْ يَجَنْ طابورْ •

مولاىْ غفارْ عالم الأسرارْ ••• بدور له خبار (أى يسأل عن خبر)

الفلك دار بدور له خبارْ وين الذكار

ساقية دفع اللّهِ حراتها أهل الله

ويا ليلى ليلك ظَلَّمْ معشوقك صار مؤلمْ

سموه الملك فى كَمْ وكُبَكْ كم حلّ شبك حسن النادر

أبوك يا طـهْ ونفسهُ وطاها (أى داس على هوى نفسه فلم يتبعه)

نادى اب صوبان دفع الله

دفق الوبّان دفع الله

ويصير الذكر آخر الامر انفعال حركات منتظمة والصوت الله الله الله الله ••• فى كم وكُبك كم حل شبك ـ كم وكبك كناية عن المجهول

وديـــار الغيب والاسرار • كنت أقف أراقب مشـــدوها وصـــوت النوبـــة وأطباق النحاس الجهيرة ــ كصـــنج نحاس دف الطريقة البدوية الرخيم ــ يرن فى أعماق نفسى • كنت أحب النوبـــة وذكر الصـــعيد منذ ايـــام كسلا

أل لا لوبـــة جات تِتكىّ : (اللالوبة : شجرة الهجليج ونوى ثمرها تصنع منه الســـبحات الكبيرة ال لالوبة شُدرة مكّة (شدرة : أى شـــجرة)

اللالوبـــة يا اللالوبـــة

ويا ال منك باب التوبة (لان الصالحين يسبحون بحباتها ألفا ويستغفرون)

بتى المنور كيسها : بنتى ــ وهى سبحة حبات اللالوب الكيس الذى توضع فيـــه يشـــع نـــورا •

وأضـــاف الاهل الى ذلك :

بنتى الميدوب عريســـها (أى الشـــيخ المجـــذوب رضى اللـــه عنه)

لالوبـــة يا لالوبـــة يا ال منك بـــاب التوبـــة

*** *** *** ***

وطبل حيران الشـــيخ الجعلى كـــان يعجبنى

هذه طريقـــة الدامـــر القديمة الصـــلة بالشاذلية وفقرائها • لم تكن لها نوبة آنذاك ولكن طبول صـــغيرة من نحاس وجلد عالية الصـــوت وطارات كبيرة وصـــغيرة • والطارة دف من جلد اطاره من دائـــرة خشب غير عريض الاســـطوانة عمقا • وقد يكون قطر الدائـــرة متوســـطا وكبيرا وصغيرا • كنت أحب مديح ناس الشـــيخ الجعلى أشـــد الحب • كنت أنا وفكى أبشر ودشيخنا الفكى الحســـين رحمهما الله جد حميمين • كنا نصنع لانفســـنا طارات وطبولا من العلب والصـــفيح وندق ونحاكى صـــوت الطبل بأفواهنا ونمشى بذلك ولنا رايات مثل الزفـــة ومثلما يمشى جماعـــة مداح الشـــيخ الجعلى وســـط الحلقـــة عندما يحمى الذكر • كانت محاكاتنا لصوت الطبل هكـــذا :

كلبَلْكلْ ••• كلبلكَلْ ••• كلبّلكل ••• كلبلكَلْ ••

وكنا نحاكى الذكر • نمدح ونذكـر لانفسـنا معا : الحق لا الـه الا اللـه بامالة شـديدة ممدودة بعد الحاء وباشراب الالف من لا واوا هكـذا :

الحيق لو ••• إلو •• ها •• الوّ ••• اللـه ••

ونحاكى البدايـة فى الطبقـة الاولى من الذكر : « لا اله الا الله » وفى سائر الطبقـات : الله حى •• الله حى ••• اللوه حىّ ••• بَقَرُه سَطوّحَىْ ••• ولا معنى لهذا الا محاكاة النغم بطفولـة صـاخبة •

وذكر جماعـة الشـيخ الجعلى (رضى الله عنه) سـبع طبقات • وبـين كل طبقتين ينشـدون أناشـيد يقال لها الشـعر بحركة مقاربة للضـم فى الشـين والعين وكثيرا ما تتحول كسرة الفصـيح فى العاميـة الى ضـمة كقولنا طوال جمع طويل وكبار جمع كبير وصـغار جمع صـغير والضـمة من الواو والكسرة من الياء والواو واليـاء أختـان ولذلك أجـازت العـرب الجمع بينهما فى ردف القوافى مثل «يُعيد» «ويَجُودُ» وفى الإقـواء ولم يكن عند القدما من عيوب القافيـة •

هذا وأجمل هذه الاناشـيد كان قبل الطبقـة الخامسـة والسـابعة • الطبقـة الخامسـة لها طريقـة ذكر خاصة بها ثقيلة ذات أناة :ـ قيوووم وضربـة طبل خاصـة للطبل والطارة : كل كل كلبلكل كلكل •••••
كل كل كلبلكل كلكل ••• شـوّقونى الأقـوام

لـوْمى أنـا النـَّوامْ
يا سـبوح يا عـلّامْ
يا رحيم يا يا رحّـامْ ••• لومى أنا النـَّوامْ

ـ قيوووومْ
ونشيد الطبقة الخامسة « نصـبوا خيمتن » أى خيمتهم ـ وهو حماسى يتحدث عن جهاد الصحابة :
نَصَبُوا خيمتُن ليشَافِع المخلوقْ « أى نصبوا الخيمة للرسول الشـافع صلى الله عليه وسلم ـ وهنا اشارة الى عريش بدر الكبرى »

ضربُوا له النحّاسْ نَزَل الوَحِى من فوقْ : «ضرب النحـــاس للحــرب كمــا لا يخفى»

قال له يا محمَّدْ : يمينكم مَـطْلُــوقْ

خلُّوا الكافرين مثل الجَزر فى السوق

نَصَبُوا خيمتُنْ جَلَس القريشى الحُرّ ــ القرشى الحر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه الصيغة فى النسبة الى قريش صــحيحة

ضربوا له النّحاسْ أبانْ جباهاً غُــرّ : أى ذوو الجبـــاه الغر

وَجُوكَ أصحاب رسول الله ال بيكشفُوا الضُّرّ ــ جوك أى جاءوك

وخلوا الدم تقول مطر السَّوارِى تخُرّ ــ أى كمطر الساريات من الامطار

أصحابَ الرسولْ ســوّوا العجايبْ كيفْ

كلّ من كان يَحيكْ فى الدنيا قاعد ضــيفْ

الدِّينْ جابوه قَهْراً بالرّمح والسَّيفْ

وخلُّوا الدَّمْ تَقُول ماياً ضَرَبْ فوق قيف : أى كماء ضربت أمواجه على حافة حجرة النيل حيث يقف الماشى ــ قيف أى شاطئ

نصبوا خيمتُن يا مَرحَبا ال تَمُّوه

والكرارُ دَفَرْ طالِب بنى عمُّهْ ــ الكرار هو سيدنا على كرم الله وجهه دفر أى حمل بفرســـــه

ال يا بَى الرسُولْ الليلَــه واهمُّــه

باسْراع بيعجّلْ بيدفقوا دمُّه

ضربوا خيمتن فيها المنصر كان : الكبـــير المظفــر

جَلَس المصطفى سَيِّدْ وَلَدْ عَدْنان

ضربوا له النحّاس جَبَدُوا الرُّهافّ وسّنانْ : أى جذبوا السـيوف المرهفـة الصـارمة
ـ سنان جمع سنين أى حاد

خلّوا الدمْ تقول ماياً ضربْ وديان

بمثل هذا الروح الساخر كسر قومنا مربع الرصاص الافرنجى فى حـروب المهدية • وهو الذى يسـميه الأوربيون fanaticism وأفظـع منه تحريقهم الأحياء • • •

هذا ونشيد الطبقة السابعة فيه أنغام يا ليلى الصوفية الذوق •

يا ليلى أول يا بادى
طال الشوق للنبى الهادى
نبى الخير محبوبى مرادى
وآخر الليل تسرى له اجنادى (أى بالذِّكْر والتسبيح والصلاة)
يا ليلى أول بادينا
يا ستار للعيب ال فينـا
بالقرشى السـاكن المدينـا
من الاهوال يارب تنجينـا
يا ليلى يا م ريحا زاكى
يا م شدرا مايل متاكى : أى ذات شجرٍ مائل بعضه على بعض
فى الحضرات نعم ال والاك ى
يا م كأساً دايرْ ما أحْـلاك ى
يا ليلى كاملات أوصـافهنْ
وخيل الغيب من صنقع شـافَهِنْ
خيل غرّ تامـات أصـنافهن
وشَلعَ النورْ الى عند اضلافهن
يا ليلى دربك زلقييَهْ ـ أى ذو مزالق

وما بيمشيه الحاقب العيبه ـ العيبة أى الشنطة أى من جعل الشـــنطة حقيبـــة له ، تعريض بطلاب الدنيا

أى دربك يا ليلى ــ وليلى رمز الصــوفية ــ مزاق لا يستطيعه الا ذو الجد والتشمير الذى لا يحمل العيبة أى الحقيبة أى الشنطة أو كما نقــول الآن : البرجــــوازى •

ثم يأخـــذون فى مــديح الأشــــياخ :

ليلى هُوىْ أنوارْه تلالى

أحمد أبوى يا راحة بالى : يعنى شـــيخ الطــريق الشـــيخ أحمد الجعلى المثنى رضى الله عنه

أنا راجيك تصلح لى حــالى

بالاسرار والكاس الحــالى

ياليلى نادى لى الخاتم : أى السيد الحسن المرغنى رضى الله عنه

وتور كسلاياب دَّرا عاتم :

الأسرار حــاويها وكــاتم

وخيل الغيب فوق راسها يلاطم

ياليلى ينتر فى الَفْهْ دا (أى ينفض حبات سبحته الالفية هذا الولى)

ما تبع الدنيـــا المقـــــدودَة

سلطيتك دايما محدودة : أى حربة سنان روحانيتك أبدا حادة

على الدركان فرسك مشدودة : أى تنجد من يستنجدك وقــد أدركــه الكــرب

ياليلى أولادك وين هـــم

الرشـــد ال ما نامت عينهم

وهكــذا وهلــم جــرا •••

كان قرشى ود محمد على ومجذوب ود كنيش رحمهما الله كبيرى المداح •

لم يكن قرشى صـيتا ولكنه كان ذا حرارة واخـلاص • وكان مجـذوب ذا صـوت ندى وسـماحة وجودة رواية • وكان ضـياب المقدم رحمه اللـه جسـيما ذا منظر حسـن نظيف الهندام له شـوارب دقيقـة مهندسـة ولونه أبيض مشرب بحمـرة ـ رحمهم الله رحمة واسـعة

ليلى ياليلى نادى صُـلاّحى — أبو القيمـان ذِكْـره صبّاحى
ليلى ياليلى نادى أبو القيمانْ — نحاس القوم لِيـدُق رطـّان
أبو القيمان بحـر طامـح — واسـمه الجيل أبو صـالح

**** ** ****

قال لى أحـد المدرسـين وكنا فى أثناء رحلة مدرسية بكردفان ونحـن فى أخريات كلية غردون ، المدرسـة الثانوية ، التجهيزى التى كـانت واحـدة يشار الى تلامذتها بالبنان • كانت الدنيا مسـاء • كنت أقـرأ شعرى فيه هزل وهجـاء مشـاغبة لبعض الزملاء • وكان الشـيخ محمد تمساح ناظر دار حامد حاضرا وكان يسمع باعجاب وقال الله يكفينا شر لسانك يا ولدى • وقال لى أحـد السـخفاء ولم يفهم جانب المدح : هلكك • وسألنى بعضهم كيف تعلمت الشـعر فذكرت أثر الوالد فى ذلك • وماهـو الا أن قـال ذلك المدرس بكل خشونة متعمدة « أن والدك كان بليدا معروفا بالبـلادة ولذلك رفتوه من الكلية زمان » وغالطته وكرهته وانفض المجلس • وكنت من قبل استظرفه حتى قال ما قال وزادنى كراهـة له علمى آنذاك علم اليقين بكذبه واحساسى أنه حسـدنى على انشـغال المجموعة بى وبشـعرى من دون أحاديثه ، وقد اعتاد أن يجمـع التلاميذ حولـه من أجلها • وقـد قـرأت شعر الوالد رحمه الله وسـمعت تلاوته وحسن الثنـاء عليه من كل الناس ولا سـيما أقرانه الذين عرفوه وعاصروه ، شـيخ جلال ، شـيخ البنـا ، شيخ الامين ، شيخ حسن أحمد ، شيخ المليك ، شيخ حسن على ، شيخ نجم الدين ، شيخ عثمان ابراهيم ، شيخ عبد العزيز عبد اللـه ، شيخ ابراهيـم أحمد ، شيخ بابكر عبد الله ، أحمد أفندى محمد صالح وهلم جرا • وسمعت فى تركه كلايـة غـردون من السـنة الثالثـة أخباراً يكمل بعضـها بعضا ، أن والده أصر على اخراجه ، وأنه خاصـم خصومة مرة وكتب عنه لايشتغل

بالحكومة ويعزز هذا ما ذُكِرَ من عزم والده على خروجه • وسألت استاذنا الشيخ جلالاً عن ذلك فجزم لى أنه كان جيدا فى دروسه ولم يرفت ولكن لم يعد بعد العطلة ونفس الخبر قص على مثله الشيخ حسن أحمد وكان الشيخ جلال يثنى الثناء الجميل على اتقانه القرآن ومعرفته بقراءاته وأنه أحيانا كان يترنم بأول الشاطبية وآخرها وحكى الشيخ حسن أحمد رحمه الله طريقة ترنمه فلم يباعد وأنشد قوله يصف ادخال الكهرباء فى أمدرمان واضاءة قنطرتها بذلك :

مصابيح أضواء بدون على النهر   تلوح كعقدٍ من جمانٍ على نحر

ومرة ، وأنا تلميذ بالتجهيزى ، كنا عند شيخ البنا ــ وكان أستاذنا فى مادة العربية ــ فى دارهم الاولى بحلة ود البنا بأمدرمان فأرانى مخطوطة من تهذيب التوضيح وذكر أنه والوالد كانا يتذاكرانها معا وأشار الى الغرفة التى كانا فيها يدرسان •

وعمل الوالد فى التجارة • وكان وعدها حسنا أول الامر • ثم انتهت الحرب وتبع ذلك كساد مروع • وسافر هو الى نواحى الغرب ــ ذكروا أنه وصل الاضية • ولما عاد وجد أن ماله الناطق والصامت من صيغة ونحوها قد بيع بحجة تسديد ديونه ، وزعم من تصدر فى ذلك وحث عليه أنه فعله بدافع الحفاظ على اسمه أن يعاب بالتقصير فى تسديد دين • وغضب الوالد فى ما ذكروا أشد الغضب اذ قد بيعت الحمير الجياد وغيرها وشتى المنفسات بالثمن الوكس فما بقيت الا دار عبد الله والطين وغابة السنط •

وكانت أمام البيوت كُرفَة ــ أى حجرة مستديرة •

ثم عمل الوالد فى التدريس ••• كان ذلك بعد سنة ١٩٢٤م وقد احتاجت الحكومة الى أولاد البلاد بعد اخراجها المصريين ••• فدرس بمدرسة كسلا الاولية وبقى بها سنوات أربعا أو خمسا ثم بمقرات ثم بأبى حمد

ثم بالدامـر سـنة ١٩٣١ وجاءته الترقية والاجل معـا • ولكل أجل كتاب•
وكان رحمه الله شـاعرا محسنا وكان لجرس أبياته رنين ــ مثـلا :

حُبيِّتمو من روح كل خميلَة نسجَ الربيعُ لها حُلَى الابـراد
سَجَع الهزار بها ورتّل حاكيا شـادٍ يتيـهٔ بقـدِّهِ الميـاد
أنتم مصابيح البـلادِ وقادةُ الأبنـاءِ نحو الخـير والإرشـاد

رحم الله الشـيخ حسن على • كان فى الدفعـة التى جىء بها من مصـر وفيها الوالد • لقيته بعد زمـان وأحسـبه جاء من عبرى لحضـور أحـد المؤتمرات التعليميـة اذ هو من نظار المدارس القـدامى • فكـان لقـائى له فيمـا بين أشجار المهوقنى وأشجار النخل الكاذب التى فى مدخل جامعـة الخرطـوم • ــ كلية غوردن سابقا • كان رحمه الله يلبس قفطانـا أبيض وعباءة سـوداء وعمامته ضـخمة وقد ابيض شاربه ولحيته وكان وجهـه صـبيحا وتلقـانى بانشراح نفس وعاطفة طيبـة تكاد عيناه تدمعان ــ كان يذكر عهد الوالد رحمهما الله الرحمـة الواسـعة •

وقالوا كان سبب نقل الوالد رحمه الله من كسلا بعد طول اقامته بها أنه فى ما ذكروا حسد على منزلته من السيد أحمد المرغنى وكان مدحه بقصيدة رائعة بمناسبة خزان مكوار لما افتتح ولا زلت أبحث عن هذه القصيدة أشد بحث وسألت عنها الشيخ القدال رحمه الله قبيل وفاته بأشهر فأثبت أمرها لى ووعد أن يبحث عنها • هذا وقد توفى السيد أحمد رضى الله عنـه سنـة ١٩٢٩ ونقل الوالد بعد ذلك بمدة يسيرة •

كنت أنشل عند البير التى وراء حجرة الطعام (السفرة) بالداخلية لاغسل ملابسى • وجاء أحدهم يحمل ظرفا فيه رسـالة • وفتحتها وقرأت • • •

وما المـال والاهلون الا ودائع ولا بد يوما أن ترد الودائع

واذا بحسن قد غـرق فى المتـرة يوم الاثنين •

لم يحدثونى كيف غرق • وسمعت القصـة بعد زمان • قالوا تعلقت به والدته وجدته تعلقا شـديدا ليذهب معهما الى الدامر • كان ذلك عـام

الفيضان • وكانت الحال حسنة ووعد الزرع طيبا • وزرعنا من المترة نصيبا كاملا غير منقوص • وحق الارض كبير ــ النصف ــ اذ لم يكن فى رى الفيضان مشقة • وأبى • كان يريد أن يلعب •

قالوا نزل تحت حوّام الساقية • وثبت رجله فى جانب المترة • ووضع الرجل الاخرى على العويد الذى يقال له « الاشيقير » وكان يتربص لطائر يريد أن يمسك به • واذا بالاولاد فوق الساقية يجذبون « القشّق » وهو العود الذى يكون لها بمنزلة الحصار (الفرملة) ويحثون البقر ويسقط حسن فى المترة • ولما رأوه سقط صاحوا • وسمع جدنا (أبو الوالدة) جلال الدين وهو شيخ كبير فى الثمانين • أقبل لا يكاد يعقل من شدة ما انزعج لما سمع ورمى بنفسه فى المترة ، وكانت ملأى بسبب الفيضان •

وكفن حسن وحمل ليدفن عند والده بالقرب من حوش ضريح الشيخ المجذوب • قالوا عزمت جدته على أن ترى الجنازة ولم تخل من اتهام الناس بأنهم قتلوه • وما اطمأن قلبها حتى كشف لها عنه وقالت « الموت حق والحياة باطلة انا لله وانا اليه راجعون » •

لعب أطفال صادف لعبا من المقادير •

سقطت منى دمعة كبيرة جدا :

وما المال والأهلون الا ودائع ولا بد يوما أن ترد الودائع

كبيرة جدا • وتماسكت متجلدا • كان موت حسن كارثة •

قالت الخنساء رحمها الله ورضى عنها اذ كانت ذات صحبة :

يذكّرنى طلوعَ الشمسِ صَخْراً وأذكُرُه لكلّ غروبِ شَمْس

ولولا كثرةُ الباكين حولي على إخوانِهم لقتلتُ نفْسى

وما يبكون مِثْلَ أَخِى ولكنْ أُسَلِّى النفسَ عنه بالتأسِّى

ولا سلوان ولا أسوة • ولكأنّ كلّ مصيبةٍ ننوء بها منذ ذلك الحين الى اليوم انما كانت من عواقب ذلك الحادث المشئوم الجسيم • ماتت الوالدة (عائشة) • ووالدتها ذات الشكيمة بعد عامين فى نصف شهر واحد •

كانت الوالدة نقية اللون صفراء طويلة جميلة • قالوا وكانت أمها تخاف عليها العين • وكانت هى أيضا طوالة ضاربة الى الصفرة حسناء أيام الشباب • لم تكن رحمها الله (أى الجدة) تحب المهدية وتذكر أنها كانت بلى ببنتها أيام الزاكى وحسنين ود برى وهدّدها أحد البقارة فى الدامر التى كانت أمانا اذ لم تخرج على الخليفة عبد الله ، بالحربة وقال « بتا بالله » هكذا حاكته ، يريد أن يشق بطنها • ولعلها أسمعته تقريعا اذ كانت حازمة قوية الشخصية — أباً لنا وسندا بعد موت الوالد رحمه الله •

قالوا ولما جاءت خيل محمود ود احمد وخيل الزاكى عارضتها خيل الغيب عليها أهل الله رجال الجبانة الطاهرة بأيديهم الرايات الخضر فردوها بعيدا بعيدا ورأى ذلك الناس بأعينهم •

كانت حبّوبة بت حوا

حبّوبة أى الجدة بلهجتنا • واسمها بخيتة بالتصغير وأبوها خلف الله ود أحمد ود بدير من رباطاب أرتل جزيرة أولياء الله البرشاب بالشريف شمالى بربر وأمها حواء ابنة عم أبيها •

كانت حبوبة بت حوا من شخصيات البلد بلا ريب • وهى ذهبت الى أبينا الفكى البشير رحمه الله وكان كبير الناس وبتدبيره لها ذهبنا جميعا الى المديرية وقابلنا المدير المستر انجلسون وشطب ديون البيت الذى كان اشتراه شيخ الطيب (أبونا) بالسلفية • وأمضاؤه كبير ملأ به أسفل الورقة كله وحرفه عريض • وشدت رحمها الله عزيمتى أن استمر بالمدرسة اذ كنت فيها اقرأ داخليا بالمجان •

هل أصبت وهل أصابت ؟ • • • أظنُّ ذلك • • • وكلٌّ بَعْدُ مُيَسَّر لما خلق له ولكل أجل كتاب •

كانت حبوبة الحاجة مسرة بنت الحراس بنت عم حبوبة بت حوا وزوجة أخيها الصافى رحمهم الله جميعا • وكانت طوالة صفراء حسانة فصيحة شديدة المودة للمهدية والولاء لها • كانت أنصاريتها فرعا من محبتها للشيخ

المجذوب وآله ناس الشيخ ود الشيخ الطاهر بحمرَى والشرق • انما لقب أبوها الحراس لانصرافه الى حراسة قبر الشيخ المجذوب رضى الله عنه .

والشيخ الطاهر ابن أخى الشيخ المجذوب واستاذ القائد عثمان دقنة رحمه الله •

كان جدى جلال الدين أنصاريا يقرأ الراتب •

ولم اتبين هوى الوالدة — كان دائما يقال لها بنتْ جلال الدين باخفاء تاء بنت — بين ميل أبيها الانصارى وهوى أمها الختمى . ولكن سمعتها تنشد وهى تقص علينا من خبر المهدية ونحن صغار بكسلا :

مدافع الباشا ضَرَبنْ رَشْ   وزَىّ المُوَيَّة وَسْط القَش

وقصت رحمها الله علينا خبر أبى العاص وزينب بنت الرسول عليه الصلاة والسلام وسبحة ستنا خديجة ، (وهى القلادة التى بعثت بها السيدة زينب رضى الله عنها لتفتدى زوجها) وخبر الهبار وعلى الكرار وقصت علينا حبوبة خبر أبى طالب لما أدركه الموت وأبى الشهادة وقال « بَخَّنْ بَخَّنْ يَجَّرَدَنْ بنات قريش » اى يغضبن ويرى ذلك عيبا ومدعاة للخجل ، ولا يخفى أن هذا قريب مما جاء فى لامية أبى طالب حيث قال (أو قيل على لسان حاله) :—

فو الله لو لا أنأجىء بسبة   تجر على أشياخنا فى المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة   من الأمر جدا غير قولِ التهازل

وسمعنا منها ومن حبوبة الحاجة مسرة مقالة أب زيد الهلالى وضياب وعزيزة الصفيرا وتونسة العلام • وقصت علينا الوالدة حديث ورقات اللوبيا كيف وجدوا عليها اسم المهدى عليه السلام قبل ظهوره • كن رحمهن الله ذوات المام بالسير والمقالات والاخبار •

وكان الوالد رحمه الله شاذليا • وكان جدنا عبد الله ود الطيب ، أبوه كما قدمنا شديدا فى ذلك • على أن شقيق جدنا عبد الرحمن قد استشهد فى أبى طليح مع ود حلو وأخاه الاكبر محمدا قد أسر فى النجومية •

هل كان ذلك ؟ •• والخوف ؟ •• الخوف من المجهول •• فهمتنى جدتى عند موته أن معنى ذلك انى صرت يتيما •

رحم الله الشيخ مجذوب جلال الدين ، استاذنا الشيخ جلال ، كان فى أخريات ايامه كثيرا ما يقول لى : اليتم بركة • اليتم نعمة •

شعرت بالحزن لما وضعت الجنازة فى ود اللحد ، الشبر الذى يحفر فى جانب حفرة القبر عميقا ويوضع فيه الميت مستقبل القبلة ثم يضعوا فوقه اللبِن والطين ويهال التراب • وعم القوم صمت فى جمعهم الغفير • الفقراء الذين كانوا يقرأون يس ويتفلون رمزا فى اناء الغسل بثيابهم البيض عسى الله أن يمد من أجل المريض الذى قد أشفى ••• أصناف المعارف •• الأهل من أرجاء الدامر غربها وشرقها •• ثم أثنان أو ثلاثة من الخلفاء ــ خلفاء السادة الختمية ــ أحسب أنه منهم الخليفة محجوب قالوا : على أحمدٍ والآل والصحب دائما

أذكر هذا وفى أصواتهم رقة وشجو حزن عميق بعيد ودمعت عيناى بالحزن الشديد •

ذكرت ذلك جميعه وأنا واقف بجبانة الخرطوم بحرى أشهد حين وضع اللواء عمر الحاج موسى فى مضجع قبره • وجاء خلفاء الختمية وأنشدوا براق السيد محمد عثمان المرغنى ، على أحمد والآل والصحب دائما ، رحمه الله رحمة واسعة من فقيد عزيز •

كدت أتبع الوالد وأخى حسنا سنة ١٩٣٥م ثم مَدّ الله فى الاجل • وذلك أنه أقيم تأبين لشيخنا الفكى عبد الله النقر • وقد توفى عن خمس وتسعين سنة • وبدأ الخطابة شيخ جلال ببيان واضح وسجع وتفصيل • وأتبعه سائر المؤبنين • وأنشدت قصيدة همزية بصوت جهير وأداء قوى وثقة نفس :

لقد كنتم خريفا للبرايا   اذا ما كان صيفٌ أو شتاء

وجدنا جلال الدين ، أبو الوالدة ـ وهو أيضا عم الوالد ـ قرأ على محمد الخير شـيخ المهـدى عليـه السـلام •

ولم يكن الوالد رحمه الله ذا هوى فى الأنصـار ، كان ضلعه الى « السادة » بلا ريب • واذا قالت الجدة « السادة » فلم يكن لذلك معنى الا المراغنة السيد أحمـد والسيد على والسيد الحسن « أب جـلابية نور » •

واعلم أصـلحك الله أن العين حق • « تُدخِل الجَملَ القِدْرَ والرجلَ القَبر » وكان الوالد رحمـه الله شديد الخوف من العين • وكـان اذا أخذنى معـه يكثر من الاستعاذة يخاف على العين • وقالوا نفذت فيه هو العين •

أذكر أنه كانت لى منذ عهد غير جد بعيد سيارة مورس حمـراء جـديدة رشـيقة المنظر من طـراز ١١٠٠ • ووقفتها بالقـرب من احدى عمـارات الخرطوم • ونجم حينئذ شخص شديد بياض الثياب ، شديد سواد الوجه ، ونظـر إلى والى سيارتى ـ الى سيارتى أكثر من نظره الى وقال يا دكتور تريد تبيع هذه العربية (أى السيارة) • واستغربت من سؤاله • ومضيت لسبيلى • وما مرت ساعة أو أقل حتى طارت حصـاة فسقطت على زجـاج المورس الامامى فصـار كالرمل ولم أجد له بديلا الا بعد لأى ونصب •

والعـين من اشـعاعات الحسـد وسـهامه •

• • •

كانت وفـاة حسـن كارثـة •

مر قريب من عام على وفـاة حسن وتسـليت كما يتسلى الناس • كـان مكتوبا فى كراسـة الخط أن المصائب تبدو كبيرة ثم تصير صغيرة • وتساءلت كيف كـان ذلك • فضرب لى الشيخ بابكر عبد الله رحمه الله مثلا بمصـيبة الوالد كيف كانت كبيرة شـديدة علينا أول أمـرها •

حضرت اخر مرض الوالد • وعلمت حـين مات • وسرت وراء عنقـريب الجنازة بعـد أن شهدت الكفن والبُرود (الغسل) والحنوط • وكنت أبكى بصياح عال • لم يكن مصدر ذلك الحزن ولكن الحرص على ألا أرى مقصرا •

ونشرت القصيدة فى جريدة السودان الغراء لصاحبها الشيخ عبد الرحمن أحمد رحمه الله • كانت ظهرت ذلك العام • وكان يكتب فيها « طبجى » مقالته « فى الهدف » • وأحسسنا أن أركان الاستعمار قد أخذت تتزعزع • وظهرت جريدة النيل ومقالة : « كم هى غالية دموع الرجال » ـ وفى آخرها : «هنا ، هنا بكيت » • وتبعت ذلك مشادة من الصحفيين ونظرت الى القصيدة فى الجريدة وأعجبتنى غاية الاعجاب • كنت ابن أربع عشرة ، ظاهرة علىّ الحداثة •

وأصابتنى العين بعد ذلك الإنشاد فأحسست بوجع • ثم بحُمّى • ثم بغيبوبة • و أشفيت على الهلاك ومضت الايام والاسابيع ـ أربعة أو ثلاثة • وتكسّرت أى صرت كالمقعد فوق العنقريب لا أستطيع حراكا • ومرضتنى الوالدتان • ولم تنقطع عن العناية بى السيدة أم المهدى والهادى تحضر بالابريه الاحمر الذى كان هو غذائى أكثر مدة المرض ليس لى غيره من غذاء • ثم جاء الشفاء • وتحركت من العنقريب • أمشى حول العنقريب لا أعدو ذلك أول الامر • وجاءت بنت المزين فاستخرجت بالمص دما كثيرا من رقبتى • وكانت قد وضعت من قبل هناك ثلاث كيات تحيت القذال وضعتها بت حدّاد •

كان ذلك العام النهائى فى المدرسة الوسطى • ضاع نصفه الاهم مرضا • وما رجعت الى المدرسة حتى أصابتنى مضاعفات المرض ، أولها العُصْرَة أى الدسنتاريا • ورقدت فى المستشفى حينا • ثم سقط جميع شعرى فصار رأسى أصلع • فزعم بعض المدرسين أننى كنت مسرورا بذلك لانه يجعلنى من كبار الاذكياء أهل الصلعات • وفى فترة يسيرة استرددت الصحة • ولم أنتب من مواجهة العين التى « تُدخل الجمل القدر والرجل القبر » • ألقيت محاضرة عن المهدية بنادى الموظفين • كان ذلك أول السير فى الطريق الحلو العسر ـ طريق التدريس والادب « وكلٌ ميسر لما خُلِقَ له » كما قال لى أحد أساتذتى الاشياخ بعد ذلك بزمان •

كانت اللغـة الانجليزية أهم دروس المدرسـة الوسـطى • وكانت شيئا جديدا للغايـة • أذكر أوليات حصـصها وكلام المدرس عن فعل الكينونة • لم أفهم شـيئا من هذه الكينونة • لم أسـمع بشىء اسـمه فعل الكينونة • نعم ، كنت أعـرف كان وأخواتها الكثيرات الصغيرات والكبيرات كما فى كتاب قـواعد اللغـة العربية لحفنى ناصـف وأصحابه ــ كاد وكرب وأوشـك واخلولق ورد وجعل ــ لكن فعل الكينونة ــ لا ــ ما هذا ؟

ونطق الحرف g كما فى اللغة العامية ونحن فى المدرسـة • هذا عجيب • ينبغى أن نقول « قو » بالقاف كما فى اللغـة الفصيحة • وكنت أقول بكـل عناد وقـوة رأس « آىْ قُو » • ثم أحسـب أن فهمى للانجليزيـة جعـل يستقيم • كنا نقرأ كتاب المطالعة المصرية وكتاب الترجمة لعبد الله العربى • وقـد مـر خبر أنه كان ناظرا لمدرسـة أتبرا وأن أحـد زملائه كان يعرض به ويقول العربى ثقيل ــ هذا من حكايات التلامـذة • تأمل كيف ابتـدأت مهاجمة العربى ــ أى اللسـان العربى نحوه وصرفـه وآدابه ــ فى الخيال ، خيال أبنائه ، دع سـواهم ، منـذ ذلك الزمـان •

وحكايات الحيران فى الخلوة لعمرى أظرف من حكايات تلاميذ المـدارس لسذاجتها وخلوها من روح المنافسـة فى الوظيفـة والتحكم الادارى والجاه الدنيـوى البرجـوازى الغـريب الجليب •

يحكون أن أحـد الحيران أخبر شـيخه بأن هديـة طعام جيد قد جاءت ، وكان ذلك الشـيخ يريد أن يسـتأثر وحـده بالهديـة •

الحـوار ، كأنه يطلب من شيخه الرمية : ــ سيدنا ، العمة مدينة جـابت

قدحـا كبيرا قالت تأكلـونا

الشيخ على الفور كما يفعل الشيوخ فى الرمية :ــ جمعا شتّاً حتى يتفرقونا ويحكى أن أحد شـيوخ الحيران المطاميس ــ أى غـير الملتزمين بأسـلوب الصلاح والتقوى ــ كان يشرب المريسـة ــ وهى خمـرة الذرة ــ ويعدهـا له أحد حيرانه العفاريت ويقعـد للرمية ويقـول :ــ

الحوار العفريت : سـيدنا فارت وتدبدبت بأطـرافها •

شـــيخه المطموس : أضربها بسعن سعف فتحْلَى وتروق وتكون لـــذة للشـــاربين

وحكى لى الزميل الفاضل الاستاذ عبد القادر زمامة استاذ الادب بالمغرب أن أســلوب الرميــة المعمول به عندنا له مشــابه فى طريقة تعليم القرآن « بالفتيا » (١) التى كانت متبعة عندهم • يقول التلميذ مثلا نعماس (نعم ياسيدى) تبارك الذى بيــده الملك • الشــيخ : وهو على كل شىء قديــر • ومما يجرى مجرى الفكاهة أن شــيخا كانت تخاط عنده الملابس فجاءه رجل لم تكن عنده الا جلابة (حلة) واحدة ليخيط مواضــع منهــا • فأعطاهــا تلميذا له فعكف عليها فلما فــرغ منها جاء فقال له على أسلوب التعلم :

التلميذ ، نعماس : الجلّابة وجدت هل أردها لمولاها • الشيخ ، : أسكت (بمد ضــمة الكاف) لعله ينســاها أى هل أردُّ الحلة لصاحبها فأمره الشيخ أن يسكت أملاً أن ينساها صاحبها ، وكيف ينساها ولاحلة عنده غيرها •

مثل هذه النتف على عدم جديتها المطلق مما يصلح أن يرد به على ابن خلدون فى الذى زعمه أن حفظ القرآن لا تنشأ عنه ملكــة البيان فى الغالب لأن الناس مصروفون عن الإتيــان بمثله بالمعجــزة • هذه من أضعف النقط فى المقدمة لما فيها من السفســـطة ولها مشابه ليت ابن خلدون قد أعفى قلمه وقــراءه منها ، وقد كان رحمــه الله مزيجا فذّا من إصــابة الحجة وتدليسها بعض الاحيــان وللــه در الحــريرى اذ يقــول :

منذا الذى ما ســاءَ قطُّومن له الحُســنَى فَقَط

فى امتحان نصــف الســنة كان من ضــمن الاسئلة أن نصحح أخطاء • وكانت احدى الجمل I teached فحذفت الحــرفين الاخــيرين I teach ولما كنا نعرض أجوبتنا بعضنا لبعض خطّأنى الكبــار بأن الصــواب Taugth وصوبنى بعضهم ثم جاءت النتيجة ١٥٠ من ١٥٠ ــ كــان جــوابى صــوابا •

(١) بكسر الفاء والفعل افت (فعل الامر) والمراد سؤال الشيخ ان يملى فيملى •

كنت فى الكتاب قد قــرأت من الدروس المدرســية كثيرا • كان تحصيلى فى الحساب ـــ وهو أهم علوم المدرسة الاولية ـــ الى حساب المائة • قــال لى الوالد رحمـــه الله ان الكتاب التجاريين يقولون المأية (ميم فالف فيــاء فهاء) ذلك لهم عادة والصواب المئة فى النطق ميم مكسورة فهمزة مفتوحــة وفى الخط الاملائى تزاد الالف هكذا ـ مائــة • قرأت الى حســـاب المــائة بنفسى من كتاب اللئالىء الســنية وستة الالف مسألة حسابية • وفى العربى قرأت كل المقرر وزيادة • لذلك تفرغت لقراءة الانجليزى : كتاب عبد اللــه

العربى ، المجموعة الوافية وقاموســـها وفيه مثل : كرنب Cabbage

خس Lettuce ـ كنا أولاد بلد لا نعرف ما الكرنب وما الخس •

بالنســبة للمجموعــة الوافية كانت هذه الكلمات مناســـبة لان الكــرنب والكــرفس والكــرنبيت كــل هــذه خضروات معــروفة بمصر •

الجزر والبنجر وأخواتها انما عرفها المزارعون عندنا أيام الحرب ، حينما احتاجت قوات الحلفاء الى امدادات غذائية من قريب • وجاء مستر كروفورد مدير الشــمالية وعلم الناس زراعــة الخضر الافرنجية وزراعة القــرين (القريبروت) وكان المزارعــون يجيئون بخضرهــم الى مخاذن المديــرية وتوزن بسعر الكيلــو ـــ أو الاوقــة ـــ لا أذكر (الأوقة ٣٣⅓ أوقية والرطل ١٢ أوقيــة والأوقيــة ١٢ درهمـــا) •

وظهر قبل آخر سنتنا الاولى بالابتدائى (المدرســـة الوســـطى) كتـــاب دكتور مايكل وست فى كتبه (المطالعة بالطريقة الجديدة لافريقيا

(The New Method African Readers) فرحنا بها جـــدا • قرأنا الكتاب

الاول وملحقاته وكانت مبســطة ومعها قواميس • والنطق موضـــح

بأرقـــام • الحركة فى The مثـــلا رقمها و وفى نحو bird و First رقمها و•••و ليتنا استمررنا بالطريقة القديمة وبعلامات النطق ذات المدلول العـــالمى فى اصــطلاح الافرنج وبالتدرج القديم الذى كان يلح على الكلمات والقواعد التى قمتها الكتاب الجيد The English Idiom للاســـتاذ

براكنبرى ، رأيته بعد دهر فى مصر فى شــقته Brackenbury بعمارة الاسماعيلية وهو شيخ هرم ، كتابة الآن نادر الوجود ،

قرأت كتب المطالعة المقررة كلها الى الخامس وملحقــات كثيرة حتى ملحق السنة الثانية أو الثالثة كل ذلك فى الســنة الاولى ، قرأت ألف ليلة وليلــة ، وأحب شىء الى قصــة بدور ابنــة الملك الغيــور وورق ألف ليلــة وليلــة الاصفر البراق والجنية والجنى كيف جاءا بقمــر الزمــان وبدور وجعــلا يوازنان بينهما أيهمــا أجمل ، وقصة حسن البصرى والمجوسى البغيض ، وحكايات السيرة وغزوة السيســبان ، وكان عند بشير (الاستــاذ بشــير مدنى) والدرديرى (الاستاذ أحمد مدنى رحمه الله) سيرة عنترة فقرأتها ، وأنكر الان فى محــاولات القصــاص أن يكرروا شــخصية عنترة فى ابنــه الغضبان وفى أخيه شيبوب ، وكنا أنا وبشــير والدرديرى رحمة الله عليه ، نتصــادف أيام العطلة لانهما كانا يقرآن فى بورسودان ، ثم استمر لقاؤنا واصطحابنا فى العطلات بعد ذلك زمانا ، وكان بشــير يجيد انشــاد

أرانى ما ذكرتُ لك الفِــراقا ودمعُكَ واقِفٌ الاّ هــراقا

أذكر مرة سهرنا ليلــة العيد بالزاوية بالفريع ــ كان ذلك آخــر عهــدى بالمديح وكلانا أنا وبشــير مدرســان حينئذ ومدحنا الى طلوع الفجر :

نبيٌّ أنزل الرحمــٰن فيه تبارك والضحى والانشــقاقا
عليك صــلاةُ ربّك ما تبارت رياحُ الجوِّ تستبق استباقا

ثم لازمت صــلاة العيــد كلما أحضر بالغرب ، وكان الامــام شــيخنا الفكى الحسين رحمه الله يعبر ليلة العيد وأعبر صباحا بعده فأدرك الصلاة ، وكنــا أنا والشــيخ الجيلانى ، لما أم زمانا بعــد والده رحمــه الله ، نعبر صباحا معا كلما نتصــادف أيام العيد ، ثم لما أم فكى أبشر رحمه الله عــاد الى العبــور ليلة العيد وكنت أعبر صباحا بعــده ولم انقطــع عن صــلاة العيد بالغرب أيام امامته ما أمكننى ذلك حتى اننى لقد حضرت مــرتين من كنــو ، وقد توفى فى عقد الخمسين ، أســكنه الله الجنة ، قد كان رحمه الله الى منذ عهــد الصــبا من أحب النــاس ،

قرأت مختصر حكايات شكسبير لشارلس لام Charles Lamb وأعجبتنى جدا حكاية بروسبيرو وابنته ولعبها مع فردناند الشطرنج • ولم أفهم مكبيث • وأعجبتنى حكاية اورلاندو وروزاليند • وكان التلاميذ المتقدمون علينا يوازنون بين انشائى وانشاء أحد زملائى كان أكبر منى سنا وأوعى بالدنيا وله أصحاب وعصبية وكان يقرأ النظرات والعبرات ويمدح أسلوبهما ويستعمل عباراتهما من أمثال وتغشت جبينه سحابة من الحزن • وكنت أكره النظرات والعبرات من أجل هذا المديح لهما ، مع انى حفظت فى الكتاب قصيدة المنفلوطى :

إن أسماء فى الورى خير أنثى	صنعت فى الوداع خير صنيع
جاءها ابن الزبير يسحب درعا	تحت درع منسوجة من نجيع

لم يكن مصطفى المنفلوطى رحمه الله عندى بمجهول • ولكنى جهلته منذ ذلك الزمان وأنا ابن احدى عشرة سنة الى عهد قريب • نظرت فى كتاب النظرات من بعد وأعجبتنى قصة يوم القيامة المأخوذة من رسالة الغفران • لم تسغ لى العبرات على كثرة ما أطنبوا فى حسن الثناء عليها • وكأنه فى كل قصة يلزم الفتاة أن تحس جنى الحرام ــ الجنين على حد تعبيره ــ يتحرك فى احشائها •

كان ذلك الزميل من خيرة التلاميذ ولكنها المنافسة •

وكان بيننا من الصداقة والمودة ما قد يتفق نحوه من التنافس •

وكان أحرص على منافستى منى على منافسته • ومرة ، فى ما بعد السنة الأولى ، وضعت لنا مسابقة فى الانشاء • فكتب ما شاء من عبارات جياد وخطه حسن رائق• وكتبت ما كتبته مسجوعا على طريقة : «أما الاخلاء والصحب والسجراء » التى درسنا اياها الشيخ عبد العزيز عبد الله من كتاب صهاريج اللؤلؤ • وكان يحرص على جمع درجات الامتحان ليتبيّن طبيعة الفرق بينى وبينه • ومرة كان الفرق فى كل العلوم بدرجتين منى زيادة على درجاته وفى الحساب فوق ذلك خمسين درجة • واذن ففوتى

له قد كان فقط فى الحساب ، كأن الدرجتين لاشيء • كان الحساب انئذ يسمى «طَقّش العشرين» • وذلك أن امتحان الحساب كان من خمس مسائل ودرجته الكاملة مائة درجة ولكل مسألة عشرون درجة • فاذا حللت الخمس وأخطأ منافسك فى واحدة « طقشته » بعشرين درجة واذا أخطأ فى أثنتين طقشته بأربعين درجة • وقد يعطى نصف الدرجات أحيانا لطريقة الحل فتطقشه بعشر وبثلاثين ويخمسين •

وعينونى الأَلْفَة لأنى كنت الأول • ولكنى كنت صغيرا ما جاوزت عشرة أعوام الا بقليل مُفْرَدًا حَادًا • ذلك كان أول السنة الثانية قبل وفاة الوالد رحمه الله • ثم جاء ضابط المدرسة وأنزلنى بغلظة من الالفوية وأعطاها منافسى • وعرفت ألوانا من الشماتة حينئذ • ولكنى حقاً لم أكن أبالى بأن أكون ألفة • « ألفة » أى رئيس الفصل (الصف) ـ Prefect

ومرة ـ وهذا فى السنة الرابعة وهى السنة النهائية وبعدها التجهيزى لمن ينتخبون له بعد امتحانه الكبير ـ وقف منافسى وقال انه حلم بأنه رأى الشيخ عبد القادر الجيلانى وقال له أنت أول اللجنة ـ هكذا كان يسمى امتحان دخول التجهيزى الكبير ـ أى الاول من بين كل الممتحنين من القطر أجمعه المتنافسين من أجل دخول التجهيزى ـ الكلية ـ كلية غوردن ـ بالخرطوم ، وأنه رأى فى المنام أنه خنق شخصا ينافسه على الأولية خَنْقَةً واحدة • وكان ظاهرا أننى أنا المقصود • وأكد له المدرس ، يجامله ، أنه صالح والأولياء كشفوا له وأنه سيكون الأول بدون شك ـ والمخنوق عدوه • واغتظت جداً • ولم أخف من حلمه هذا الذى كان يراد بحكايته هكذا تحطيم أعصابى ، مع شدة اعتقادى فى الأولياء • وذلك لانني كنت اعتقد أن الاولياء فى جانبى على رأسهم أبى والشيخ المجذوب وموسى الغرب ورجال الجبانة الطاهرة وغير معقول أن ينحاز الشيخ عبد القادر الجيلانى الى غير جانب هؤلاء •

أنشد منافسى متقمصا شخصية الشيخ عبد القادر الجيلانى قوله

المنسـوب اليـه :

أنا الجيلى محيى الدين اسمى وأقـدامى على عُنْق الرجال

ورنت فى أذنى :

كلبلكَلْ كلبلْكل كلبّْلكل كَلُبلكَلْ

الجيلى القايـد وشى لله ياب فَخْراً زايد

لا إلاه إلا الله ٠٠٠ لا إلا ٠٠٠٠٠ ها إلا الله

يـا سـيفى ال بيـك بعَـارض

وَيَقْطَـعْ بيك راّس المتعارض

(أى يا سيفى الذى به أعارض الاعداء وأقطع رأس من يتعرض لى بالمكروه)

لا الاه الا اللـه كلبلكل كلبلكل

نادِ الأشـقر نادِ الاشـقر (أى الشيخ الجعلى بكدباس)

والغُبش ال سـكونكم بـربر

لا إلاه إلا اللـه

(الغبش بنو الاغبش أهل علم وقرآن وصـلاح منهم عبد الماجد ود حمـد رضى الله عنـه وحكايات ولايتـه معـروفة)

ويـا الميـدوب ال مـا بتـسعضّرْ

ال ما بينـا تجيبـوه مَكنقَـرْ

يا الميدوب أى يا شيخنا المجذوب بقلب الجيم ياء ٠ ال ٠ الذى ٠ ما بتعضر ، أى لا يتعذر بالمعاذير (بقلب الذال ضادا) ولكن يستجيب ملبيا مسـرعا ٠ ال ما بينا أى (الذى يا بانا ــ أى الذى هو آبينا وما زائدة ــ أى من يأبنـا ويكـرهنا ويكـد لنا فجيئـوا بـه معطـوبا متدهديـا ٠ مكنقـر صوت انهيـاره وتدهديـه) ٠

وحميـت واسـنحفرت :

ــ فنـدى ، فنـدى ، فنـدى ٠

ولكن المدرس آثر أن يأخذ فى باب آخر ٠ وضرب الجرس ٠

الجرس هجوم تبشيرى على الاسـلام بدون شك • وليت شوقيا رحمـه الله تنبه لهذا المعنى فى قصيدته البائية الرائعة التى يقول فيها :

لهم جَـرَسٌ مُطرِبٌ فى السَّرَاحِ   وَليْسَ إذا جـدَّ بالمُطْـرِب

وأولهـا :

ألا حبذا صـحبة المكتبِ   وأحبب بأيّامـه أحْبِب

ويا حّبذا صِـبْيَةٌ يلعبـون   عنانُ الحياةِ عليهم صـبى

ثم يقـول :

وكم منجب فى تلقى الـدروس   تلقى الحيـاة فلم ُينجب

يا للمأسـاة •

كانت الخلـوة أرحـم •

وكان مولانا محمد الهادى بن الشـيخ جـلال (وكان آنئـذ فى قسـم القضاة فى التجهيزى) يقص من خبر الشيخ الطيب السراج الذى صـورته فى كتاب شـعراء السودان وتحتهـا :ـ

هذِهِ قَومُ صُـورَتى   وَهِىَ عنـوانُ هِمَّـتى

فازَ من همَّـه التقى   والتُّقىَ الدفـع بالتى

كان يركب حصـانا أسود نبيلا • رأيته يروضـه على شـاطىء النيـل بشـارع البحر بالخرطوم من شباك السنة الثالثة أو السـنة الرابعة بكلية غوَرْدن • قالوا كان يقحمـه قفزا على معدية شَنْبات (شمبات) أيام كـان يعمل كاتبا بمصـلحة الوابورات بالخرطوم بحرى : ويقول أعلمه القفـز على الاسـاطيل • وحاكى الشيخ محمد الهادى طريقة انشـاده وأعجبتنى حماسـتها وأعجبت به وبطريقته علٰى هذا السـماع ••• هذا قبل أن أراه على الصـورة التى نعتها وقبل أن ألقـاه من بعد تغير ناظر المدرسة وضابط الداخليـة وكان يشجعنى على قراءة الكتب الانجليـزية ويختار العبـارات

الجيـدة فأحفظهـا مثل : The very sunshine of my life

كان ضابط الداخلية الجديد شديدا • يضرب بلا رحمـة ويوبخ باسراف • ولكنـه كان يسـخو سـخاء عجيبـا فى التدريس وخطـه على السـبورة جميل يراعى فيه القواعد • وسـأل مرة عن سـبب تأخر مغيب الشـمس بالقاهرة فى ذلك الوقت من السـنة عنه فى الخرطوم مـع أن القاهـرة الى الشرق أقـرب من الخرطوم • وأجبت بأن الكرة الارضـية أوسـع بطنـا عند خط الاسـتواء وتنحدر نحو القطبين ففى الصـيف يستمـر شـعاع الشـمس فى المناطق الواقعة شمال مدار السرطان مـدى أطـول • ولـم يكن يتوقع جوابا من هذا النوع • فسر به وجعل يشرح •

كنا فى المدرسـة الوسطى ندرس قدرا عظيما من الجغرافيا • كنـا فى المدرسـة الأولية ندرس عن السـودان وعن انجلتـرا • نحفظ مديريـات السودان وقبائله • واستزدت من تقويم السودان الذى كان عند أبى فقرأت عن الاحـواض وعن البعوض والملاريا • وكنا درسـنا فى حصة الاشـياء عن الأمراض ، وعن السـل وهو مخيف • أمـراض الحيـوان ، أب نِينِى والنجمـة • كنت أحس فى نفسى الرحمة للخيل ــ الخيل النبيلة ذات الصهيل النبيل ــ التى يصـيبها مرض النجمـة فتنتظر وترفـع رأسـها ويسـيل اللعاب والمخاط منها وتموت • وفى المدرسـة الوسـطى كان مقررا علينـا جغرافية مصر والعالم أجمـع بدءا بالاقاليم • ثم ندرس عن التقسـيمات السياسـية وعن المـدن الكبيرة • كنتون وشـنغهاى ومرو وخيوه وافيون قره حصار وازمير وفينا وريودجانيرو وبنارس والله أباد وكابل • كنت أقرأ كتب الجغرافية بشـغف وكتاب أحمد حافظ بوجه خـاص • وكانت خطوط الطول والعرض متعـة ــ مسائلها ورسمها • وما زدنا فى المدرسة الثانوية ، التجهيـزى ، على ما درسناه فى الوسـطى شيئا الا « الكنتور » • وحاول مدرس الجغرافية الثانوى تفهيمنا مسألة « ايسـوثيرم » و « ايسـوبار » فما أفلح • وما أصبنا فهم شىء مفيـد الا من المستر هانكس فى السـنتين الاخيرتين ، وكان يرسم على السـبورة وقد يلوّن ولا يألو جهدا • وصـار

الى بخت الرضا (معهد التربية) وبلغنى انه لم يطب له العمل بها وكـانت تلك أيام المستر غريفث وقد أصـاب التعليم منه خلط عظيم .

ذلك بأنه ـ أى المستر غريفث ـ فطن الى أن تعليم مدارسهم مما يبتعد بالتلاميـذ عن واقع بيئتهم . وخيل اليه أن تلافى هذا النقص ممكن باعـداد منهج من التربية الخلقية على أساس الشـعور بالمسئولية الوطنية . مدلول الوطنيـة عنده كان أنه يجب على السـودانى التلميذ أن يتعلم فى ما يتعلمه أن عليه واجبا ينبغى أن يؤديه نحو محمد أحمد دافع الضرائب . محمد أحمد هذا اسم جعله رمزاً لافـراد أبناء البلد (The Natives)
دافعى الضرائب وسوادهم الاعظم أميون غـير ذوى أدنى حظ من تعليـم المدارس . الذى يدخل المدرسـة يحصل على امتياز ينبغى أن يؤدى ثمنـه شعورا بالواجب ـ هذا الواجب نحو محمد أحمد يتمثل فى الخصال الحميدة التى تمكن من أدائه نحو الولاء والمبادرة والحـزم والتخشـن وهذه ينبغى أن تغـرس ويراقب نماؤها من طـريق منهـج التعليم .

غاب من المسـتر غريفث أن مناهـج التعليم التى يقصـد منها تقـوية جانب أو جوانب من التربية الخلقية ينبغى فى المكان الاول أن يكون أساسها مسـتندا على قـدر من روح المجتمع وعرفه وقيمه وعقيدته .

ثم غاب من المستر غريفث أيضا أن الحاكم الاجنبى الذى يتغلب على بلد مهما يبغ أو يبلغ من حسن النية عدو محذور . وانك لا تجنى من الشـوك العنب . ثم لم يخل المستر غريفث فى اختياره اسم « محمد أحمد » رمـزا لدافع الضرائب السـودانى من نوع استخفاف وتهاون بوطنية السودانيين ودينهم ، اذ « محمد أحمد المهدى » اسـم الزعيم الدينى الذى قد كان نهض بهم فثاروا فهزموا عسكر الخديوى وكسروا مربع الجيش البريطانى وقطعوا رأس غـوردن .

◆◆◆◆ ◆◆◆◆

لفتت أسـتاذنا الهادى « أبو بكر » اسحق طريقة انشـادى :

حكم سـيوفك فى رقاب العـدلِ وإذا نزلت بدار ذلٍ فارحل

وكان له أصحاب من الافنديـــة أذكياء أذكر منهم الاستاذ حســـن أحمـــد عثمان (الكِـــد) رحمه الله • وســـألونى عن قراءتى فذكـــرت مختـــارات البارودى والبيان والتبيين والكامل والسير والاخبار وكرامـــات الاوليـــاء وجغرافية أحمد حافظ وفوضى من الكتب • واقترح الاســـتاذ الهادى على قراءة طه حســـين (رحمه الله) • وأعارنى « على هـــامش الســـيرة » • وجدته ساحرا ملك علىّ أقطار نفسى • الآن وجـــدت عصـــا مـــوسى التى ستلقف ما يأفكون ، ثعابين المنفلوطى ــ النظرات ــ العبرات ــ الفضيلة ــ وأحســـت بالجنين يضـــطرب فى احشـــائها •

كَتبتُ فى امتحان نصـــف السنة موضوع الانشاء على طريقة طه حسين • وســـألنى أستاذنا الهادى أبو بكر وزمـــلاؤه عن عملى فى الانشـــاء وكنت قد احتفظت بالمســـودة فقرأتها عليهم • وتعجبوا • مثل أسلوب طه حسين تماما ••• ثم اســـتدركوا وانتقدوا السجعـــة : « ارتياح الثـــرى للنـــدى والكريم للجـــدا » أو شيئا من هذا القبيل • قالوا أســـلوب الاملاء والالفات الليـــنة • وأسررت لهم بحب ايقاع الشعر والقوافى عدم موافقـــة عميقا •

كـــانت جريدة الجهاد تجىء الى ضابط الداخلية وجرائد أخـــر • وكنت أقرأها بنهم • وحديث الاربعـــاء ــ ساعة مع طرفـــة ــ ساعة مع المثقب ــ ومقـــالات تـــوفيق ديـــاب ••

كان الاخ الأديب حســـن مجذوب الوقيـــع ذا معرفـــة واسعة بالجرائد أوسع من معرفتى الحديثة العهد بكثير وكان فى دفعة وراءنا • من طريقـــه عرفت كوكب الشرق والبلاغ والأهرام ــ (كنت أكره الاهرام) ــ واللطائف المصـــورة وحبيب جاماتى • أســـلوب فكرى أباظـــة لا يعجبنى • وكـــان حســـن مجذوب يعرف السياســـة المصرية •

ــ النحـــاس ــ صـــدقى ــ محمد محمـــود ــ حمـــد الباســـل •

قرأت كتاب تأريخ الحركـــة القومية بانتباه واقبـــال شديد وعلق منـــه فى نفسى شىء كثير : محو بك • أحمد باشا أبو ودان • جعفر مظهـــر باشـــا ــ

ابراهيم باشا وحروبه فى تركيا واليونـــان • حروبه فى الجــزيرة العربية • لما زرت مدينــة الرياض وأرونى مكان وضع ابرهيم باشا مدافعه وضــرب الدرعيــة ــ قالوا وانما دله خائن على المكان الوحيد الذى يمكنه منه ضرب الدرعيــة ــ تذكرت تأريخ الرافعى •• " تأريخ الحركــة القومية فى مصر " • وقــرأت كتــاب نعــوم شــقير •

ولا أدرى كيف نشأت فكرة القاء محاضرة بالنادى •••نادى الموظفين • وحاضرت مدى ســاعة • وحاضرت ارتجالا لا أقرأ من الورق • وحاضرت بالعربية الفصــيحة لا أَمْتَ ولا عِــوَج •

قالوا وزعم بعض المســئولين أن ذلك كان مجازفــة خاطئة لان أهل المدينة أنصــار والمحاضرة كان فيهــا تحامل على المهــدية •

يا للباطل الحنبريت • كان أهل المدينــة الذين حضروا أكثر الناس سرورا بما ســمعوا وأعظمهم رضا • أعجبتهم فصــاحة الولد الصــغير وجــراءة قلبه •واعتزوا بها كل اعتزاز • أحسست ذلك فىنظراتهم وصفقة تشجيعهم • بعض المســـئولين ••••

نشــبت الحــرب الايطــالية الحبشــية •

مســـاكين •

مســكينات بنادق الحبش ومدافعهم ومجهودات المتطوعين القلة الذين وقفوا الى جانبهم ، الى جانب الحق المهيض • ما كنت أحب هيلاسلاسى لانه اغتصــب عرش منليك • ولكن الكارثــة وحــدت الرؤوس •

جاء دى بونو وأجناده وصــورته ذات اللحيــة المحددة وتلكأ دهــرا • ثم جاء بادوليو • ونقــرأ عن قجام والدنــاكل وأمبــا ألاجى • كنت اتعصب للحبش كنت مقاتلا بروحى فى صفوفهم • وكانت جريدة مانشستر غارديان تجىء للداخلية فجسرت واطلعت عليها وحذقت تهجيــة أســماء مواضــع المعــارك والقواد ورتباتهم ولأول مــرة سمعنا الراديو •

وسنرى السينما • ستجىء السينما للخرطوم فنراها • الراديو اخترعه ماركونى الطليانى • الكهرباء توماس ألفا أديسون ، أعنى مصباح الكهرباء • القطار جورج ستيفنسون •

قال لى الاستاذ البروفسور الفاضل وأنا طالب للدراسات العليا بانجلترى : « انهم ظلموا فتانا الذى اخترع اللاسلك وزعموا أن ذلك عمل ماركونى • الحق أن السبق كان لفتىً منا » •

وقرأنا فى مجلة كلية غوردن : « وداعا يا سينما سكيتنج ومرحبا ياسينما كوليزيوم » • لبِّث قليلا ينزل الهيجا حمل

وجاءت مجلة الفجر ولا أدرى لماذا كرهتها نفسى ،أدرى ! •• لانها كانت مع النظرات والعبرات وأحست بالجنين يتحرك فى أحشائها •

آفة الرأى الهوى • الرأى نائم والهوىَ يقظان •

نفس شعور الاحساس بالانتقال (بأنا فى فترة انتقال) الذى اعترانى وأنا استمع لأول مرة أخبار لندن عن الحبشة هو الذى أحسسته وأنا أشهد فيلم Treasure Island بكوليزيوم وفكرة أن نركب الطيارة العام المقبل لأول مرة ــ هذا بعد أن سافرنا لانجلترا (١) بوابور البحر ومضى علينا عام ونصف هناك •

وحاولت أن أقرأ بالانجليزية قصة كبيرة (٢) : Novel فوجدتها عسيرة وهى قصة The Man Who almost Lost • وفيها التعبير To play abad hand well وحسب المدرس أنه من لعبة التنس وهو من لعبات الورق ، ولم يكن لعب الورق آنئذ قد تفشّى تَفَشِّيَهُ اليوم • ويقولون الآن لتوزيعة الورق «يد» و «إيده كويسه » و (إيده بطالة) وكلتا كويسة و بطالة ليستا من أصل الدارجة السودانية فى شىء ، وانما كنا نقول «سَمِحْ» و «كَعَبْ» • وكنت استغرب لقولهم الكعبة يعنون بيت الله الحرام ، كيف يكون بيت الله كعبة ؟ فيقولون «الكعبة المشرفة»

---

(١) كان ذلك فى اغسطس سنة ١٩٤٥ (٢) هذا فى سنة ١٩٣٥.

يجعلون المشرفة بمنزلة النفى للكُعُوبيّة ــ أى القبح • وقد تبين لى أخيرا أن الكلمتين مختلفتان وأن « كعب » أى قبيح أصلها من طريقتنا فى قلب الهمزة عينا كما نقــول سَــعَلَ فى سَــأَلَ والقُرْعــان فى القــرآن •

يحكى أن رجلا قال لجاريته خــذى ولــدى هذا الى شيخ الخلوة وقولى له أبوه « بقول ليك ، انت ليك اللحم ولينا العضم » أى أن أباه يخول لك أن تضربه على جلده كيف تشــاء فقط لاتكسرن له عظما • قالوا فأخذت الجارية الغلام الى شيخ الخلوة ولما سألها ماذا قال أبوه قالت له : قال لك أبوه : « دُقّه ان كضب (أى أضربه ان كذب) وعلّمه الأدب • أمّا القرعان ، قسمة من الرحمان » ــ أى القرآن حفظه هبة من الله فلا تضربــه من أجل ذلك • ولايخفى أن الجارية بحديثها هذا كانت أجــود فهمــا وأبلغ مقالا وأخبــر بأصــول التربيــة من ســيدها •

هذا •• فكلمة كَعَبْ أصــلها كأَبْ أى كَأْب تحركت الهمزة الساكنــة ثــم قلبت عينا أو قلبت عينا ثم تحركت • والكآب الفم ومنــه الكئيب والكآبــة فكلمتنا الكعوبية معناها الكآبة أو الكآبيّة بالنســبة اليها • واما الكعبــة البيت الحرام فاشــتقاقها من التكعيب وذلك انها بنــاء مربع • ويقـــال للجارية اذا تربع ثديها ونهض واستدار كاعب وذلك انما يكــون عند ريعان الشــباب •

أول حصــة حضرناها فى الابتدائى كانت فى العربى وجاء مدرس مسحنفر الوجــه كبير الصــوت مصرى المخــارج وأمــلانا :

أطــع الاله كما أمَــرْ وامــلأ فــؤادك بالحَــذَر
الــدينُ لا تلعبْ بــه لعب الصّــوالج بالأُكــر

أخذنا هذه المحفوظة من قبل فى الكتّاب وكتبوها لنا على السبورة وحفظتها

وما أعجبتنى • قـرأنا فى الكتـاب :

لا يبلغ المَجد من لم يركب الخَطَرا ولا ينال العُلى من قدَّم الحذرا
ومن أراد العلى عَفْوا بلا تعبٍ قَضَى ولم يَقْضِ من أسبابها وطرا

كان المدرس يكبـر الراء جدا ••• أمَـرْرَرْ ••• بالحَـذَرْرَرْ ••• ولـم تعجبنى طـريقة القائـه

أطع الالاه كمـا أمـررر وأمـلأ فـؤادك بالحـذررر

ولم تعجبنى المحفوظة وكانت لا تعجبنى • كانت خيبة أمل • والآن — بعد ذلك الدهـر الطـويل — لا تعجبنى

الدين لا تلعبْ بـه لعِبَ الصـوالج بالاكَـرْ رْرْرْ

والصوالج بالاكر كانت شيئا لا أعرفه • وأقرب أمر اليه شاهدته لما جـاء أحد المدرسين السودانيين من بيروت ونحن فى التجهيزى وأدخل لعبة الهوكى وولدت ميتة • والبولو أيضا كانت لعبة صـوالج وأكر ولم أرهـا • كانـوا يلعبونها فى المكان الفسيح جنوب السكة حديد حيث الآن مـوقف البصـات المقابل للمنطقة الصناعيـة بالخرطوم • والكريكيت لعبة صـوالج واستمر الانجليز يلعبونها والسودانيون لا يفهمونها ، لايريدون أن يفهموها • فقط لعبة الروندز « Rounders » كانت مفهومة ولعبناها فى الكتاب وفى المدرسـة الوسطى ثم اختفت • ومرة ضربت ضربا شديدا عليهـا فى الكتاب وانا ابـن تسع والمدرس الذى ضربنى أراد أن يغيظ الوالد وشـعرت بذلـك ووقفت للضرب مثل الحمار وجعل يقول لى «أجرى أجرى» • تكررت نفس القصة معى فى الثانوية فى المباريات التى كانت تعقد للرياضة البدنية • « سَبَق المائة ياردة » « نط الحواجز » « جر الحبل » (ربع الميل) — انتقد رئيس المشرفين The Senior Tutor
جريى وحثنى لاسرع وأحسبنى تعاندت • فلحقنى بعـود البيرق الذى كان مغزوزا فى طـرف الميدان وضربنى : run-run وأبيت ووقفت

مثل الحمار وصاح بى رؤساء الكلية اشفاقا اجر ، اجـــر ــ فجريت وجعـــل يغايظنى أحد الزملاء ويقول لى بمرارة ضربوك مثل الحمار •

كنت أحبُّ الشعر من أيام الكتّاب ونظمت قصيدة باللغة الدارجة بمعاونة فكى الطاهر ود بابكر رحمه الله هو ينظم بيتا وأنا انظم بيتا وبعدما أتممناها حبرناها على الورق وكتبنا صلاتها فى أولها ولكنا ألفناها فى الاخر •

يارِبِّ ياربِّى صلِّ على النبى ياربّ ياربِّى

وكنا ونحن تلاميذ فى داخلية المدرسة الوسطى من بعد نتآنس بالاعراب وبيت زهـــــير :

ومهما تكن عند أمرىءٍ من خليقةٍ وان خالها تَخْفَى على الناسِ تُعْلَمِ

كان رئيس بيوتِ الإعراب • أما كون «من» زائدة فهذه نكتة البيت الواضحة بقيت (إن) فى عجز البيت زائدة والواو واو الحال • يا ولد ! حرف شــرط جازم والجواب محذوف ، تقدّم ــ ظاهر •

وكنا مولعين بالمساجلة ، ننقسم فريقين وآخر البيت يرد عليه الفريق الآخر ببيت يبتدىء به ، مثـــلا :

حصانى كان دلّال المنايا فخاض غمارها وشرَى وباعا

الرد عليــه :

علينا البَيْضُ واليَلَبُ اليمانى وأسيافٌ يَقُمْنَ وينحنينا

وكان التلاميذ الكبار يشتركون أحيانا فى المساجلة ويعاونون وكان يسودها روح طيب • وعنصر الاعجاب والاستحسان للحفظ الجيد وسرعة البديهـــة كان أكثر من عنصر الغيرة والتهافت على طلب الانتصار • وبالتدريج انحسر عنا حب هذا النوع من المساجلة • تجاوزنا روح سماحته وسذاجته •

كان المفتشون يحضرون كثيرا

مرة يجىء مفتش واحد ومعه دفتر ويدخل فى الفصل • ويقول المدرس لنا « قيام » فنقوم «جلوس» فنقعد • ومرةً يجىء فريقان للمفتشين ــ مفتشو

العربية والدين ومفتشو سواهما من العلــوم وجماعة من المفتشــين كانوا معروفين جــدا مثل الشيخ عمر اســحق والشيخ كمال الدين عباس • وكان أحيانا يجيء مفتشون انجليز مثل المستر ايليوت والمستر سكوت والمســتر غريفث • وكان يسيطر على المدرسة من حضور المفتشين جو اهتمام خاص• كان فى الفصــل المفتش •

وكتب المدرس على السبورة أو تكلم ثم كتب • وقع خطأ منه لاريب فيــه لعل المفتش نفسه لم يفطن له وفطن له التلميذ الصغير ــ فندى فندى فندى ــ مزعج ، اسكت يا ولد ــ أقعــد يا ولد •

كان المدرس انما يهمه فى حضرة المفتش حفظ النظــام • وهذا تشويش • وما خطر بباله أنه أخطأ • وتنبه المفتش وشعر بحرج شديد وتدخل بلباقة وانحلت الزوبعــة •

ولم يتب التلميذ الصغير من الطيش الأرعن المزعج عندما صــار الى كلية غردون ذات المرحلة الخطــرة • وخالطت سذاجة الطيش الناشىء القديــم فردية ناشئة جديدة لا تخلو من نوع غرور • وقد كان الغرور من الخطايــا التى لا تغفر •

Very conceited ، معناهــا تقريبا لا يعمل فى الحكومــة « لايــوثق به »

يعاكس • يحطم • — Sir,Sir,Sir

حلــت هذه ال Sir محــل :

ــ فندى فندى التى كانت فى المدرســة الوســطى •

على أن « فندى » هذه لم يذهب استعمالها مرة واحدة •

كان الدرس عن المنظار الفلكى « التلسكوب » • رسم المدرس وشرح على السبورة ومسح الرسم ثم أعاده • كان الظل بعد نقطة التقاء الاشــعة التى تجتاز العدســة The Principal Focus

كان الدرس بالانجليزية • وكان التلميذ واثقا أن المدرس أخطأ اذالظل يكون اذا خياليا والذى بيديه التلسكوب بحقيقى الظل • الظل الخيالى هو الذى فى المِجْهر الطبى وفى المرآة •
— Sir, Sir, Sir

وغلظ المدرس عليه وزجره بغضب وانفعال • والتفت اليه بعض زملائه بعض كثير — بنظرات تعكس غضب المدرس • لا يعقل أنهم لم يفطنوا للخطأ لايمكن أن يكون الظل حقيقيا بعد النقطة الرئيسية • ولكننا الآن تجاوزنا مرحلة المدرسة الوسطى ووحشية الذكاء المندفع « فندى فندى فندى » الآن الحذر والتروى على أحسن تقدير • انتهازية خوف إغضاب المدرس • خوفُ التقارير • انتهازية التزلف • تعقّد الأمر • داخلت الزملاء روح التواء • أنانية وعدم مودة • بعد ما بين القلوب • كتبوا الخطأَ بقلوبٍ غلاظٍ •

— Sir, Sir, Sir

لم يبال المغرور ، صاحب الفرديّة الرعناء بانفعالة غضب المدرس الظاهرة • وأيضا هذه المرة كان فى الفصلِ مفتشٌ • وكان قابعا بعيدا وراء • وهو لم يكن يعلم بوجوده • الذين نظروا اليه صافِّين مع غضب المدرس كانوا يعلمون أنه موجود • والمدرس كذلك • وانتهر المدرس : Get out أى أخرجْ • وساد سكون • ووقف يلمُّ شعثه الكثير • الكراسة المبعثرة • القلم • — Get out

ولم يملك المفتش أن اندفع من مخبأه فى أُخريات الفصل الى السبورة • وبانفعالٍ قال : اظن أن التلميذ مصيب • ماذا تريد أن تقول ؟

انتصر الملعون المغرور الصغير • هكذا كانت تقول روح الساعة — تلك الساعة المفاجئة المفعمة بشحنة الانفعالات والتوتر • وشرح التلميذ نظرية التلسكوب وأن الظلّ الذى على السبورة خيالى • وتصبب المفتش الشجاع عرقا • خالف قواعد التفتيش وكان على ألّا يخالفها حريصا • وكان المدرس معروفا بالجد والحزم والمحافظة على الواجب •

لم يرتح الى ذلك التلميذ الشاذ من أول يوم • بدرت بوادر تدلُّ على عدم ارتياحه هذا وأحسها الولد الحساس وأضمر عليها ثورة • والأرواح

جنود مجندة ، ما تعــارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف • وكان أَمْــرُ اللهِ قــدراً مقدورا • كان موقف ذلك اليوم من الحتميــات التى انما توجد نظائرها فى مأســاة اليونان القدماء • الحتمّيات التى تســبب العــداوات التى لا هـــوادة فيهــا ولا بُقْيــا •

كان المدرس محترماً • من خيرة الاســاتذة وأكثرهم اخلاصاً وعنايـــة بالدقــة والانصــاف • وليت أن صاحبنا الصغير الشاذ فهم بيت زهير :

ومن لم يُصانِعْ فى أمورٍ كثيرةٍ   يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويوطــأْ بمنسم

فهما أكبر من أنه حكمة واستعارة تمثيلية وأن « من » اسم شرط جازم جزمت ههنا فعلين ، ويجوز فى «يوطأ» النصب والرفــع والجزم وهنا الجزم لاغير لكيلا يكسر البيت • واذا لاستراح وأراح • فصــل التجهــيزى ليس لتلقى دروس الكتب ، حظه من ذلك قليل ، ولكن لتلقى دروس الحياة •

أعطاه المدرس تسعا وأربعين ونصفا من مائة فى الامتحــان التجــريبى • ســقوط بنصف درجة • وروجعت الورقــة فكانت درجتها فوق الســبعين مع حرص المراجعة على الالتزام جانب التصــحيح الأول •

ومرض المدرس وخيف عليه المــوت وعاده كل التلاميذ وكان ينبغى عليــه هو أن يعوده أيضــا ، وقال له زملاؤه فى ذلك وأصــدقاؤه منهم خاصــة • وأبى • نفرت نفســه من ذلك نفورا • أراد ليشــعر مدرسه فى ساعة ضعفه أنه هو أيضا غير راضٍ عنه • ياللغرور • يا للجهل المثبور • وسأل المدرس عنه وتألم لغيابه وكــرهه بــلا ريب •

ثم التقيا بعد زمــان طويل فى ظــروف العمل • لا زالت ثمَّ بقــايا عــدم الارتياح القديم • ولكن أحس من جانبه رقــةً أسىً • أحســا معارقة أسىً وذكّرى أشــباحٍ نــدم • الجد والحزم والمحافظة على الواجب • لعلهمــا فى هــذا مشــتركان •

كانت الدنيا شـــتاء • وكان البرد شديدا • لم يكن أشدَّ من برد مقرات • أول ما جئنـــا مقرات كان فيها شيء يقال لـــه « الكُنتَيْبْ » والكلمـــة غـــير عربيـــة ــ فسألنا عن معناها فقالوا : لانه « يكنتب فى جلدك » • والكنتيب ضَرْبٌ من الطير مثل البعوض ، خبيث اللســعة ، يخرج معها دَمْ يســتدير نقطة حمراء كما لو طعنك حكيم بالابرة فى اصـبعك لاختبار دمك • كان ذلك الكنتيبُ يأكل ساقَيَّ أكلا ذريعا فكنت امسحها بصـابون الفنيك أدهنها بـه دهنا فيخترق بإبرة فمه غِشاءَ الصابون الذى كان كثيفا على ساقى • وكنت أبكى منه وكان فى مقرات القَشَفُ المؤلم يشقق منه الجلد بعــد أن ينشــف كذلك الآن يشـــقق الجلـــد من القشـــف •

كنا شديدى الشعور بالبرد اذ نحن صغار • كانت ملابس الصوف شيئـــاً نادراً • واشترى لى الوالد فنلة صوف لها رقبة • الى الآن كلما أرى فَنِلّة صوف برقبة على احد الناس أحسِبُه ولدا صغيرا • كانت البطاطين الصوف عزيزة كان من تَرفِ الداخلية أن اكل تلميذ بطانتين احداهمـــا يفرشـــها والأخـــرى يتغطى بها وكانت بطانية الداخلية سوداء من عهدة « المخازن والاســـلحة » التى طلب كتشنر عيناتها لعسكره أول أيام الفتـــوح •

كانت البطاطين من أدوات النعمة والخفض • أكثر ما كان عند المستطيعين البطاطينُ الحُمر القطنية تقليد الصوف • البطانية الصوف الحمراء الاصلية كانت ذات شخصية ، ذات اشعار بوجود الثروة والجاه عند صاحبها ، مثـــل العباءة والفروة والحمار الفاره والسجّادة الحُرّة •

لما كتب مدرس الانجليزى على السبورة آيم هوت I am hot سألناه عن معناها • فقال معناها : « أنا حرّان » وسأله بعضنا : ما معنى أناحران ؟ كنا لا نستطيع أن نفهم معنى « حران » هذه • انما كنا نفهم معنى : « أنا بَردان » •

كان الناس يؤذيهم البرد فاذا رأوا الصغار نشطين حسبوا أنهم فى حـــال دفء طبيعى • وكانوا يقولون لنا على وجه الممازحة والمكاواة أن الصـــغار

لايبردون • ولكن نحن الصـــغار نبرد ، نبرد ، • وكبرنا وصـــرنا أفندية من بعـــد • وفهمنا معنى حران وصرنا لا نبرد • وصرنا لا نســـتطيع القعود فى المكاتب ، وهى محل العمل ، الا بالمكيفات • ولا فى البيوت أيضا الا بالمكيـف ••• لمن استطاع اليه سبيلا • ومن لمن يستطع الآن فهو غدا مســـتطيع ، لا لا بُد أن يســـــتطيع •

كانت الهبّابات معروفة ، حمر الالوان ، زخرفية الشـــكل لها خمل حريرى كان يستعملها كبار السن من الرجال ، وبعض كبيرات النســـاء • وأكثر مـــا تُقَدم الهبابة للمرأة الضـيفة • قل أن تستعملها نساء أهل البيت • ولم يكن استعمال الرجال للهبابة كثيرا ، كان كالشىء النادر ، مرات قليلة فى اليـــوم الواحد ، مثلا بعد أن يدخـــل أحدهم يتصـــبب عرقا يجلس قليـــلا أو يتكئ ويضـــع الرجل اليسرى على اليمنى أو اليمنى على اليسرى ويهبّب نفســـه بيده ، وسرعان ما يشعر بنوع تعب أو ملل من تهبيب نفســـه •

مفتشو المراكز الانجليز الى مديـــر المديرية ـــ والمأمور ابن البلد أحيانـــا فى المكان الذى ليس فيه مفتش انجليزى ـــ كانت لهـــم فى مكاتبهم هبابـــات كبيرة مثبتة على السقف الهَبَّابة عبارة عن لوح كبير من الخشب أو عدة ألواح مركبات معا ثمَّ مكسوة قماشا فى أطرافه كشكشة ، شىء مقتبس من زخرفة الهبابة البلدية الصغيرة الحمراء • وجانبا هبابة الخشـــب هذه منوطان الى حبل • ويكون جالسا خارج المكتب مسجون يهز الهبابة بانتظام •

لم يكن يبدو على المسجون المكلف بالهبابة ما يدل على ارهاق كان عمـــله فى الظل وهو جالس على كرسى • أحسب ذلك كان أفضل له مما لو كلف الحفر وقطع الخشب والأعمال الشاقة المشابهة التى تكون تحت وهج الشمس •

السأم الذى نفهمه نحن الآن لا أحسبه كان يلم بباله ، لكن يلم بباله الصبر كانت حاله حال صبر والصبر كثير بأرض السودان • والصبر والحزن صديقان متلازمـــان : إنا لله وإنا اليـــه راجعـــون •

بنيت خارج حوش المدرسة حجرة كبيرة مستطيلة ذات أضلاع وزوايا واضحة • أحسبها بنيت من الطين الذى يقال له : « الجالوص »، وأركانها •• هل كانت من الطوب الأحمر الآجور ، وطلاؤها الخارجى من الزبالة (روث البهائم المخلوط بالطين) • بناء « الجالوص » يكون ببل التراب وتركه حتى يتلبك •

عندى أن كلمة الجالوص مشتقة من الجَلْس بجيم مفتوحة ولام ساكنة وهى الأرض الغليظة • وقالوا شهد جلس أى عَسَل « غليظ » • وصاد الجالوص أصلها سين • وكثيرا ما تتحول السين صادا والصاد سينا • كان أكثر بناء السودان من الجالوص • كان أكثره خشن الصنعة وفى جدرانه اعوجاج وشبه انحراف الى الداخل يجعل ساحة سقفه أقل من اتساعه تحت • واكثر ما كان البناءون الجالوصيون من الشايقية وأحيانا من المناصير يتجولون ويقيمون فى تاياتٍ ، وفى عيشهم شدة •

كانت لأهل بربر بالبناء عناية وحذق • كانوا يحسنون بناء الطوب الأحمر (الآجور) والطوب الاخضر « اللِّبن » ويرتقون بأصناف ما يبنونه من الجالوص يجعلون لها برنداتٍ وعقوداً وضروبا من الزينة والتحسين • وكانت بربر مدينة قديمة كانت عاصمة فى التركية السابقة وملتقى قوافل تصلها التجارة من شندى ومن دنقلا ومن سواكن • كانت هى من فوق النيل رصيفة سواكن التى فوق البحر الملح ومكملة لها • لكن الآن قد انتقلت أهمية بربر القديمة الى مدينة أتبرا الجديدة ، ملتقى الخطوط الحديدية وعاصمة السكة الحديد •

اسم أتبرا القديم الداخلة وهكذا سمعنا أهلنا يسمونها وذلك لأنها داخلة بين النيل والأتبراوى آخر الفروع التى تصل النيل من هضبة الحبشة • ثم نقل اسم ناحية الأتبراوى (أُتبرا) الى المحطة الحديدية فسميت به : محطة أتبرا • وكان اسم « أتبرا » لا يطلق الا على البلدان

الواقعة على الأتبراوى بعيدة عن النيل مثل بلدة « الشُّوَك » وما أشبه . والكلمة بجاوية غير عربية بهمزة فتاء فباء فراء بعدها هاء ، ان شئت كتبتها ألفاً كما تنطقها وان شئت كتبتها تاء مربوطة (أتبرة) . ثم ان المصريين الذين خطوا اسماء محطات السكة الحديدية مع جيش كتشنر الفاتح ، فخموا الهمزة والتاء فكتبوا « عطبرة » . فصار بعض الناس يقولون « عطبرة » وربما سمعت ذلك من الإذاعة أحيانا .

ومن الاخطاء القريبة من هذا التى شاعت زمنا اسم محطة جبل قرِّىْ (تنطق القاف قريبا من الكاف بعدها راء مشددة مكسورة فياء ساكنة) فقد كتبه مرافقو جيش كتشنر « جارى » اعتمادا على نطق الجيم المصرية المقارب للكاف ، فكنا نسأل : أين هذا الجبل الذى يجرى ، فيقال لنا : انها « قرّى » بلدة المانجل عبد الله جماع شيخ العرب العبد لاب الذى أقام مع « الملك » عمارة دولة سنار ــ الملك أى الملك .

وكما انتقلت أهمية بربر القديمة الى أتبرة ، كذلك فوق سيف البحر الملح انتقلت أهمية سواكن القديمة ــ القديمة جدا ــ الى بورسودان . كان يقال لها قديما بُرتِّ سودان . لايخفى أن بور أو بورت هى الكلمة الانجليزية Port أى فُرْضَة أو ميناء . وحظ سواكن كان أتعس لأن الخراب قد أسرع اليها كل اسراع وتداعت قصورها ذات اليسار التالد والعلالى والمشربيات البارعة والجمال الأكيد .

قالوا وانما دعا الى هجر سواكن وانشاء بورسودان أن صخور المرجان أمامها كثيرة وماء البحر فى بورتسودان أعمق ووضع الفرضة أصلح للسفن الكبيرة . والحق أن صخور المرجان انما انتشرت فى بحر سواكن بعد اهمال فرضتها كل الاهمال .

وعندى أن السبب الحقيقى الذى دعا الى اهمال سواكن أنها لم تسقط فى يد المهدية فبقيت تابعة للخديوى حتى انتصر كتشنر على الخليفة فى حرب

« كررى » • فكأن الانجليز ، لما استبدوا بسلطة الحكم الثنائى فى السودان ، رغبوا أن يكون ميناؤه خاليا كل الخلو من ظلال شرعية سلطة الخديوى ومن عسى أن يخلفه • ولم يكن عسيرا أن يجدوا مكان فرضة مناسبة وانما كان العسير أن يجدوه قريبا من موارد الماء العذب • والماء الجوفى وماء الجبال كان من سواكن غير بعيد •

ولما تم نقل الماء العذب من عين «أربعات» بالجبال الى الميناء الجديد الذى أعطى اسما انجليزيا Port-Sudan بالانابيب ، كان ذلك بداية القضاء المبرم على سواكن •

كانت فرضة سواكن أيام عزها جزيرة • وكانت زاوية الشيخ بالقيف « على الشاطىء » المقابل لها • وذلك قوله يمدح سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام :

يا صحيح الباطن هانذا قاطن هانذا ساكن
في بسور سواكن
أهل القيف والحافه مُدْلَهمّ ألطافا كن بهم رآفا
يوم الناس خوّافة

أخبرنى الشيخ قمر الدين بن الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ الطاهر المجذوب رحمهم الله جميعا أن الشيخ رضى الله عنه لما نظم هذه المدحة ، حاكى بها نشيدا بجاويا هدندويا من أناشيد صيادى الحوت •

ولازالت زاوية الشيخ ــ الى زمان قريب ــ بحالة حسنة من عدم التداعى وبعض العناية وفيها بقية من المكتبة القديمة فيها مخطوطات حسان نفيسات •

هذا ، وكانت بربر القديمة أنقاضا : سورها قَيْقَرُها واستحكاماتها ، معمل النِّيلَة القديم ، قصور الحكام ودور المثرين ــ كل ذلك أنقاض ، فقط قبة الشيخ زين العابدين كانت باقية •

كانت المبانى الحديثة تنتهى بحلة الدكة • وترى المعزى تسير نحو انقاض المدينة القديمة التى يقال لها القيقر والمخيرف • وعند الشاطى نخيل ويبدأ السور الانقاض ونراقبه حتى تنخفض أكوامه وتنتهى وبعد قليل حلة عنيبس التى عندها محطة عنيبس •

من عند عنيبس كان يعبر الدراويش القاصدون كدباس حيث مركز الطريقة القادرية وقبر الشيخ أحمد الجعلى وخلوة خلفائه • وقريب من كدباس حلة الغبش وبها خلوات الغبش القديمة العهد الشهيرة منذ أيام سلطنة الفونج وفيها تعلم المهدى على شيخه الشيخ محمد الخير وقد تأثر به اذ كان جادا فى أمره ذا شكيمة وغيرة على الدين •

وبجبانة الغبش قبر الفقيه الولى الصالح عبد الماجد ود حمد وتوضع عنده الودائع ويحلف باسمه الحالفون ومن تهاون بامره ينكب •

وعلى مقربة من مضاجع أجداده مضجع زميلنا الاديب الفطن الاريب الدكتور أحمد الطيب أحمد (١) حم حمامه ولم يجاوز نصف عقده الخامس• مات والناس أحوج ما يكونون الى عمله وفضله • ولكل أجل كتاب •
رحمه الله رحمة واسعة

وقفت لديه أنظر الى الحصى •••

سَقَى اللهُ أرضاً حلّها قبرُ مالك ... ذِهَابَ الغوادِى المُدْجِناتِ فأَمْرعا
فو الله ما أُسْقِى الديار لحبِّها ... ولكنما أَسقِى الحبيبَ المودّعا
تحيتهُ مِنىّ وأن كان نائياً ... وأَمسَى تراباً فوقه الارض بلقَعا

كان بالسنة الرابعة فى التجهيزى اذ نحن فى رابعة الوسطى وكان ذلك عام نشر فى مجلة الكلية نونيته التى جارى بها على سبيل الفكاهة نونية ذى الاصبع :

يا من لقلبٍ طويل الهمّ محزون ... أَمسَى تذكّر ريّا أم هارون

---

(١) توفى رحمه الله فى اوائل سنة ١٩٦٣ بالخرطوم ونقل جثمانه ودفن بالغبش

كنا نستعد بعد محطة عنيبس لرؤية انقاض السور • ترتفع من اللاشيئية ومن وراتها الخراب • وتلك قبة الشيخ زين العابدين • وتأخذ الاكـــوام فى الانخفاض وتنحنى فى اتجاه نهايتها • ونرى المعزى وخـــور الدكة ، وحلـــة الدكـــة ، بيوت المدينة ، الجبانة • وصلنا الى ناحية المدرســـة • ذلك حوش المدرسة • تلك هى المدرسة وفضاء ميادين الكرة أمامها •

المحطة تدنو • تلك قاعة الامتحانات ••• قد آزف زمان الامتحانات ونحن هذه السنة ، ديسمبر سنة ١٩٣٥م عندنا امتحان اللجنة «أزفت الآزفة ليس لهـــا من دون اللـــه كاشـــــفة » •

مضت على الحرب الطليانية الحبشية شـــهور • قالوا اســـتعمل الطليان رصاص دمْ دَمْ ــ هكذا سمعناها فى اذاعة لندن Dum Dum bullets والغاز السام • وكان فضيلة القاضى الشيخ محمد الامين القرشى رحمه الله قد نظم قصيدة يذكر فيها أمر العدوان على الحبشة وقال فيها :

اذا العهودُ مضت حبراً على ورقٍ فأنت جعجعةٌ ياعُصبةَ الأُمَم

نشرتها جريدة الســـودان وصـــار البيت صيرورة عظيمة •

******* *****

كانت فى السودان الانجليزى المصرى بضـــع عشرة مدرســـة من المدارس الوسطى • أُلغيت مدرسة الدويم الوسطى سنة ١٩٣٢ • وصارت مدرستـــا حلفا وأتبرا نصفيتين تقبلان عاما بعد عام • وكانت بورســـــودان وبربر والخرطوم والخرطوم بحرى وامدرمان الاميرية (وكانتفيها مدرستان معا) ورفاعة وود مدنى والابيض كلهن كوامل • هل كانت فى سنجة مدرسة أو لا ؟ وكانت مع هؤلاء مدرســـتـــان كاملتان بأمدرمـــان غير حكوميتين ، الأهليـــة والأحفاد • وكانت المدرستان الصناعيتان ــ مدرسة أتبرا ومدرسة أمدرمان تعدان فى منزلة المدرسة الوسطى لكن تلاميذهما لم يكونوا يجلسون لامتحان اللجنة • وبخت الرضا أنشئت فيها ســـنة ١٩٣٤م مدرســـة لتدريب معلمى

المدارس الأولية مكان مدرسة العرفاء القديمة التى كانت بالخرطوم ، وهذه كانت من ست سنوات • وكانت مديريات جنوب السودان اقليما مغلقا Closed district فما كان للتعليم فيه بنظام التعليم فى سـائر القطـر من اتصـــال •

كان أمر جنوب السودان مجهولا لدينا كل الجهل • فقط دروس الجغرافيا مديرية بحر الغزال ـ مديرية منقلة ـ مديرية أعالى النيل ـ حاصـلات الجنوب ـ قبائل الجنوب ـ عواصم المديريات ـ المراكز •

جيء بامرىء جسيم طويل القامة عظيم الهامة جهير الوجـه يلبس قطعة ثوب يلقيها على كتفه ، (عرفنا من بعد أن اسـمها الـلاوه) قيل انـه من سادات «الشُّلُك»(١) أحدث شغبا فحوكم بالنفى الفورى نفوه بالدامـر • أحسبه وضع فى سجن المديرية بالدامر • ثم حددت اقامته بالبلدة • وطالت اقامته وجيء له بزوجته وكان منظره ذا هيبة ووجاهة • وجمل يلبس جلابية جيدة غاية فى النظافة وعمامة لفتها قريبة الشكل من لفـة عمة الطربـوش المغربى • وأسلم وتطرف بالشاذلية وكان قوى العقيدة فى الشيخ المجذوب ، وسمى بنتا له الدامر وولدا له محمد المجذوب وكـان ذا شخصـية وروح رئاسة • اسمه ناويلوكور • توفى رحمه الله وجيء بآخر من النُّوَيْر (٢) كان طويلا نحيلا • ولم تطل اقامته ببلدتنا كما طالت اقامة السيد ناويلو رحمـه الله • قيل لم يلائمه جفاف الطقس وقيل مات بعد ذلك بقليل •

هذا وكانت لبعض الجاليات المسيحية بالخرطـوم مدارس خاصـة بها ، أشهرها مدرسة الكمبونى • أول مرة سمعنا عن الكمبونى من أحد المدرسين الجدد سألنا عن عدد المدارس الثانوية بالسودان • فهمنا منه أن كلية غردون مدرسة ثانوية وكنا نعتقد أنها الكلية المعرفة بالالف واللام • وسـألنا كـم

(١) الشلك بضم الشين واللام قبيلة من سودان النيل مساكنها على النيل الابيض جنوبى بلـد الجبلين •

(٢) النوير من قبائل الجنـوب مساكنها جنوبى السـدود •

مدرسة ثانوية بالقطر ، فقلنا واحدة ، هى الكلية ـ كلية غردون • فخطأنا وفهمنا أنه توجد ثلاث مدارس ثانوية هى :

١ ـ Gordon College كلية غوردن

٢ ـ Comboni College كلية كمبونى

٣ ـ AL-Giraif College كلية الجريف

الى الآن ما عرفت ما كلية الجريف هذه أو كما قال (الجريف كلج) هذا ولا استطعت تحديد مكانها وزمانها ـ هل كانت معهدا زراعيا ؟ هل طال العهد وضلت الذاكرة ؟ هل أخطأ •• ؟

ولم تكن كلية غوردن حقا مدرسة ثانوية • كانت مدرسة إعدادية للتوظيف • كانت التجهيزى • انما صارت مدرسة ثانوية فى ما بعد وذلك بعدما أدخل فى نظام التعليم امتحان شهادة كمبردج وقامت المدارس العليا التى انتقل اليها اسم كلية غوردن ومهدت لقيام جامعة الخرطوم

****** ******

كانت الفصول النهائية بالمدارس الابتدائية (قبل أن تسمى الوسطى) يذهب أبناؤها كلهم لامتحان اللجنة فى الخرطوم • يقيمون بداخلية كلية غوردن ويجلسون للامتحان فى قاعة السفرة • ثم تغير هذا النظام قبل دورنا بزمان غير بعيد ، سنة أو سنتين أو ثلاث أو أربع على الاكثر • فصارت كل مدرسة وسطى يجلس أبناء فصلها النهائى لامتحان اللجنة فى مدرستهم • يجلسون لنفس الأوراق التى يجلس لها سائر أبناء دفعتهم فى المدارس الأخريات • مر بنا امتحان اللجنة لما دخلنا الابتدائى • كانت تلك لجنة المديريات الشمالية بربر ودنقلة وحلفا ، جلس لامتحانها النهائى تلاميذ الفصول النهائية بكتاتيب تلك المديريات • أما الآن فالامتحان لكل السودان ، لكل مدارسه الوسطيات ـ إلا الجنوب •

وكانت كلية غوردن تبعث بمفتش انجليزى ومفتش « ود بلد » أى مواطن ـ لكل مدرسة وسطى ليمتحنا التلاميذفى الشفهى الانجليزى والاملاء

وليشرفا على مراقبة جلوس التلاميذ للامتحان نفسه وقد يصححان ما يكون قد صدر اليهما توجيه بتصحيحه من مواد تخصصهما ، واذ كانت كل دروس المدرسة الوسطى بالعربية الا اللغة الانجليزية ، فقد كان جليا أن تخصصَ المفتش الانجليزى مع اشرافه العام كان مادة اللغة الانجليزية ، نطقا وكتابة وانشاءً واملاءً ونحواً – لا غير . كان جانبها مهيبا . نعم ، الحساب طقش العشرين ، ولكنها لغة الحكام ، ومفتاح المستقبل . المستقبل بيد الله وهو على كل شىء قدير .

كان كل انجليزى يقال له المفتش ، جناب المفتش . وكلمة « خواجة » التى نستعملها الآن فرع من معنى المفتش وجناب المفتش ، وانحراف به لا يخلو ... بل هو مفعم بمادة من جذور روح احترامه القديم .

وكان كل استاذ من كلية غوردن اذا زار المدرسة الوسطى يقال له المفتش . واذا كان من المواطنين قالوا : مفتش ود بلد .

وحضر مفتشان ، انجليزى « وود بلد » لامتحاننا امتحان اللجنة . وجلسنا كل الامتحانات فى قاعة الامتحانات الا الإملاء والانشاء والشفهى .

لم يكن الدين مادة امتحان . مع اننا درسنا الزكاة فى المدرسة الوسطى وفى الكتاب وعلمونا التِبيع والحِقّة وبنتَ المخاضِ وبنت اللبون – أشياء كانت بعيدة جداً من واقعنا . أقرب الى مداركنا وصف الصراط ، أدق من الشعرة وأحد من السيف . وعذاب القبر . ولكن كان يعيننا فى هذه الناحية روح الخلفية الدينية التى كانت فى بيئتنا على كل حال .

وقرأت كتاب دقائق الاخبار فى ذكر الجنةِ والنار برَهَبُوتٍ عظيم .

كان الشيخ بابكر عبد الله رحمه الله يهتم بشرح دروس الدين شرحا عمليا واضحا يسأل عن كيفية الوضوء والاستنجاء والغسل . وكان يقول لا حياءَ فى الدين . وفهمنا معنى دم الحيض والنفاس والمنى والمذى والودى . وكنا نتطلع الى البلوغ ويشوقنا اليه الذين كبروا . كانوا حقا أكبر منا ، ويتكلمون عن بنت ابليس . وينضاف اليهم من حين الى حين محتلم جديد .

ولم نصـل سن ثمانية عشر حولا ظهر (١) حتى نزعم أننـا بلغنا بالسنين وأخذ الكاتبـان يسطران علينا الصـغيرة والكبيرة • ويجىء منكر ونكـير ليقذفانا الى الأرض السـابعة بمقامـع من حـديد كلما تلعثمنا فى الجواب هـذا هـو الامتحـان الاخـير والكبـير :

ــ من ربك

يقـول الذى يمـوت على سـوء الخاتمـة

ــ أنت

يتملق منكرا وأخاه نكيرا • سوء الخاتمة قد يجىء فى أية لحظـة •

ــ من نبيُّك

ــ أنت

ويقع العمـود الحديدى ، مِقْمَعَةُ المَلِكِ ، بخبطٍ شديد • أما أنا فأتماسـك وأكون رابط الجأش وعندما يسألنى الملكـان ، من ربك ، أقول ، لا اله الا الله وعندما يسألان ، من نبيك ، أقول محمد رسـول الله صلى الله عليه وسلم • وأمر فى كل الاسئلة بجواب صحيح صادر عن ايمان صـحيح

وقَـدَرٌ كذا صراطٌ ميزانْ حـوضُ النبىِّ جنـَّةٌ ونيرانْ

ولكن بنت ابليس ما جـاءت •

ولكن هل يوجـد إنبات الشـَّعَر ؟ ألم يقل ابن عاشر فى عـلامات البلوغ انها : بمنى أو بانبـات الشعر أو بثمانى عشرة حَوْلا ظَهَـرْ

ولكن الشـيخ بابكر عبد اللـه رحمه الله يوضـح أن انبـات الشعر ليس معناه هذه الهُلبة التى تكسو جلدنا • إنبات الشعر هو أن يصير شعر العانة ــ أى الشِـعْرة بكسر الشين ــ مثل شعر الرأس • مثل شعر رأسك يا ولـد • مثل شعر رأسى هذا ويرفع العِمـة ويرينا شعـر رأسـه •

---

(١) هذا من منظـومة ابن عاشر :

او بمنى او بانبـات الشـعر او بثمانى عشرة حولا ظهـر

كان الشـيخ بابكر رحمه الله حسن الهندام • وعمامته جيدة اللفة جيـدة القماش ، من أجود « الكِرب » ومـرة تنبه أحـد التلاميـذ الى انهـا من « المركزى » وهو أجـود وأغلى من « الكرب » • كانت عمتـه (الكـرب) البيضـاء الناصـعة البياض أحب عندى لانها تظهر أسلوب لفته للعمـة كل اظهار • كان أسلوبا متقنـا ذا أُبَّهـةٍ وهـدوء •

كان رحمه الله يعـرف درس الدين ويحرص على تفهيمه ويفهمه التلاميذ منه جميعا • كان يدرسـه لا ليجلس التلاميذ فيه للامتحـان ولكن ليعرفوه، وكان التلاميذ يستجيبون الى أن يعرفوه مع علمهم أنه لم يكن فى الامتحان مـادة • بل لعل هذا اعتبار لم يكن يخطـر لهم ببـال • كان الدين لا يزال جزءا من حياتهـم •

الآن يجلس له التلاميذ فى الامتحـان • بل هو فيه من المواد الاجبـارية يجلسـون له ولا يعرفونه ولا يريدون ولا يراد لهم أن يعرفوه • سيعرفونه من بعد ، من طريق الايديولوجيات سلبا وايجابا ••• ولكن •••• لا حيـاء فى الدين ••• رحم الله الشـيخ بابكر عبد الله رحمة واسـعة •

كان الامتحان الشفهى بسيطا • كان أصعب شىء فيه كما خوفنا مدرسونا هو مواجهة انجليزى من الانجليز أنفسـهم • من أجل اعدادنا لهذه المواجهة كان دعـا ناظر المدرسـة مفتش المركز المستر فحضر بنفسه الينا فى الفصل وتحـدث وفهمنا كلامه • أعطانا كلامه فكرة كيف يتكلم الانجليز الانجليزية

Suppose I am a man who is مفلس and I have no money.

يعنى : Suppose I am a Sudanese

طبعا كلمة «مفلس» غير انجليزية ، فهى بمنزلة الرمز ههنا •

كان ذلك المسـتر قدامنا فى الفصل لما تكلم واضح الصـوت والكلمـات ولطيفا •• كانت سـمعته أنه شديد ولئيم وكان فيما يقـال اذا لقىَ شخصا يركب حمارا فانه لا بد لذلك الشخص أن يترجّل ويحيى جناب المفتش واذا

كان ماشيا فعليه رفع يده بالتحية (يقطع تعظيم كما فى العبارة العسكرية)
واذا لقى شخصا يلبس حذاء يابانيا (آساهى) يجبره على خلعه ويأمره
بشراء مركوب • كانت المراكيب رخيصة ولكن «أساهى» كانت (جزمة)
أى شيئا متمدنا مع كونها من قماش وكانت رخيصة بالنسبة الى «الجزمات»
من طراز باتا • كانت بخمسة قروش • منظر المركوب البلدى لاشك
أجمل وتصميمه أفضل وهو أكثر وقاية للقدم من الرمضاء والشوك والوسخ
ولا يفوح برائحة المطاط والقماش وذفر العرق • ثم المركوب صناعة
سودانية • لعل المستر الشديد كان اجبارد مرتبا على مثل هذه
الاعتبارات • ولكن القروش كانت العزيزة والناس فقراء والى مظهر من
مظاهر المدنية ـ تصميم بداية نفور من القديم والاصيل ـ متطلعون
أو مسوقون بعوامل اجتماعية ذلك المستر نفسه جزء منها بل أقواها وهو
لا يشعر وهم لا يشعرون •

وقد كره الناس المستر واتهموه لا بأنه كان يحرص على الصناعة
الوطنية وذوقها الجيد ألا يتقللا ، ولكن بأنه كان يحرص على محاربة اليابان
غيرة على موقف انجلترا التجارى الذى كانت هذه الدولة الشرقية الفتية
تهدده • كنا نشعر باعتزاز ازاء اليابان • وقالوا لنا أن اليابان دولة صناعية
لانها بحرية شمالية مثل الجزر البريطانية ويأتيها تيار من المحيط الهادى
مثل تيار الخليج الذى يمر بالقرب من الجزر البريطانية والدنيا فى اليابان
برد وليست حارة • البلاد الحارة متأخرة •

وفى جريدة كوكب الشرق التى أخذتها من حسن مجذوب الوقيع توالت
عدة مقالات عن نهضة اليابان • أحسب أنه كتبها الدكتور محمد عوض محمد
رحمه الله • المسألة ليست مسألة حر وبرد ، ولكنه مجهود متواصل وقيادة
رشيدة وحزم ونضال • وقرأنا قصيدة حافظ ابراهيم رحمه الله
وحفظناها :

أنا يابانيـــةٌ لا أَنثنى عن مُــرادِى أو أذوقَ العطبَــا
هكذا الميكــادُ قد علمنا أن نَرى الأوطان آمّاً وأبــا

كان زميلنا الأديب الناقد المطلــع الفطن الاســتاذ عبد الرحيم الامــين رحمه الله يسمى حافظ ابراهيم ، يجعل ذلك كاللقب له « شاعر ســنة ثانية ابتدائى» • ولعله قسا عليه شيئا فى هذا الحكم • وهذه البائية أفدناها ونحن فى ســنة رابعة ابتدائى •

******* *****

كانت الجرائد المصرية المصورة فيها حــوادث الدنيا الكبــار وزعماؤهــا الكبار • وجريدة Pictorial Education وجريدة The Illustrated London News

مما نحبه جــدا • موســلينى يرفــع يــده بالتحيــة الفاشستيــة • ليس له أدنى بريق عنــدنا • نحن مــع الحبش • قُتل ملك يوغسلافيا فى مرسليا ولم تقم الحرب •

ظهر فى المانيا زعيم اسمه هتلر • المانيا براقة جــدا • كنا بعواطفنــا الى جانب غليوم وهندنبرج ولودندرف وضد الحلفاء وضــد معاهدة فرســاى كان روحنا الوطنى ضد الاستعمار ، يعنى انجلتره وفرنسه وما خطر ببالنــا أن المانيا أيضــا اســتعمار • حقا كنا نراها ظُلمت لانهــم أخــذوا منهــا مستعمراتها • كنا نعطف عليها لانها ظُلمت لاننا نحن مظلومون •

هتلر يظهر عليــه الحزم والصرامة وأنه ســيؤدب الاســتعمار والانجليز يخافون منه • وسَتالين (بفتح الســين ، هكذا كانوا ينطقونها) •••

كان كأنه شىء بعيدٌ جدا • لم يكن له بريق وصُوره كانت قليله • وروســيا شىء بعيــد •

ولكننا كنا نحب رسم خط حديد سبريا ــ أُمســك • تُمســك • آركتســك ••• الى فلادفستك ••• بورت آرثر •• من سمــاها بورت آرثر •• شىء شاذ ••• مثل كلية غردون فى البلــد المســلم •

أريد أن أكتب على كراستى أم أربع وستين ورقة • صرفو لنا فى السنة الرابعة (الوسطى) للانجليزى كراسات من هذا النوع • للانجليزى وحده لانه العلم الممتاز فى الفصل الممتاز ، فصل امتحان اللجنة • كنت أتشوق لان أكتب على ظهر كراستى فى ورقة الاسم البيضاء :

The Gordon Memorial College

وهناك ، فى « غردون مموريال كوليج » تصرف الكراسة الحمراء لكل العلوم ، فاكتب عليها كلية غردون ، هكذا : كلية غردون كما رأيتها مكتوبة على كراسات أبى :

وهل يُنبت الخِطّيَّ إلا وشيجه وتُغرَس إلا فى منابتها النَّخْلُ

من أجل إعدادنا لمواجهة الانجليزى الشفهى أخذنا مدرسونا لسماع راديو لندن • فرحنا لسماع راديو لندن وسماع Big Ben التى هى من عجائب الدنيا السبع ـ كانت أكبر بكثير من افادتنا استعدادا لمواجهة شفهى الامتحان •

عجائب الدنيا السبع كانت فى الحقيقة أكثر من سبع ودائما تزيد • خبرنا أحد المدرسين الجدد عن ناطحات السحاب • كل مدرس جديد كان يحرص على أن يضيف شيئا جديدا •

حتى فى التجهيزى دفع المدرس الجديد للتلاميذ الذين كانوا فى الترماى أو (الترماج) حق التذاكر • مد يده بالقروش لأحدهم وقال له بشهامة Go ahead ـ أى أمض فى سبيلك •

فى قصة Box and Cox المسرحية ، التى كانت فى كتاب المطالعة فى السنة الرابعة كان ناظر المدرسة ، وكان يجيد الانجليزية ، يصحح نطق التلاميذ وطريقة أدائهم فى : Smoke does not go down, it goes up

ويرفع رأسه وحنكه بكلمة up هذه ليدل على أنها صاعدة النغم •••

هكذا يتكلم الانجليز لغتهم • فاهم يا ولد ؟ ! It goes up

وحفظنا العبارة : There is plenty of room at the top

وفهمونا معناها ، على أنك اذا كنت فوق ، أى كنت الاول ، وجـدت مجـالا واسـعا • رحم الله الوالد ، كان كثيرا ما ينشد يترنم به

واذا كانت النفوسُ كباراً   تعبَتْ فى مرادِهـا الأجسـامُ

كنا صـفا تحت برندة الفصول منتظرين •

ونوديت لامتحان الشفهى فى حجرة حضرة الناظر •

الآن حمـى الـوطيس •

****** ******

لم أكن خائفا من امتحان الشفهى نفسـه • دخلت الحجـرة متهيبا كـان فيها شىء آخر غير امتحان الشفهى هو شبح المستقبل متمثلا فى هذا المفتش الانجليزى الذى فى صـدر طربيزة المكتب • كـان المفتش ود البلـد يجلس بجانب الطربيزة • لا أذكر أكان حضرة الناظر هنـاك أم لا •• الراجح أنه لم يكن هناك • سألنى المفتش عن اسمى وعن عمرى وأعطانى فقرة من كتاب المطالعة فقرأتها ، أسئلة سهلة جدا بعضها مستوى أولى وثانية ، ثم قـال : ماذا تريد أن تكون ؟ سمعت السؤال وكأننى لم اسـمعه وفهمته وكأننى لم أفهمه وأجبت بصوت بين الواضـح والمتردد : أريد أكون دكتور • لم أكـن أريد أن أكون طبيبا وانما أردت أن ألفت نظره الى أننى تلميـذ ذكى وأريد القمة وزعموا لنا من قبل أنها كلية الطب •

وما كان سؤاله ، كما تجلى لى من بعـد ، الا ليعـرف عدد الراغبـين من مدرستنا فى الالتحاق بقسم القضاء الشرعى • كان النظام آنئذ أن يختـار للقضاء الشرعى من التلاميذ الاذكياء والمناسبين عدد محدود مرة كل خمس سنوات • وكانت مدة الدراسة فيه خمس سنوات • وكانت فرصـته تعـد فرصـة نادرة وممتازة • وكان المشايخ يحرصـون على ألا تفوت أبناءهم وقراباتهم الذين ينجحون فى امتحان اللجنة ويقبلون فى التجهيزى • وكانـت هذه الفرصة الآن أمام دفعتنـا • ولكن ما سـبق أن علمت بهـا • أما كنت

غائبا لما كلم الناظر التلاميذ ولم يكلمونى واما لم يكلمهـم بها أو لم يصـله إشـعار رسـمى بذلك ، والله تعـالى أعـلم •

كانت دفعة القضاء الشرعى التى اختيرت من اجنتنا هى آخر دفع القضاء الذى من هذا النوع • اذ بعد أربع سـنين من دخولنا التجهيـزى أنشـئت المدارس العليا وجعل فيها قسـم خاص بالقانون بنوعيـه المدنى والشرعى وجىء بالاستاذ الكبير العلامة النحرير الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد رحمه الله ، ليتولى تدريس اللغة العربية والشريعة • كان ذلك سنة ١٩٤٠م وكان انشاء قسم القضاء الشرعى القديم سنة ١٩١٢م على يدى فضـيلة قاضى القضاة الشيخ محمد شاكر والد العلامة المحقق الشيخ أحمد محمـد شاكر رحمهما الله وأخيه الاديب الفذ والاستاذ الكبير محمود شاكر حفظـه اللـه وأطـال بقـاءه •

بعد قبولى فى التجهيزى ووصـولى الخرطوم وعند بدء انتظـام العمـل بالكلية نصحنى المشايخ أساتذة اللغة العربية والدين وعلى رأسـهم مولانا الشيخ جلال أن أقدم لفرصـة القضاء الشرعى وحثونى على ذلـك ولكننى أبديت عدم رغبتى فيه • كانت نصيحتهم لى جيدة أرادوا بها برّى ومنفعتى لأن مستقبل القضاء قد كان ولا زال أفضل بكثير ، من حيث المرتب والجـاه وأوضاع المعاش من التدريس الذى كنت فيه شديد الرغبة •

كنت قلت لضابط الداخلية القـديم لما سألنى ونحن فى السنة الثالثة ، أريد أن أكون مدرسا ، فقهقه من ذلك وتعجبت • وسألنى أحد زمـلاء الضـابط الجديد وهو معهم وأنا بالسـنة الرابعة ، قلت أريد أن أكـون مدرسـا ، فسخروا من ذلك وتفّهوه وخبرونى أن التدريس مهنة بلا مستقبل ، وحزنت لذلك ولكنى لـم أغـير رغبتى •

بعد ذلك بزمان لما أوشـكنا على التخرج من الكليـة ، وكانت العليـا ستفتح لأول مرة وتقدمنا لها ، حثنى المسـتر سكوت ، وكـان مدير الكلية

حثا شـــديدا على قســـم القانون الجديد ، ولما اعتذرت بطول مدته وحاجتى لأن اتـــوظف بسرعـــة لفقرى ، قال لى أن الحكمـــة تقضى أن أطلب وظيفة أجود حتى أكـــون بها على مساعدة أسرتى أقوى ، ولما ذكرت له عدم ميلى الى القضـــاء نفسه وشـــدة رغبتى فى التدريس ، ذكر أن القانون عنـــوان للحضـــارة وهو من أمهـــات علومها المقدمـــة ، ويتيح فرص التدريس على مستوى أعلى ، ثم فيه من المحاماة ، وهى مجال للبلاغة والخطابة والبيان .

نعم ، كنت أقـــرأ مرافعـــات الهلباوى وأعجب كيف أتيح له أن يترافع وهو قاضى دنشواى ، ومرافعات مكرم عبيـــد . كنت أقرأ هذه المرافعـــات بعزم مواصـــلة الاطـــلاع واتوهم أنها ينبغى أن تكون ذكيـــة رائعة ولكنى لم يكن يعلق بذهنى منها فهم شىء . كأنمـــا كنت أنظـــر فى أســـطر حبـــر لا كلمات . خطبة بورشيا Portia الخيالية المبسطة التى قرأتها أروع :

The quality of mercy is not strained,
It is the mightiest in the mightiest

فضيلة الرحمة لا تبتز هى أعز ما فى الأعـــز

كان أستاذنا البروفسر غرى Gurry فى معهد التربية بجامعة لندن يقول : You can't simplify poetry , can you?

عندما اقترح أحدهم تبســـيط الشعر ليفهمه الناشئة . أى تبسيط الشعر بتحويله من لغته التى صـــيغ بها لا يستطاع ، وعلى هذا فترجمتـــه كأنهـــا أمر مستحيل ، ولكن الأقـــلام من شأنها أن تجمح وتطمح . وقـــد يلهـــم ملهم فيبدع كالذى يستحســـنه بعض نقاد الانجليزية من ترجمـــة فتزغرلد للرباعيات الخيامية وكما كالمجمع عليه من استجادة ترجمة غلبـــرت مـــرى لا لكتـــره « ورب شىء كهـــذا » .

A Daniel come to judgement

أحسب الصـــيغة المبســـطة فيها A Daniel is come to judgement

وأن الأصـــلية 'Tis the mightiest in the mightiest

بحذف حرف (i) الأول ، لتستقيم رنة ضربات النظم .

كانت خيبة أمل للمستر سكوت (disappointment) انى لم

أستجب . جاء يزور بخت الرضا بعد ذلك بزمان ونحن نتحدث ونلعب الشطرنج وقد تذكر أيام تدريسه لنا : « انك كنت أذكى تلميذ مر بالكلية » — ثم أضاف : « أنت وفلان كنتما أذكى تلميذين مرا بالكلية » . أبيت يا مستر سكوت الا أن تقرن بى آخر على طريقتنا نحن السودانيين . وكرر : « فلان وأنت أذكى تلميذين مرا بالكلية » .

****** ******

كنا أنا وفكى الطاهر ود بابكر رحمه الله نقرأ بشغف عن لقمان الحكيم وعجائبه فى العلاج . أريد لأتذكر واحدة منها أعجبتنى جدا حينئذ فلا أستطيع . ليست « مات الطبيب وما ألفت له دوا — أى ماء اللِّفْتِ له دوا » . تشبه جدا قصة الفتى الذى تقيأ دما فجىء به الى محمد بن زكريا الرازى فألقمه طحلبا كثيرا فخرجت العلقة (نوع من الديدان يمص الدم) التى كان بلعها وشفى .

أول عهد لنا بأطبة كتشنر كان فى كسلا . تعور أصبع من أصابع قدمى فى بعض شقاوات الاطفال ، أظنها طاحت بظفر الأصبع وفسد الجرح وساء وذهبت الى الاستبالية (المستشفى) وفى حجرة لا أذكر الآن منها الا أسمنت السلالم ، كأنها كلها كانت أسمنت السلالم ، كوانى التمرجى (الممرض) بشىء مثل قلم الاردواز . قبل ما كوانى التمرجى أذكر أن الدكتور أمسك باصبعى وتلمسه وكواه بقلم الاردواز . بعد سنوات فى الخرطوم وأنا فى السنة الثالثة بكلية غوردن انكسرت يدى وأخذونى للاستبالية وقعدت فوق كنبة الخشب وجاء دكتور مكتمل الهندام بسترة وبنطلون وأمسك بيدى المكسورة بنفس طريقة الدكتور الذى كان فى كسلا وبنفس نوع ابتسامته وبنفس نوع اشباه تعبير لا تعبير عينيه .

ثم جاء التمرجى بقلم الاردواز بعد أن صار فى يده أداة تعذيب ، أظن ذلك كان فى اليوم الثانى كوانى « تِشْ » • وجاء بقطرة « نترات » الفضة ونقطوا فى عينى ومع النقطة تنقفل العين وتحبو فوق كرة الحدقة أنواع من الوقائع ، بعضها مثل الحصى ، وبعضها مثل التراب • من العجائب كنت مع هذا أحب « نترات » الفضة اللاذعة المؤلمة لأن اسمها « نترات » الفضة • كنت أحب الفضة • الانسان حيوان متحيز • لو أتيح لك شهود مباراة بين فريقين ليس لك بأحدهما أدنى صلة أو ميل ، فانك لا تنجو من أن تجد نفسك تتحيز الى أحدهما • دوافع ذلك خفية •

وقطعة « أب قرشين » فضة ، بخلاف القرش والتعريفة فهما نيكل • والمليم صفر ونحاس • وقروش المهدية دمج ـ طبر ساكت يا ولدى • كان خالى الطيب ود آمنة يجىء عندنا وينزل فى القطية المنفردة ويفرش برشا كبيرا ويفتح كيسه وجزلانه ويعد القروش أكواما أكواما ـ أبا خمسة وابا عشرة وأبا عشرين الكبير الذى كله فضة • وكنت أقف أمامه وأقول له يا خالى « مش يخصك » ـ عبارة سمعتها من الكبار ولم أعرف معناها • وكان اذا أتم عده أعطانى قرشا • كان ذلك فى حياة الوالد رحمهما الله ، ونحن بكسلا •

اذكر فى كسلا جرعات الكينا للطحال • الكينا أمر من الحنظل • ولمرارتها التواءات وكل التواءة منها أوجع مرارة من التى قبلها ، وتجىء بقوتها كلها بعد أن تظن أنك قد تخلصت من آخر مذاقها • وكانت أختى الكبرى رحمها الله تعاف الكينا وُتكرَهُ عليها ، ثم قيل للوالد انها تسبب الصمم فأعفانا منها • وجعلت أنا بعد ذلك أتهيب الكينا السائلة كل التهيب • ثم بلغنى أن حبوب النيفاكوين تسبب العمى ، وأن الحقنة قد يخطىء طاعنها موضعها من عضلات الإلية فيسبب ذلك الشلل فما أدرى ما صحة ذلك والله المستعان •

وأول قراحة لى كانت بكسلا وصارت كبيرة صفراء ولعلى لا أحتاج معها الى قراحة أخرى • وكنا فى المدرسة الوسطى نعصر الليمون على

مكان القراحة « لتفسّـد » أى تبوخ • فعلت أنا ذلك مرة واحدة ولم يكن ذا جدوى • ومن رحمة الله أن تنشــف القراحة بسرعة • وهى من بلاء العصر ومضــايقاته التى لا تنتهى • وما خفت « الطِهارة » ـ أى الخِتانة ـ كمـا خفت منها • هززت الســوط وقلت أبشر أبشر وكان ثم مشــجعون وانتهى الأمر • نعم شعــرت بوجع الكلابة الحــاد القاطع ••• لكن بعد أيام جــاء « ود المزين » لفك الرباط وعــالج الجرح بســائل ما شيئا فشــيئا ثـم غفلنى عند آخر لفة من الرباط كانت لاصقة بالجرح لصــوقا ، فجذبها وقلت فى نفس الوقت « وَعْ » ـ هكذا « وع » كــأنى أردت أن أقــول(واى) التى عندنا هى الصراخ الجازع ثم استدركت • وسخر من وع هذه ، فتماسكت • واى عند أهل غرب الســودان معناها نعم ـ كأن الواو للعطف •

كان مســاعد الحكيم رءوم الوجه ذا رأفــة • ووضــع فى عيوننــا المس بسلفات النحاس Copper Sulphate • كنا نحترمــه ونكره سلفات النحاس • وكنت أنا اعتقد أنها أقل فائدة من نترات الفضــة • وكان المس ضربة لازم على من عنده الرمد « التراكومة » وعلى من ليس عنــده •

لما كنا فى كتاب مقرات كنا نعامل بنفس المعاملة • ونخاف من المس ونكرهه • وبعض التلامذة كان عندهم الحصر بفتح الحــاء والصــاد وناس مقــرات يخطفون أواخر الكلم فلاتكاد الراء تظهر • والحصر البلهارســيا • فكــان أمر هؤلاء أتعس • كانوا يعطونهم أربع عشرة حقنــة • وعندما توضــع الحقنة فى الغرف واليد مبسوطــة مفتوحة الكف والنمــرجى قد ضغطهــا حتى طارت العروق وبرزت ، يجىء فيها الدم • هذه الحقنــة هى حقنــة الانتمون ـ لفظــة أعجمية معناها الكحل وهى دواء البلهارســيا وقــالوا اخترعها مفتش طبى بالخرطــوم وهو الذى ذكره الاســتاذ حســن عمــر الأزهرى فى قصــيدة له التزم فيها مالا يلزم بقافيــة انجليزيــة نهايتهــا شــين ونــون مطلعهــا :

ألا يا فاضــل الاخلاق انى رأيتك عاشــقا للاديكيشن Education

والبيت الذى ذكر فيه اسم المفتش الطبى :

سَبقت خرستفورسَن فى علاجٍ وجئت لنا بأنجع أوبريشن Operation

ولعل الاسم خرستفُورسَنْ Christopherson فهذا أشبه بأسماء الانجليز ويستقيم به الوزن وليست ضمة الفاء مشبعة حتى يلتقى ساكنان ٠ وخرستفورس أشبه بأسماء يونان واستبعده ٠ والله أعلم ٠

وهذه القصيدة جيدة فى بابها ، لأنها تمثل روح هذا الخلط العجيب بين العربية والانجليزية الذى نجده الآن فى طريقة تحدُّث مثقفينا حين يجلسون يتكلمون بعضهم الى بعض ، والى الآخرين أحيانا ٠

كنت أخاف من « البلهارسيا » ٠ قرأت عنها فى الاشياء ٠ وتفزعنى صورة الرجل الراقد ويده مغزوزة عند كُلْيتِهِ وهو يتألم وصورة جراثيم البلهارسيا وهى تستَنُّ الى القدم الفلاحة الغليظة وهى تخوض فى الماء الراكد ٠ وما زعموه من أن دودة البلهارسيا ربما التصقت بباطن غشاء الأمعاء كما يلتصق الضب بجدار البيت ، وجعلت تمتص الدم مباشرة ، وربما ساءت أخلاقها فجعلت تأكل من أغشية الأمعاء نفسها ٠

وكان الأولاد فى مقرات يقولون أن « الحصر » يسببه الحفاء والمشى فى الرمضاء وكانت الاقدام ربما كستها من تحت طبقة سميكة من الجلد وتشققت كما تتشقق جروف النيل بعد انحسار الفيضان وجفاف الطمى ٠

كانت حقنة الأَمِتِين للدوسنتاريا نظنها أرحم من حقنة البلهارسيا لأنهم كانوا يطعنونها فى عضل الذراع الاعلى ٠ وكان اسم الدسنتاريا البلدى : « العصرة » من العُسْر بصيرورة السين صادا ٠

وكان يكشف علينا الكَشْفَ الطبىّ فى أول كل عام ٠ أول العام الدراسى فى يناير ٠ وكان يكشف علينا مساعد الحكيم ٠ ويفرح منا كل من كان نظره ستة على ستة كأنما قد حل مسائل فى ورقة امتحان الحساب ولابد

من شربة ملح مرة فى العــام على الاقل وتأتى بعد ذلك مرة أو مرتان يعطى فيهــا المرء شربة ، مثلا اذا شكا الحمى ، أول شىء يعطى شَربــة ، ثــم اذا ظهرت الملاريا أعطوه الحقنة • ويشرب التلميذ الماء باســتمرار ، ويخــرج باستمرار حتى نصــف النهار ، الساعــة ١٢ ، وعندئذ يعطى « الشُــوربة » (المرَق) التى هى طعام الشربة • وأحيانا كانوا يعطوننا «شوربــة» عدس رقيقــة •

« شُــوربة » كلمة دخيلة على دارجتنا • انما تعــرف دارجتنا من أســماء أشربة الحساء الساخنة ، المرَق (المرقة) والعقود والمديــدة والنشا وملــح البليلة • « الشُوربة » جاءتنا مع المدارس والاستباليات والمدنية •

هذا ودائما مع شَربة الملح أربع وعشرون ســاعة راحة • ومــع المــزيج الابيض « دوا شغله » ــ أى يذهب للدرس ولا يعطى راحة • وكذلك مــع المزيج المنفث والبزموت • وكذلك رباطات الجــروح التى كان يداخل لفها وفكها نوع من عناية وتفنن ولا ســيما حين يرمى الشريط القديم ويستبدل بشريط جديد • وويل لمن يكتب عنه « مُتَصــنّع » فهــذا ربمــا انتظــرته الخيزرانة • وجاء مرة فى الداخلية شــخص عنده عروق العقرب • وأخــرج من كيس له عقارب صُفرا كثيرات جعلت تدب على ذراعه • وكان ذلك يــوم شربة وشوربة عدس لى • فكرهتها ورأيت العقــارب الصُــفر تخــرج من الصحن أياما متتابعات بعــد ذلك •

وشَرْبة زيت الخروع سخيفة • وقالوا حســنة لانك بعدها تحتاج للسوائل الساخنة كالشــاى ولم أجربها • وناس الخــلوة كانوا لا يعدلون بســـنا مكة شــيئا • وكانت ســنا مكة تنمو كثيرة بنواحى ما بين الدامــر وبربر • فهل هذه هى نفس سنا الشَربــة التى يتداوون بها ؟ كانوا يسحنونها سفوفا وربما وضــعوها فى فنجــان عســل •

لا استحضر أن شكســبير ذكر شربة الملح فى شىء من شعره ، مع أنه كان يستخرج من قريب من مدينة لندن ، ويقال له أحيانا ملح إبسوم

وهو سلفات المغنسيوم • ولا أحسبه ذكر زيت الخروع مع أن كاستور الوارد فى قولهم Castor oil معروف من آلهة الاغريق ، كانا هو وتوأمه بولاكس فى رحلة الصوف الذهبى مع جاسون • ولكن شكسبير ذكر السنا ، وهى فى كلمات ماكبيث المشهورة التى يخاطب بها طبيب زوجته لما انهارت وجعلت تمشى فى نومها وتهذى هذيانا :

What rhubarb senna or What purgative drug . . .

ـ أى رُوَنْدٍ أو سنا أو دواء مُسَهِّل

لقد طبق صيت سنا مكة الآفاق كما ترى •

كان مدّاح القادرية بكسلا يقولون :

لالوبة يا لالوبة

يا ال منك باب التوبة

يعنون « بلالوبة » هنا السبحة المصنوعة من خرز اللالوب • والاستغفار بها يفتح باب التوبة •

ال لالوبة جات تتكىَ	(تنطق تتكا)
اللالوبة شدرة مكة	(تنطق مكا)

اللالوبة فى الاصل هى ثمرة شجرة الهجليج ، وقد تطلق فيراد بها الشجرة نفسها أحيانا • وشجرة الهجليج من أشجار الشوك الصحراوية ، أغصانها وأوراقها خضر لمقاومة الجفاف ، خضرة تعلوها غبرة وترهقها قترة من حر الشمس ولفح السمائم ، لا تلك الخضرة الناضرة التى تنشأ من توالى الغيث • اللالوبة برقوقة افريقية أو قل برقوقة السودان كما الحنبق كرزته • وينشف اللالوب ويدخر كما ينشف البرقوق • وحبته التى فى جوف ثمرته جوزية زيتية ، ولها كساء خشب قوى ، يثقب ويجعل خرزا يسبح به العابدون ، ويصنعون منه سبحة اللالوب الألفية التى يقوم بها الصالحون الزهاد الليالى الطوال ، ويهجرون لذلك ملذات الدنيا •

واذا قيل « اللالوبة » فى المديح فان هذه السبحة التعبدية هى المعنى المراد .
وقد أعطاها المادح ههنا صورة رمزية نسبية اذ جعلها « تتكَى » أى تتبختر كأنها تتوكأ ، كما يمشى الوجِى الوَحِلُ ، كأنها ليلى العاشقين . ثم نسبها الى مكة يخلع عليها بذلك القدسية . « وشدرة » أى شجرة ، يجعلون الجيم دالاً ، بضم الشين وفتح الدال ، وقد يفتحون الشين ويختلسون الفتحة ، شَدرة ، وقد يكسرون الشين ـ شِدرة ـ وهذه قرأوا بها فى القرآن الجيم غير محولة دالا « شجرة » فى قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشِجَرَةَ » « ألَم أنهَكُما عن تِلْكُما الشِجَرةِ » فقيل انها قراءة سودان مكة وعبيدها . وقال المادح فى الصالحين الذين يقومون الليل بسبح « اللالوب » :

النوم تركوه ياليلى
اللالوب بكوه ياليلى

أى هم ، الصالحون ، تركوا النوم وجعلوا اللالوب (أى خرزات سبح اللالوب) يبكى . وكما ترى قد جعل المادح ههنا اللالوب مثل جوارٍ يبكين عند الجِمَاع . وكان من عادة السودان أن الجارية اذ أرادها الرجل ، ولاسيما فى ليالى العرس، بكت ، فربما سَمِعَ صَوتها الجيران . فمن ههنا تتجلى لك براعة الاستعارة المتقدمة .

وزعموا أن الشيخ الدرديرى رضى الله عنه تزوج امرأة من سنار فبكت وأحزنه ذلك ثم علم أن تلك لقومها عادة فسُرَّ واستزاد منها ، فالله أعلم أى ذلك كان .

هذا ، واللالوب ربما صُنِعت منه شَرْبة ناجعة ، فاتفق هو والسنا فى النسبة الى مكة ، كأنه يشار بذلك الى معنى الشفاء والله تعالى أعلم .
وكان التلاميذ يتحدثون عن شَربة يقال لها الكربون فما أدرى ماهيه .
والذى أعلمه من أمر « الكَربُون » أنه الفحم وأنه فى ما بلغنى يصلح لعلاج الغازات التى فى البطن . وكانوا اذا قالوا « كربون » حسبته مادة سحرية من نوع « كربون » الورق الشديد الزرقة ، ومن مادة قلم الكوبيا وكانوا

يقولون أنها سامة • قالوا ويجوّع الانسان لشربة الكَربون تجويعا ويعطى جرعــة من الصــباح كأنها سُــمٌ ناقعٌ يَغشَى عيونــه لها ظــلامٌ ودوارٌ أو ظلامُ دُوارٍ ، ويهوّلون فى هذا كلّ تهويل • ولكنها تُخرِجُ الدودة الشريطيــة بلا ريب • وهى التى يســميها الناس الدبيب ، أى الثعبان • ويقــولون ان فلانا أعطــوه شربة فى الاستبالية ومرقوا منه دبيب من بطنه • ففكرة هذه الدودة الدبيبية (أى الثعبانية) كانت تخيفنا جدا • وكــذلك فكــرة دودة الفرنديت التى تستخرج بان تُلَف على أعــوادٍ مثل أعواد الكبــريت ، واذا أخطا التمرجى أو أخطأت أنت فى لفها انقطعت ، واذا انقطعت فانها تنمو كما كانت من قبل فى لحم عضلة الساق نموّا جديدا ، وتكرر المحاولات ولا سيما مكان دودة الفرنديت الفاسد اللين ، فى مخاوف الخيال الواضــحات التّصَور كالاحــلام المرعبــات تمامــا •

المرة الثانية التى رأيت فيها « دكتور » من مدرســة كتشــنر ••••••

دكتور بالســكون على الحكاية سئل الخليل رحمه الله عن قول العرب مررتُ على أيهُم أفضَــل بضــم أىّ عــلامَ ضمُّوه فقال فى رواية سيبويه عنــه أن ذلك على حكايةٍ سؤالهم : أيُّهم أفضل ؟ مستفهمين • واستبعد سيبويه هذا الوجه وزعم أنه لو جاز ، لجاز أن يقال اضرب الفاسقُ الخبيث بالرفع حكاية لقــول أنــاسٍ ذلك • ومــن العجب لســيبويه أنــه رجــع الــى قول أهل الحجاز للذى يقول مررت بزيد ــ من زيد ، يحكون قوله ، « انهم حكوا ماتكلم به المسئول كما قال بعض العرب دعنا من تمرتان على الحكاية ، تقول ما عنده تمرتان ، فانما أراد أن يحكى قوله عندنا تمرتان • وسمعت أعرابيا مرة وسأله رجل فقال : أليس قرشيّاً فقال ليس بقرشياً حاكيا لقوله١٠هـ »

رجــع الحــديث

المــرة الثانية التى رأيت فيها دكتور من مدرســة كتشــنر ، لما جيء بأبى من أتبرة الى فراش المــوت • وصلتنى اشارة بالتلفون من محطــة الدامر بأنه (خطرى) وكنت العب فى غفلات الصبا ، فنبهنى أحد التلاميذ الى معنى (خطرى) ففزعت وذهبت بالمحلّى ، ولاقانى أحد الناس فى المحطة وقال لى

بـأنه صـار أحسـن ، اسـتطاع أن يقعـد اليـوم . كانـوا قـد حملوه من المحطـة على حمار . لم تكن بالدامر عربات . وجعلت الحقيقة المخيفـة تتجسـد أمام تصـوري الجاهل . ولما دخلت وجدت حالته أسوأ بكثير من الوصـف الذي سـمعته . وقد ضـعف جدا . ورفـع رأسـه بعيون المـوت . كان لا يتكلم ولكن كان واعيا . أحنى رأسـه بالمعرفة لما وقفت أمامه وعرفت في عيونه أنه ميّزني .

وكان الفقراء حوله ومنهم يمرضـه ويهبب ، ومنهـم يقـرئون يس . وجاءت سـيارة الطبيب . كان عبور السـيارة من أتبرا الى الدامر بمعدية ذات اسـلاك وحبال وكان ذلك أمـرا مخصوصا بسيارات الحكومة فقط . كان يلبس بدلة من النـوع الفاتح الضـارب الى اللون البني الخفيف . وهو نفسـه كان قمحيّ اللون ، لا أذكر من هـو . وقالوا يُجاء له بفنجان قهوة بن ، وأحسـبه أشار بأنه لا يريد ذلك . اقتراحُ تقديم قهوة البُن كان فيـه نوع من الاشـارة الى أنه من الطبقة الحـاكمة . كـان أول ما جسر السودانيون على تقديمه للمفتش الانجليزي قهوة البن ، اذ كرهوا أن يلـم قريبا من بيوتهم ولا يقدمون له عـروضا ، ولم يجد هذا بـدا من قبولهـا بالادب الذي ربّيَ عليه ، وبدافع ذكـاء حبّ الإسـتطلاع ، ثم ساغت له ، فلم يَخْل من عدم كراهية توقعِها كلما ألـمّ بقريـة .

ووضـع الطبيب سماعته ولون لستكها جديد ، وكان شابا ظاهر الشباب ، وحديدها يلمـع . شعرت حينئذ ــ استحضر ذلك الآن ــ أن عمله واكبابه كل ذلك لا معنى له . وكذلك مجهود الفقراء ، يتفلون في إناءِ العسل :

فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيءٍ واليه ترجعـون ...

..... آمـين ... تف ....

الا أنه كان أروح للنفس ، لانه سيخفف عليه في ما بينه وبين اللـه . فيه الأجـر .

وذهبت السـيارة بالدكتور الأنيق الشاذ المظهر والروح والاسلوب فى تلك الساعة من ساعات الاحتضار بمشهد من الفقراء والاســلام •

ـ لا الــه الا اللــه

وقف الفقــراء حول فراش الوالــد يهيئونه للقـــاء ربــه • مات فى نفس اليوم ، نهار الثلاثاء ، مر على حين من الدهر وأنا انكمش من يوم الثلاثـــاء وأوشــك ان أتشاءم منه • ثم انحسر عنى ذلك بحمــد الله وعــونه • كل الأيام لله • وكلّهن موضــع خِشية وموضــع رجاء •

وكلّ أناسٍ سوفَ تدخُلُ بينَهم دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ منها الأنامِل

المرة الثالثة التى رأيت فيها دكتورا من مدرسة كنتشفر حين انكسرت يدى • بالطبــع رأيت كثيرا منهم قبل ذلك فى الكشــف الطبى • وكح • ودق دق على الصــدر والظهر ، وفتــح الفــم ، ومد اللســان ، وقلب الجفن ••• ولكن شيئا من ذلك لا يكــاد يليق بالذاكرة منه شىء •

كنا فى المدرســة الثانوية ، كلية غوردن ، نُرسَل عند المــرض الى عنبــر مخصــوص لنا فى اسبتالية النهر • وكانت فيها عنابــر للســل الــرئوى • ووجدنا انهم يســمونه تى بى • T.B • فكنا نخاف من ذلك جدا •

وكان قــولهم « تى بى • » نفســه من الطلاســم المخيفــات مثل قلــم المخابــرات ، ومثل البوليس السرى ، وهــذه النحيف عنده « تى بى » وفى خدوده شىء كالعرق • وهذا ذهب لاسَــبْتالية النهر فى عنبر الـ « تى بى » ، والآن هو سمين • كل من عنده الـ « تى بى » يصير سمينا على وجهه عرق •

أُعِيذها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسِبَ الشحم فى من شحمه وَرَمُ

والسل يســكن فى البيوت ، وكل بيت يدخله لا يخرج منه الا اذا هــدم وكشــف للشــمس • ولكن عنبر الكلية المخصوص فى « اسبتالية » النهــر ما هدموا ســقفه • • رشــوه بالأدوية التى تقتل المكروب • ولكن ألا يجوز أن احدى الجــراثيم اختفت وراء ورقة • قالوا أن كاترين دى مدسى سمّت شــارلس التاســع ابنها فى ورقات كتاب فيها نفثات مســلول ، وأحكمت

الصاقها فاضطر الى أن يمسها باصبعه بعد أن يضعه فى لسانه كل مرة، ليُفرِدَ كل صفحة من أختها ، فأصابته العدوى القاتلة •

وكأيٍّ من حلقةِ ناس كاملة أبادها السُل : يموت الأبُ الكبير ، فالابن ، فالاخ فالاخت ، فجار فجار آخر — المرض البارد — الـ : تى بى T.B•

كنا نرقد فى عنبر التلامذة للملاريا • ويجىء الدكتور وينظر الينا ويجاملنا وينظر فى الورقة التى فيها درجة الحرارة • ودرجة الحرارة اليوم ٩٨ مع خطين ••• « نورمال » تقريبا ، أى درجة حرارة الجسم الطبيعية • كان الأطباء يهتمون بنا • ولكن كان فى هذا الاهتمام بنا نوع من بعد شديد عنا • كان الطبيب كأنه طبقة أخرى تتحرك فى داخل العنبر • كان خاليا من محاولة الوصول الينا التى عند المدرس — التى كانت عند مساعد الحكيم لماكنا فى المدرسة الوسطى • كان التمرجيون يزيدون مسافة هذا البعد بالذى كانوا يظهرونه من مزيد الاهتمام بساعة مرور الدكتور أكثر من حالة المريض نفسه • لكن بعد ما نقلونى الى العنبر فى ليلة الكسر وأحسست بكلاب الألم تنبح فى ذراعى ، اهتم التمرجيُّون بى وأعطونى جرعة نمت بعدها •

أرسلونى للأشعة • كان الكسر فى العظمين ، بسيطا ، عند الرسغ • قرروا عملية وتكلموا • قال الحكيم الكبير : بنج توتال — أى تخدير كامل بالبنج • هلّا هلّا • العمليات هنا مجرد تجارب • فى مصر البنج له حكيم مختص والعملية نفسها لها حكيم آخر • على باشا ابراهيم أحد بضعة قلائل يشار اليهم بالبنان فى كل العالم • هو الذى عمل العملية للسيد على المرغنى •

جاءوا لابسين « البالطو » الأبيض • حفوا بى حولى • وأرقدونى فوق « اللستك » (فراش من المطاط) الأحمر فى غرفة العملية • كان واضحا لى أننى لم أكن موضع عطف من حيث انسانيتى المباشرة ، من حيث انى الشخص « فلان » • كنت موضوع انشاءٍ على السبورة •

كنت حين سألونى حريصا على اشعارهم بشخصيتى وذاتيتى – وصفت لهم شعورى بالبنج والالوان التى أراها جاء شئ لذيذ كالنوم بعد مقدمات من الأحلام ذات الرؤى ، وكانوا بعيدين يراقبون قضيتى – تعوم ظلالهم وراء ماء وزجاج •••• تتلاشى ••• وكأنما أحسست أن أحدهم قال : الآن نام فاذبحوه •

أَفقت من البنج فى عسرٍ شديد • وبعد يومين أُرسلت للأشعة وظهر أن الكسر لم يلتئم ، وقرروا عملية أخرى •

لم أكن حقا أريد أن أكون دكتور عندما قلت للمفتش الانجليزى الذى امتحننا واسمه المستر لى وأنا فى نهاية المدرسة الوسطى :

I want to be a doctor

وصح عندى بلا شك اننى لا أريد أن أكون دكتور وأنا فى السنة الثالثة فى الكلية (كلية غوردن) فى الفصل الممتاز • نفرت من سمت تقديم طقوس النظام على أريحية العلاج مع شئ من روح تأله : شئ استعمارى • نعم • مرت السنون وخبرت أنواعا من الانسانية فى الدكاترة • أخص بالذكر الدكتور حسين فى « استبالية » العيون • على أن زميليه الدكتور ماكلفى والدكتور الباقر ابراهيم رحمه الله كانا فى غاية الاتقان • ولكن الدكتور حسين كان بشوشا بزيادة كبيرة على الأسلوب المهنى فى الملاطفة • كان عنده من اليُسر وعدم التكلف ما يخلق علاقة مباشرة بينه وبين المريض شبيهة بالتى تكون بين الأستاذ والتلميذ • لدى جميع هؤلاء الثلاثة واحدا واحدا أصبت عناية عظيمة مع جودة فى النظافة والعلاج • وقد اجتهد الدكتور ماكلفى فى أمر عينى اليسرى كل اجتهاد •

كنت أسير • أحسست بعد مجاوزتى ناحية الكُبْرِى (الجَسْر) الذى على النيل الازرق بظلام ما يغشى احدى عينى كأنه غمامة مارة •

وفى صباح اليوم التالى (كان الاحساس بما أحسست به وقت العصر قبل الغروب بأكثر من ساعة) بدا بياض يترقرق عند جانب السواد من المقلَة غير غالب على لونه • ذهبت الى المستشفى • قبل أربع سنوات ،

فى السنة الرابعة بالمدرسة الوسطى فى نصفها الثانى مرضت حتى شارفت الموت ٠ والآن ، فى رابعة التجهيزى ، عند نهاية الكلية ، فى ربعها الرابع ، تتلقانى هذه الكارثة ٠ هل كان هذا نتيجة جرثومة عدوى فى خريف رحلة كردفان ؟ هل أصابتنى العين ؟

لم تنجع المراهم والقطرات من بينها — من دون شك — نترات الفضة القديمة ٠ كشفوا على الدم ، يأخذونه مرتين من الوريد مباشرة ٠ أعطونى من الحبوب والأسقية ٠ صرت كما قال ابن أحمر الباهلى :—

شربْتُ الشُّكاعىْ والتددتُ ألِدّةً ٭ وأقبلتُ أفواهَ العروقِ المكاويا

وأرسلت الى معمل « استاك » الطبى ، حيث تلقانى طبيب يشبه الذى قال : « بنج توتال » فى السحنة وهيئة الطول وتعبير الحنك والعينين ٠ وأعطانى حُقَيْنَة صغيرة تحت الجلد لم ينشغل بها ونشأت منها «نَفَحَة» صغيرة مثل الحمصة البلدية أو أقل ٠ كانت الحقنة فى ما بين الرسغ والمرفق ، أقرب الى الرسغ ، فى اتجاه راحة اليد مفتوحة ، وأعطانى «الكرت» فعرفت أن اسمها تباركولين Tuberculin ، وقال لى ان أحضر بعد كذا — ثمان وأربعين ساعة أو أقل — ولما حضرت المرة الثانية نظر الى « النفيحة » وهز رأسه ٠ فسألته ان كان ثم شىء يدل على وجود ٠٠؟ وكأنه انزعج قليلا ، قليلا جدا ، للسؤال ، ثم انطلقت أساريره ، وقد ذكرت له أن مكان الحقنة قد احمر شيئا ، فقال ان هذا كلا شىء ٠٠٠ ان كان عندى « تى بى » ٠ T.B فانها تنتفخ وتصير مثل هذا ٠٠٠ وأخرج قطعة نقود من جيبه وقال ، مثل التعريفة (أظنها تعريفة نيكل ٠ لا توجد الآن) يعنى فى اتساع قطرها ، ويتبع ذلك ارتفاع أو أكثر وكان شرحه واضحا ٠

أعطونى ثلاث أو أربع حقنات ثم لما استيأسوا عادوا الى المرهم مرة أخرى ، وقالوا ان العين ستطيب من تلقاء نفسها — قال ذلك الدكتور ماكلفى ، ولكن بعد علاج ٠ وشفيت ٠ ومرت على « البياضة » فترة

اشتدت فيها وكادت تغطى الحدقـــة كلها • كـــان مثل كســـوف الشـــمس الجزئى الكبير • وزالت • ونقصت قوة العين من ستة على ســـتة الى شىء دونها ، لا بكثير • وعند اشتداد البياض حزنت ورثيت عينى بقصيدة جيمية مثل مرثيـــة ابن الـــرومى :ـــ

أمامكَ فانظرْ أى نَهْجَيْكَ تَنْهَجُ طريقان شتّى مستقيمٌ وأعوَجُ

فى الوزن والقافية • وابتهلت فيها بالدعاء ابتهالا • وضـــاعت منى فلا أذكر الا قطعـــة من بيت :

فهب لى بيُسْـرىَ ناظـرىّ التى بهـــا

لا أشـــك أن مثل هذا الدعـــاء كان له أثرٌ عظيم فى زوالها • والله سبحانه وتعالى يقول : « وقال ربكم ادعونى أستجيب لكم • » وقال تعالى : « واذا سألك عبادى عنى فانى قريبٌ أجيب دعوة الداعِ اذا دعانى » •

هذا وأخص بالذكر الدكتور عبد العزيز نقد • كان حكيمبـــاشى الـــدويم فى ســـنوات الاربعين الاولى • زرته بمجموعة من تلامذة الكتـــاب ، وكنت آنئذ (سنة ١٩٤٢) فى أخريات التمـــرين ، فى المســـتشفى ، فى حصـــة من حصص الجغرافية المحلية • كنت انما أؤدى واجبا لانى لم أكن راضـــياً عن الجغرافية المحلية كما وضـــعها المســـتر غريفث وكأنه ينتقد بهـــا أســـلوب التعليم القديم ، ولو احتفظ بشىء منـــه أفضـــل • كنت أدرى أن التلاميـــذ لا يتبعـــون خطـــة الطريق المرســـومة ، ولكن يصـــلون الهدف من أقـــرب وجـــه لتمام معرفتهم ببلدتهم ثم يغشـــون فى صـــفة الطريق الذى سلكوه فى مابعد ، ومـــع أن هذا كان لا يخلـــو من فائدة ، كان فى ذاته بعيدا جـــدا من المـــــراد •

كنت أريدهم ليستفيدوا وأُرجح أنهم سيجدون ذلك فى زيـــارة المستشفى أكثر من أية من الزيارات الأخرى للســـواقى وما أشـــبه ، مما سبق لهم أن قتلوه علما ، فلن يجـــدوا من زيارته الا المَـــلال • هش اليهـــم الدكتـــــور عبد العزيـــز • وطاف بهم • واستخـــرج من أدوات العـــلاج الجراثحيـــة

مجموعة وجعل يشرح لهم بأريحية وشــهامة وهم منتبهون كأنما يستمعون الى أســطورة • ورفــع أداة بيده وقال فى حالة عُسر الولادة المســتعصى نطمن الجنين بها فى دماغــه فيمــوت داخل البطن ، ونقطع أعضاءه عضوا عضوا ــ اليد ــ الرجل ــ الرأس ــ شىء مخيف • ولكن التلاميــذ استمعوا وانتبهوا بلا خوف ــ كان الشرح واضحا مفيداً • فهموا شيئا من أمر عسر الولادة وضرورة انقاذ الأم • ولعل من صار منهم طبيبا بعد أن يكــون قد انتفــع بتلك اللحظــات أى انتفــاع •

وسوى هذين اللذين خَصصتهما بالذكر جماعــة من الفضلاء ، منهــم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، أهل معرفة وجد واحســان ، جــزاهم اللــه خيرا كثــيرا •

كان من خير من عرفت من مساعدى الحكماء الدكتور اســماعيل أفنــدى كرار • كانت كلمة « الدكتور » فى ذلك الزمان تعنى الطبيب الــذى يعالــج بأدوية المستشفى العصرى وجر اشيانه • وما ســواه بَصِير وفَكِى • وماظهر شىء من الدكاترة الذين لا يعالجون ، دكاترة بى اتش دى ودكتوراه ديتــا ، وتروازيم ســيكل وهلم جــرا • قالوا الشيخ الــرَيّح العَيــدروس أخــذ دكتوراه فى الفلك • وبعدبضــــعة عشر عاما أخذ اســتاذنا الدكتــور مكّى شبيكة أول دكتوراه فى العلوم التأريخية فى آخر ســنة ١٩٤٩ ثم الدكتــور عبد الله الطيب فى يونية ١٩٥٠ • قالوا حينئذ Paper Qualification (أى قصاصة ورق) قال هذا الحكام • لا يمكــن أن يعطى السودانى أكثر من وظيفــة Junior lecturer أى محاضر صــغير حتى تصهره التجربة وتتبين حقيقة معدنـــه • وقــال أحــد المســئولين أولاد البلد الذين كانوا ينظرون الى الدكتوريات الأدبيــة (أى اللاطبية) بنكران ساخر : « لابد للواحد من شىء من المرمطة » ــ اشتقاق المَرمَطَــة من المرمطُون وهو المســاعد الأخير للطباخ ويغســل الآنية ويأكل الفضــلات •

كنت أود أن أكون مثل الدكتور طه حسين لما كنت فى المدرسة الوسطى، ولكن لم يكن هذا المعنى واضحا فى ذهنى لما قلت للمفتش : أريد أكون دكتور • شدما أعجبت بعلى هامش السيرة • سمعت بالأيام • ولكن لم أقرأه • لاتنس انى كنت أنظم الشعر وأحب شوقى وأبا تمام ، والشعراء ليس فيهم دكتور • وكنت فى السنة الرابعة والثالثة قد تغلبت على المخالفة فى الإعراب عند حرف الرَوى • كنت اظن خطئاً — أم لعله صواب — أنه يجوز رفع المجرور وجر المرفوع من أجل القافية • أليس زهير يقول :

وإن الفتى بعد السفاهة يحلم ى

ومن يكثر التسآل يوما سيحرم ى

أم ليس الحرث اليشكرى يقول فى المعلقة :

ملك المنذرين ماء السماء •••• هذا •••

وكان الدكتور اسماعيل أفندى كرار من أُولى الفطنة والخلق الكامل • وعند الاسماعيلية أن كل اسماعيلٍ كامل ، تبركا بالسيد اسماعيل الولى •

كان يعاوننى بالعطف والتشجيع والاعجاب وأساعده فى بعض درس الانجليزية فيجعل ذلك سببا الى مساعدتى بالمال أحيانا كثيرة • وكان يستمع الى باعجاب صادق • وأطلعت على كثير من النشرات والمؤلفات الطبية التى كانت لديه • وكان يقول لى انه يريد ابنه لما يكبر أن يكون مثلى • وأشهد ما كنت بشىء الا أنه كان أمراً كريم المعدن ذا مروءة مفضالا • وكان ملاحظ الصحة معه ، مجذوب أفندى ، من أهلنا ناس بربر بالغرب ، من أهل الخير والطريق• ونقلوه بعد ذلك بزمان الى الزيداب• واستزارنى فزرناه أنا وطبيب بلدتنا الذى جاء بعد الدكتور اسمعيل كرار وكان قبله بها حينا — الدكتور عبد الرحمن أفندى الحسن — وكنت على صهباء قلوص فخيف عليها من اللصوص ولاسيما وقد وصلت مجموعتنا بشكل يلفت النظر ، د • عبد الرحمن أفندى على حماره الناصح ، والشيخ

عليش على حصـــان مطهم وأنا على البكرة • فأوصدوها داخل الحوش وكنت اسـتعرتها من خالى • وأذكـر أنه اشـترى لى مجذوب أفنـدى قمـاش جـلابية جيـدا •

لما كنت فى مدرسـة بربر الوسطى أجد من أمـر الملابس عنتا شـديدا ولا سـيما بعد ما نضبت أخريات ما خلف الوالد عند الوالدة من صيغتهـا ، وبيعت صـحون النحـاس ، واختفت أقـداح الدبكـر ، وما سـلم بعض الطين • فصل لى مولانا شيخ جـلال مجموعة طبية عند حميدة ود بكـرى بالدامر بعد ابلالى من مرضتى الطويلة التى استقبلت بها الكلية • وكان الشيخ بابكر عبد الله رحمه اللـه لاينى يعيننى ويختـار القماش الجيد للجلابيـة والعمـة • وكان ابنه محمد يُولم لنا تلاميذه السـنة الرابعة الولائم الجياد وفى المـدة التى سبقت النتائج ما كان لنا من شـغل غير الولائم • فذهبنـا مرات الى منزل ابرهيم على وكان قد جاءنا منقولا ، والى منزل المرحـوم أحمد السيد محمد بابكر • كان من الأذكيـاء المفرطى الذكاء • دخل قسـم الحقوق سنة ٤٠ • كان زملاؤه يجدون ويكدون • وكان منهم جماعة أكبـر منه سـنا وأوسـع تجربة اذ قد عملوا موظفين بالحكومـة دهـرا قبـل الانخراط فى المدارس العليا • ومن هؤلاء من حفظ أسـماء المتاجر فى أحـد شـوارع الخرطوم ، (الآن شـارع الجمهورية) بين المحطـة الوسـطى وفندق سنت جيمز ، وجعل يسمعها طردا وعكسـا يروض بذلك نفسه على حفظ القوانين ، وكان جفاف القانـون وكثرة مـواده من شريعـة ونَحْـوٍ وفلسفة ومقدمات وقضايا ، كل ذلك بالنسبة الى أحمد السيد ، رحمـه الله كأنما هو ملهاة من ظاهر يسره عليه ، وعدم اهتمامـه بالكـدّله ، وسـهولة نجاحه فى كل امتحـان •

ونقلت مرة كراسـة فى الأمراض • ولفت نظرى بوجه خاص أن رائحـة فم صاحب السكرى مثل رائحة التفاح • وكان التفاح شيئا لا يعرف • قرأنا عنه فى قصة « سنو هوايت Snow White والأقزام السبعة »

كان ينبغى أن يقال مثل رائحة النَّبق الغضّ • من العجائب أن قومنا يسمون النبق الغض الجيد « تفاحى » ولا عهد لهم بالتفاح الا أن يكون محض ذِكرى لغوية • وأعجب من ذلك أن طعمه مقارب لطعم التفاح •

وكل مرض له مضاعفات توشك أن تجعل أمر العلاج كله باطلا • مثلا مذكور فى مضاعفات الالتهاب الرئوى السل الرئوى نفسه أنه أحدها • وكان الدكتور اسمعيل كرار يتكلم عن المضاعفات وخطورتها • خفت من الالتهاب الرئوى وأرعبنى أن الرئة فيه تصير مثل الكبد • (قالوا ورئة صاحب الدخان كذلك •) أذكر حين مرضت خالتى فاطمة من بعد ، رحمها الله به وكان سبب وفاتها • كانت مثل جدتنا بنت حواء ذات شكيمة وشخصية قوية وحزم • وبلغنى أن وفاة الوالدة من قبل ، رحمها الله ، كانت به • وأحسب أن شقيقتى أم الحسنين ماتت به ، مع أن الحكيم الذى كشف عليها ظنها مريضة بالملاريا :

والمنايا بَين سارٍ وغادٍ كلّ حيٍّ برهنها غَلِقُ

ومرة صافحت شخصا كأنه مد الى يده • فما هو الا أن جاء الدكتور اسمعيل بإناء فيه مُطهّر وغمست يدىّ فيه ومسحهما من بعد بمادة مطهرة• وقيل أن الشخص متهم بالمرض الكعب • وفى الكراسة أن الجُذام بطىء العدوى وتستغرق حضانته عشراً من السنين وخمس عشرة وخمسة وعشرين • وقال لى النطاسى الاستاذ الدكتور التجانى الماحى رحمه الله ان صاحبى السل والجذام من أشد الناس حسدا ، لو استطاع أحدهما أن تنتقل عدواه الى ابنه الوحيد لفعل • وزرت الدكتور اسمعيل كرار لما صار الى شفخانة كبوشية ، وكان فيها يقام سوق كبير ، وكان فيه أحد التجار « البنيان » شاب دقيق الجرم والتقاطيع كنت آنئذ فى المدارس العليا فى أولها • وكنت آنس اليه ونتحدث عن الحرب • وأهدى الى فنلة صوف بلا أكمام • وذهبنا الى « الطرابيل » أى أهرام البجراوية ، بالحمير • وكنت أراها من القطار فتتوق نفسى الى رؤيتها • وهى بناء محكم • وقد

علمت من بعد أن الصدوع والخراب الذى بها انما طرأ فى القرن الماضى ، لما قدم بعض الطليان ، فحصل على اذن بتنقيبها ، وكان يأمل أن يصيب فيها كنوزا كالتى أصاب الحفريّون بمصر • وهان على أولى الأمر شأن السودان وأهله فأذنوا له أن يخرب كما شاء • ولا يخلو أن يكون الاجانب قد استكثروا على بلد السودان أن تكون فيه ، فى عمقه البعيد كالبجراوية ، آثار حضارة سالفة وأهرام • ولعله قيل للاهالى أن الطليانى انما جاء ليستخرج تركة أجداده ، فصدقوا ، لانهم انما كانوا يعتقدون أن تلك الآثار من بناء الكفر ، ويقولون لمعبد المصورات «قصر أَبْ جَهَلْ» — يعنون أبا جهل القرشى الكافر — والنصارى — (أى الانجليز ومن اليهم من الافرنج — كانوا لا يستطيعون التفرقة بينهم كثيرا ويسمونهم جميعا التُّرْكْ والنصارى) — كانوا من قريش • فقط بقوا على كفرهم • ولكنهم أحرار وعُزَاز — أى أعزاء •

ومررنا على عبد الله الماحى فصنع لنا شايا • وهو الذى كنت أسمع صوته فى كسلا من الاسطوانة — أم بعد ذلك ؟ فى الاغنية المشهورة : نَظْرَه نظره يا السَّمْحَة أم عَجَنْ •

واتفق الوالد وأزرق أفندى أحمد — رحمهما الله — على أنها أجود الاغانى السودانية جميعا وترنما بأولها وهما عائدان من المشرع ولم يجدا المركب ، وكانت الدنيا عشاء والقمر ملء السماء • ترنما بصوت خفيض شَجِىّ • وكنت فى كسلا اسمع صوت الفونوغراف من جيران لنا ، ويقول الفونوغراف :

لو تجازى ولو تسمحى
حنانة ريدك ما بيتمحى

وكان الفونوغراف آنئذ شيئا جديدا ومن بدعات المدنية • وماعرفت أهمية ابراهيم عبد الجليل رحمه الله الا بعد زمان • كنت أسمع من جهة السوق أسطوانته :

حبيبى جمالــه ال بيشــرح صــدرى
النور فى جبينــه يفــوق البــدرى

فلا أعيرها اهتماما • وينبغى أن أكــون قد ارتحت لها بحجة علوق هــذا البيت منــذ ذلك الزمــان بالذاكــرة •

وكان عمى جبــارة فى الداخلية يتــرنم :

ياعــزة الفــراق بَىْ طــال
وسال سيل الدمع هطــال

وكان الناس المثقفون آنئذ مفتونين « بعزة فى هواك » • وكان أســتاذنا الهادى أبو بكر يقول إن فيها تنويعاً بالنســبة لرتابة الاغانى السودانيــة وخصــوصا فى :

خــذينىباليمــ ين   أنا راقــد شــمال

كانت اقامتى التى أقمت بكبوشيــة ممتعــة مفيــدة • رأيت الآثــار بعد ذلك مرات ، وعرفت بعض تفاصــيل متعلقة بها من القــراءة ومن أحاديث الزملاء المختصــين • يقول بعض السفهاء من الناس أن الاحاديث الشفهية لا قيمة لها فى معايير العلم الحديث • أحســبهم لا يريدون بذلــك الا محض مهاجمة الاســلام ، وأخذوه عمن يريدون ذلك ولم يتنبهوا وهم لا يشعرون هذا ، وقد جعل الاهتمام بآثار النوبة يزداد منذ البداية فى عمليات انشــاء السد العالى • ثم انساق الاهتمام من النوبة السفلى الى النوبة العليا التــى هى بلادنا • ولم يكن مثقفونا يعيرون هذا الامر بالا فأقبلوا على ذلك بأخرة وبعثت الدول بالعلماء والخبراء وخف من أصناف البشر الأكاديمى خلق كثير •

أنكرت طعم اللحم بكبوشية شيئا ما • ذكر لى أن ذلك سببه المُشُكْ بميــم مضمومة وشين مضمومة أيضا وهو ثقل المريسة والمريسة تصــنع من الذرة الا فى جبل مرة فانها تصنع من القمح • واشتقاق المريسة عربى لانها تصنع من الذرة المروســة فى الماء ، تقول مرست التمر وغيره فى الماء اذا انقعتــه فيه ويجوز أن يكون اشتقاق ذلك من ممارسة صانعها لها بيده • وهل المشك

بضمتين أو ضمـــة فسكون ، عربية الاصل ؟ فى ذلك نظر • وان تك من أصل عربى فلعلها من البشك وهو الخلط وفيه معنى السرعة وتكون باؤه قد قلبت ميما ، ومثل ذلك قد يتفق • ومن البشك كلمة الابتشاك التى جاءت فى شـــعر أبى الطيب بمعنى الكذب ، وفى أبيات جميلة هام فيها وراء الخيال ونســـى الممدوح والمحبوبة معا ، وذلك قوله :

وما أرضى لمقلته بحلم اذا انتبهت توهمه ابتشاكا

هــذا ،

وذلك انهم يعلفون البهائم التى يؤتى بها للجزارة « المشك » فيقـــال انـــه عجيب فى التســـــمين •

وحضرت عملية خراج جيء بصاحبها الى دكتور اســـماعيل كرار وكـــان موضعها من فخذة قد تورم واحتقن واصفار • فجد فى أمره • وكانت ناجحة وشفى الرجل على يديه فى زمان وجيز •

ثم أحسبه نقل من كبوشية ولم ألقه الا بعد زمان ، وذلك بعد عودتى مـــن بخت الرضا لاستأنف العمل فى كلية الخرطوم الجامعيـــة •••• رعى اللـــه عهــده الطيب وجزاه عنى خير الجـــزاء •

****** **** *****

لقينى فى محطة الخرطوم بحرى عبد الرحيم أفندى الطيب •

كان يلبس بدلة حسنة فاتحة اللون ، أدنى الى السمنية ، وطربوشا أحمر جيدا حق أنيق • كان ــ رحمه الله الرحمة الواســـعة ــ متهلل الاسارير •

حيانى بفرحة ، وهنأنى على القبول مجانا داخليا • وهل سألته ؟ كأنه همس لى بصوته العميق الجرس أننى أول اللجنة • لا أنسى همســـه ذلك كأنمـــا يخشى على من العين أو الحسد أو الغيرة أو المنافســـة •

وتلقانى فى محطة الخرطوم زملائى من مدرســـة بربر الذين ســـبقونا فى الدفعة الماضية والدفعة التى قبلهـــا • كانوا مثل تيـــم الكرة الفائز • أحمد مجذوب عبدون • على التلب رحمه الله • لازلت أذكر جودة تمثيله دور Box

فى رواية Box and Cox
ـ مجذوب أبو النجا ، وقد التحق الآن بقسم الهندسة ، كانت تلك آخر دفعة للهندسة تؤخذ من السنة الثانية .... نعم أنا أول اللجنة .

****** **** ****

كنت مهموما . سؤال الانجليزى كان مطلوبا فيه استعمال كلمات فى سبع جمل ومن سبع كلمات ، فاستعملتهن فى تسع وأربعين جملة . وكانت فى الحساب مسئلة طويلة من مسائل المبانى ، الطول والعرض والارتفاع والسمك واصناف من التحويلات وحجم الطوبة (أى الآجورة)

٢٥×١٢×٧٧٦ سم ونسبة المونة ٦٪ ... أخذت منى زمنا فى مراجعة الارقام . كان امتحان الاملاء والانشاء فى حجرة السنة الرابعة لم أخطىء فى الاملاء الا أن يكون سهوا . فى الانشاء الانجليزى طلب منا أن نكتب فى موضوعين أحدهما جاف ، لعله رسالة أو وصف ، والاخر خيالى وانتهزت هذا لاكتب فى مغامرة فى الحبشة هزمت فيها فرقة من جنود بادوليو Badoglio . كنت حضرت للامتحان بلا ريشة (أى قلم حبر) .

ضاعت أو نسيتها أو اختفت بين قصاصات الورق فى الدرج . ورآنى المفتش أقعد وأقوم وأبعثر . وجاء المفتش ود البلد ، الاستاذ النصرى حمزة ، وعرف ما بى وأعطانى ريشة ، وكان خطى جيدا صحيحا ـ وصحح المستر لى الورق وعجب من اصابتى كتابة أعلام الرجال والبلدان ، وأعطانى ٢٠ فى الخيالية من ٢٠ و١٨ فى الجافة من ٢٠ . وبعد انتهاء أيام الامتحان ، ومضى فترة النقاهة من حمى الامتحان والاستمتاع بالولائم ، جعل يدخلنا الخوف وقلق انتظار النتائج . وفزعت الا أكون قبلت ، وخرجت من الداخلية ، وتنقلت بين الزملاء الخارجية يومين أو ثلاثة ـ ومرة ذهبت ضيق النفس الى شاطىء النيل عند الزراعية ، ضيق الذرع بانتظار النتيجة ـ تمشيت فوق الجروف الخضر باللوبيا . دخلت فى الزراعية كأنى لم أرها من قبل . لا . لم أكن أفكر فى الانتحار . والقصيدة التى فى الشوقيات تتحدث عن الانتحار لم أفهمها لا أذكر منها الا نونها أو ميمها وهاءها وأنها من بحر الرمل . الآن لا أفهمها

ولا تعجبنى • كنت أتمشى قلقا ، ولا أكاد أرى من حسن طبيعة النيل ، وهو هنالك جميل ، من شيء • واذا بتلاميذ يبحثون عنى • يريدونك فى الداخلية جاءت النتائج • لقيت أحمد السيد ومحمد أبو بكر وابراهيم على • ولكن فلانا الذى كان ينافسنى لم يجىء اسمه فى قائمة المقبولين • لم يخنقنى كما أرى فى الحلم • لعلى أنا الاول • مع ذلك لم أرتح لعدم قبوله • كان من أحق الناس بأن يقبل • ضيق فرصة المجانية وحده هو الذى منع قبوله وكان فى الخمسين الاوائل • ولما لقيته فى الخرطوم أهديت له أنفس كتاب عندى ، مختارات البارودى • كان أوعى منى وأبى أخذه • ثم لما أحس صدق رغبتى أخذه • ما لقيته بعد ذلك الا أحيانا جد قليلات •

جاء التلغراف وفيه اسمى ، مجانا ، داخلى •

وذهبت الى مكتب حضرة الناظر • وكان يكتب التصريح المجان • أفضل الصاد على السين فى التصريح لأن فيها معنى البيان • والسين والصاد بعد تتبادلان • وناولنى التصريح وقال لى : مجانا داخلى ثم أضاف (ما تستاهلش) ••••• جرحتنى عبارته هذه جرحا وكنت أقل ما أتوقع منه تهنئتى وتعريفى بترتيبى أن كنت الاول أو لا أو شيئا من هذا القبيل •

كان لا يحبنى • أحسست ذلك فى تصحيحه لى موضوعات الانشاء الانجليزى وغيرها وأعطانى درجات فى ما بين ١٤ و١٥ الى ١٢ مع اجتهادى وجودة خطى • كان فى درجاته عنصر تثبيط لم أرضه : أحسست (ان بعض الظن إثم) به كأنه كان متعمدا • ومرة طلب منا أن نكتب موضوعا : كيف تصرف مائة جنيه لو صارت اليك • واستعمل كلمة Spend

وجاءتنى فرصة الانتقام من درجاته المثبطات • فرسمت عمودين حسابيين على الورقة ، فى هذا له credit نقلت طريقة debit وفى هذا عليه

رسمها من ورقة دفتر حساب تجارى كان للوالد رحمه الله • ولم أضع الا الارقام • والحاصل صفر • صرفت الجنيهات المائة بندا بندا ، وكل بند ثمنه طبعى معقول مقبول •

وكتب فى آخر الصفحة بالقلم الاحمر Funny ولم يضع درجة واغتاظ وانتقد أحمد السيد (رحمه الله) نقدا عاصفا لانه بالغ فبنى من المائة الجنيهات معامل تحتاج الى مليون • نعم مبلغ المائة كبير ولكن لا الى هذا الحد غير المعقول • وهذا ــ وأشار الى ورفع كراستى ، ونظر الى شزرا وقاله يقرأ نفس ما كتبه Funny علمت بعد ذلك ، مسئولية ذلك على راويه ، أنه لما سألونا أن نقدم وتقدمت مجانا داخلى لفقرى ويتمى وتقدم ترتيبى علق على ذلك فى التوصيات السرية تعليقا مضادا ووصى بأن أقبل بالمصاريف الكاملة بحجة أن أحد أقاربى موسر ومدرس فى كلية غوردن يعنى الشيخ جلال رحمه الله • ولما علم بعض الاساتذة أمر ذلك من توصيته اتصلوا بالمفتش الذى جاء من الخرطوم وأفهموه بالحقيقة وأن هذا ولد فقير جدا ويتيم وذكى ومحافظ على الاولية وأن حضرة الناظر لا يحبه ووصى على تلميذ آخر أبوه موجود ويظهر أنه قريب له ، وكانت لكل مدرسة فرصة واحدة للمجانية الا أمدرمان الاميرية لانها كان فيها فصلان •

قالوا وقد سئل مولانا الشيخ جلال فذكر استعداده لدفع المصاريف وبين بعض أمر الولد للمسئولين •

هذا الصراع الخفى كله لم أعلم به • علمت فقط بقول حضرة الناظر : ماتستاهلش وليته وصى علينا الاثنين واشتد فى ذلك ، واذن لعله كان يحبنى بدل أن يقرر كراهتى ، وكنت أستفيد منه أكثر ••• كان مرة كتب لنا قطعة ترجمة نموذجية ترجمها هو من نص انجليزى أمامنا فى قصة « مونتى كريستو » من بعض خبر الاب فاريا ، وبدأ نصه العربى النموذجى بالفاء •• ففى سنة كذا وكذا •• أظن هكذا كانت بدايته ••• وكان تسلسل الكلام فى نص الاصل وتعاطفه يقتضى ألا يبدأ فى الترجمة الا بحرف يدل على العطف • وما كانت الواو تصلح لما فى اشعارها الاضافة الى شىء سبق • كانت الفاء أصلح شىء لما يلابسها من معانى الاستئناف • ولكن الاستفادة

لاتكون الا بالتجاوب ، والتجاوب لا يتأتى مع احساس غير الود • والاغراض مزلـة اقـدام •

والظلمُ من شـيمِ النفوسِ فان تجـدْ ذا عفـةٍ فلِعِلّةٍ لا يَظلِمُ

فارقت أكثر زملاء المدرسـة الوسـطى عندما صرت الى كليـة غوردن • كما كنت قد فارقت أكثر زملاء المدرسة الاولية من قبل • كـان شأن التعليم تصفية مستمرة أولها الامتحـان ، وآخرها التقارير • بعض الذين قـرأت معهم من قبل تلقاهم اذا أسـعدك الحظ • أهو حقا اسـعاد ؟ من بين هؤلاء زملاؤك فى المسـتقبل ، وأصدقاؤك ، وحلفاؤك ، ــ وعسى ــ اعـداؤك • كليـة غوردن ، هى ، كانت نهاية المطـاف • وفى ما بين أوائلها وأواخرهـا بدايـات الالـف والخـلاف •

نقلت كلية غردون من مبناها الشامخ سنة ١٩٤٠ فى سنة ١٩٣٥م ، سنة الحرب الثانية ، فى أولها أو أواخر سـنة ١٩٣٨م ، منـه ميونـخ ، زرعت أشـجار النخيل الاستوائى الكاذب الطوال التى كانت من شارة هذا المبنى وتتمته من بعد لما صـار هو الجامعة • لم يبق فى البناء القـديم من فصول الدراسـة فى سنة ١٩٤٠م غير آخر أقسـام القضاء الشرعى القديم ، السنة الخامسـة منه ، التى دخلته أول دخولنا ، وغير السـنة الاولى من مدرسة الآداب الجديدة فى المدارس العليا الجديدة • ثم بعد أخلى المبنى كله لمجهود الحرب الثانية ، وصار تابعا لقياداتها لا يدخله أحـد الا باذن خاص • وكانت فيه مصلحة عمل فيها كثير من الموظفين السودانيين كان يقال لها

Pay and Records فلا أدرى ما ترجمة ذلك الا أن تحتال عليه احتيـالا فتقول المواهى والقيودات وقيل ترجموها : المصروفات والسجلات ، وليس

لذلك من معنى ، اذ لم تكن العربية اليه بحاجة ، وأن كان هو قد احتاج الى بعض أبنائها ليكـونوا عمالا كتابيين ليس غير ، وليكتبوا باللغة الانجليزيـة فيه وحدهـا ليس الا •

نقلت الكليــة القديمة الى مبانى المدرســة الاميرية الوســطى القديمــة بأمدرمان • وهى ذات أبهــة وفخامة واتساع • كنا نحن آخر دفعة متصلة المعهد بنمط حياة الكلية ومبناها القديم • وبعد ذلك جعل الأمر يتشعب • وفى النصــف الثــانى من ســنة ١٩٤٥م نقلت الى واد ســيدنا ، ثم بعــد ذلك أنشئت حنتوب فخورطقت وانتهت الكلية وصــارت مدارس ثانوية وآلت روحها وذاتيتها الى المدارس العليا الجديدة بعد أن عادت لى المبنى القــديم مرة أخــرى ، وصارت كلية غوردن التذكارية مرة أخرى ، ثم كلية الخرطوم الجامعية ، ثم جامعة الخرطــوم • وطال النخل • وشــاخ بعضــه وفنى • وشــاركت البنــات فى الدراســة الاولاد •

اخترت للتدريس بالكلية القديمة آخر زمانها بأمدرمان فى أول سنة ١٩٤٥ أنا والاستاذ دوليب المهدى ، كان أبوه الشيخ محمد المهدى دوليب رحمه الله ناظرنا بالمدرسة الاوليــة بعد الشيخ عمر أحمد رحمه الله والــد الاســتاذ محمد عمر الذى هــو الآن •• (نحن الآن فى ســنة ١٩٣٦م) ••• رئيس عنبرنا ••• عنبر أولاد مدرســة بــربر ••••

أنا والاستاذان دوليب ومحمد خوجلى ، وكان تلميذا ببربر الوسطى ثــم بالكلية فى الدفعة التى بعدنا ••• ثم الاستاذ عبد الرحيم الامين رحمه الله ، توفى فى يونية سنة ١٩٦٨م ، وكان من زعماء السياســة ورجالات حــزب الامــة وكبار أدباء القطر ومفكريه • كان قبلنا فى الكلية فى الســنة الرابعة فى القسم العلمى اذ نحن بالسنة الاولى • زاملنــا فى المدارس العليــا هــو والاستاذ أبو القاســم محمد بدرى والدكتور أحمد الطيب رحمه الله ، كلا هذين لم نحضر زمانهما فى الكليــة ، تخرجا عــام دخلنا •

كان السيد اسمعيل الازهرى رحمه الله يدرس بالكلية القديمة الى ما بعد منتصــف سنة ١٩٤٥م ، وفارقها وتفرغ لعمل السياســة وأخذ المعــاش لما انتقلت الكلية الى وادى ســيدنا بعد خريف ذلك العــام فى مــا قيل لى • وكنت أنا وأحمد الطيب وسعد الدين فوزى رحمهما الله وجماعة آخــرون ،

كلنا نحـــو من خمســـة وعشرين بعثنا الى انجلترا فى شهر أغسطس من ذلك العام • فاتفقت لى مزاملة السيد اسمعيل الازهرى رحمه الله فى التـــدريس ذلك الزمن اليســـير • وكان من قبل قد درسنى الرياضيات فى السنة الرابعة بالكليـــة وذلك سنة ١٩٣٩م • وتذكر رحمه الله مزاملتى له مدرسا أخريات عام ١٩٦٧م فدعانى اذ دعا جماعـــة من زملائه المدرسين السابقين لحفـــل افطار فى شـــهر رمضان أقامه لتكريم المستر ســـكوت • وكان هذا قد جـــاء يزور السودان فى الشتاء كعادته بعد أن أخذ المعاش من حين الى حين •

وكان قد أســـن وقد جعل ينوبه بعض النسيان ، وقد كان من أسرع الناس بادرة وأحدهم ذهنا وأشـــدهم مراسا • كان الذين لقيتهم ممن زاملتهم فى التدريس ذلك المســـاء كانوا قد درسونى ، الا ما كان من أمر المستر سكوت فانه قد درسنى ولم أزامله • وقد كان له على التعليم فى السودان أثر كبير •

كان زميلنا الاستاذ الدكتور أحمد الطيب أحمد رحمه الله ، من قبـــل ، فى نفس عنبر أولاد مدرســـة بربر الذى صرت اليـــه الآن • وكـــانت ذكـــراه عطرة حية اذ كان قبيل آخر العام المنصرم قد نظم قصيدة هزلية ، على النهج الذى كانت تصـــــنعه مجلة المصـــور ، جعـــل مطلعها بيت ذى الاصـــــبع العدوانى :ـــ

يامن لقلب طويلِ البثّ محزونِ　　　　أمسَى تذكّرَ ريّا أمَّ هـــرونِ

ثم عرج بعد ذلك على فكاهات مما كان يدور بين الطلبة ، من ذلك مطالبته زين العابدين أفنـــدى ، وقد كان ضابط الغـــذاءات من بين ضباط الداخليات، بزيادة سكر الصباح بنصـــف قطعـــة ، وكان المقـــرر آنئذ قطعتين ونصفا ، وذلك قولـــه :ـــ

هلا أتيتَ بنصـــف الواحـــدَه يا زينى

ولم يســـتجب زين ، اذ هكذا وجدنا المقرر ، قطعتين ونصـــفا ، وغادرنا الكلية وهو كذلك ـــ قالوا وبلغ من صـــيت القصيدة وشهرتها أن حـــانوت الساعات والنظارات الكبير بالخرطوم أجاز أحمد عليها بســـاعة منبه •

فى العنبر بعد وصـــولى ، فى الطريق من محطة السكة الحديد الى العنبر ،

جعل الطلبة الذين سبقونا فى تجربة الكلية يعرفوننى شيئا اسمه التيرم Term • وقالوا ان هذا الشىء الذى اسمه التيرم Term متخصص فى انتزاع الأولية من أوائل اللجان وتخفيضهم فيكونون بشرا كسائر البشر • هذا هو الذى حدث لاول لجنة السنة الرابعة الذى هو ليس الآن من التلاميذ البارزين ، ولأول لجنة السنة الثالثة ، وحتى لأول لجنة السنة الثانية • وتحدثوا عن أمزجة الاساتذة المختلفين — وستعرفونهم عندما ترون الجدول يوم السبت • ولوجاءكم فلان فانه نعم مدرس الرياضيات • ولكن لو جاءكم فلان وفلان • وفلان يعجبه منظر الكراسة ويحب التلميذ الكباب • وما التلميذ الكباب ؟ الكبَّابْ هو الذى يذاكر • وهل المذاكرة شىء ردىء ؟ يظهر أن الطلبة يكرهون التلميذ الكباب ، ويعدون الكَب علامة غباء لا ذكاء • لن أكون تلميذا كبابا ••• ولكن ، قال لى ذلك أحد أولاد عنبرنا بتحذير واغاظة ، ولكن اذا لم تكن كبابا تسقط ، وهل كان يمكن أن تكون أول اللجنة بدون كبٍّ ؟ •••• نعم كنت أذاكر وأقرأ وأجد التشجيع من التلامذة ومن المدرسين • ما هذا التثبيط الجديد ؟

وبعد أيام فى ميدان النجيلة سألنى أثنان من السنة الرابعة هل أحب الشعر ؟ وتحمست وتحدثت عن أبى تمام :

رَمَى بك اللهُ برجَيْها فهدَّمها ولو رمى بك غيرُ الله لم تُجب

واستثقلانى جدا • وأنشد أحدهما شعرا مكسرا • وأشعرانى بأنى لاشىء وشعرت أنا بأنهما لاشىء • وعرفا ذلك لانهما كانا أوعى منى وكرهانى واختصرانى الى الابد •

وفلان من المدرسين — ضرورى يكون وضع لكم فى الجدول لانك ستكون فى السنة الاولى ألف

— هل السنة الاولى ألف هذه فى صف البناء الفخم الذى يتلقاك وأنت داخل من الباب الكبير ؟ هذا قبل أن أدخل • كنت أعرف شكل الكلية أزارنى

اياها الوالد رحمه الله سنة ١٩٣١م وخبرنى أننى سأقرأ فيها وسأحلق « كاريه » (١) وسأذهب الى أوربا ــ عرف ذلك من طريق الكشف • بعد القصيدة التى نظمها فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وأنشدها ليلة المولد تلاميذه وكان هو منسجما روحا مع ذلك الانشاد كل الانسجام حتى لقد كان يترنم معهم ، اتفق الفقراء كلهم على أنه رجل صالح • اجماع الفقراء أمر لا يستهان به ، لا يستهين به الا جاهل أو منكر خبيث •

ــ كل فصول السنة الاولى خارج البناء الرئيسى ياجونير Junior

ــ وما جونيرْ هذه ؟

ــ انت جونير ، جونير السنة الاولى ــ عَفِنْ •

ــ وأنت أيضا جونير ، أولى ثانية كلهم جناير ، وعلى الجناير كنس العنابر ، والطاعة والخشوع •

ــ زمانا مضى ، كان للرؤساء حق جلدِ الجناير •

ــ لماذا زمانا مضى ، الآن يمكن أن يجتمع الرؤساء ويحكمون عليك بالجلد ، فقط يجلدونك بالخيزرانة لا بالتيلة •

ــ على كل حال اذا نزل ترتيبك يا شافع (٢) ينقلونك للفصل «ب»

ــ وماله «ب»

ــ يمكن «جـ»

ــ يمكن ياخدوا منك ال Scholarship « أى المنحة »

ــ هل هو أخذ ال Scholarship الآن ؟ متين أخذها حتى يشيلوها منّه ؟

ــ ضرورى ياخدها ، (٣) ماهو أول اللجنة

ــ ماهى مسئلة أوليه ، هى مسئلة احتياج فى المكان الاول •

ــ انا فقير جدا • انا يتيم •

ــ أيوه ، خليك على كده •

---

(١) نوع من حلاق الشعر لم يكن معروفا وهو الشائع الان وكان الشعر يحلق كله
(٢) اى يا صغير (٣) ما زائدة

Term

ــ وأوعك تحتل (أى تصـير حثالة) فى التيرم
ــ يا الله يا جونير ، طلع السرير دا انت وهو فى الميدان •
ــ أما اســتهبال •
ــ يا الله ! ! تُسُّوهُ (هذا من الكلمة الانجليزيـة Toss وهى فعل معناه أن ترمى شيئـا فى الهـواء) •

أخذ الطلبة فكرة التس (مصدر مفتعل هكذا : تس يتس تسـا أى رمى فى الهواء) من كتاب انجليزى كان مقررا عليهم فى المطالعة اسمه :

Tom Browns' School days حتى لعبة الرَقْبى Rugby

حاولوا أن يأخذوها عنه ، ولكنها لم تجد فى ما بعـد نفس الشعبيـة التى وجدتها كرة القدم ــ كرة القدم لها فضـيلة السبق ، لأنها أدخلها كرومر نفسه ، وسجل ذلك أحمد شوقى فى بيته المشـهور :

أم من نداكَ على المدارسِ أنّها تَذَرُ العلومَ وتأخذُ الفُتْبُـولا

وتناولوا بطانية • ولزوا الولد الجديد عليها بفجاءة سرعة خاطفـة ، واذا هو فى الهواء • وعبثا حاول الاحتجاج أو الافلات • واذا هم يضـحكون بهستريا ، واذا هو تصيبه الهستريا مثلهم • ثم جاء دور آخر •• وثالث • وهكذا •

كان طابور الصباح أمرا جسـيما هائلا • كل الطلبة واقفون فى طابور رباعى الشكل فى الميدان الأوسط من الداخليات • وقفوا فى جلاليب الداخلية وبعضهم على رأسه بشكير جاء به من الحمام • ليس الحمام ههنا اجباريـا ولكن كل الطلبة يستحمون • وههنا حمام « الدش » ذروة المدنية •

فى حصة الانجليزى جاء ذكر الدُّش Shower • ومن أين جاءت كلمة « دش » ؟ ولم يبد المستر هانكس إزاء « الدش » نفس الاعجاب الذى عندنا وانما ذكره فى معرض الحديث عن الرياضة البدنية وأن الانسان بعدها يأخذ « دش ــ Shower » • هذا قاله بعد أن دار بنا فى ميادين الكلية وعلمنا

أشجار حواجزها وشجيرات أزهارها — لانتانا — دودنيه — أركويت — عملية تمدين لنا ما كان لها حقا عندنا من معنى • بل كانت حماستي أنا لحفظ :

خس — لتيوس Letuce

كرنب — كابَدج cabbage

فى الزمان السالف أشد وأحر •

وفى الفصل فهمنا المستر هانكس أن « الدش Shower » ليس بحمام Bath الحمام حوض يملؤه الانسان ماء ويستحم فيه • وعندنا فى انجلترا بعد أن تنتهى من الحمام تنظفه جيدا حتى يستطيع استعماله الشخص الآخر الذى يريده بعدك •

أن تملأ حوضا وتجلس فيه وتغسل نفسك بمائه من غير تجديد للماء عند كل عضو تغسله ، والأعالى قبل الأسافل ، والميامن قبل المياسر ، هذا لم نفهمه وقال بعضنا : الجماعة ديل وسخين ، قرف ، كيف تغسل جسمك بالماء الذى اختلط بالصابون وبقية وساخة جسمك ؟!•• ولكن هذا مدرس جديد جاء من الخارج ينتقد قواعد الغسل الاسلامية ويقول أن الصابون والماء الدافىء شىء نظيف جدا ؟ ولماذا أجدد الماء أو أتوضأ ؟ ولماذا لا يكفى هذا فى الغسل ؟ ولم يقع كلامه من نفوسنا موقع استحسان •

وكلام مستر هانكس كان معلومات مفيدة • وحديثه عن تنظيف الحمام بعد الفراغ منه كان شيئا نظريا بالنسبة الينا ، لان الدش ماؤه مستمر متجدد باسراف • ولم تكن الخرطوم آنئذ قد اكتظت بالسكان وأصابتها ما تصيب كبريات المدن فى افريقية السوداء الحديثة من ضائقات الماء والنور عرفنا فائدة كلام المستر هانكس بعد دهر ، لما صرنا طلبة فى أول بعثات ترسل الى انجلترا • وكنا فى بادىء الأمر فى حاجة الى التوجيه فى مثل هذه الامور ، فكنا نتذكر مثل هذا القول ، ويخبرنا بعض من سبقت له تجربة من

مواطنينا وكانوا قليلا • وكان من أجود ما أصبناه كتيب كان يصرفه مكتب البعثات المصرية للمبعوثين المصريين ، غاية فى الوضوح واليسر ، أصبنا نسخة منه فى النادى الملكى فى شارع شسترفيلد غاردنز ، جاء فيه مثلا أنه لا يستحسن منك أن تشعل السجارة لزوجة مضيفك ولكن تناولها الكبريتة أو الولاعة — لم تكن الولاعات كثيرة حينئذ — لتشعل هى سجارتها بنفسها هل توليع السجارة لزوجة المضيف نوع من التقبيل وسوء الادب ؟ درس مهم

وأصل « دش » فرنسى douche وكذلك عبارة « دش بارد » بمعنى التوبيخ أو الكسفة • والكسفة العربية عبارة جيدة اذ تدل على الاعراض وصرف حماسة المتحمس وتخييب أمله •

وأحسب أن أصل « دش » الفرنسية من قولنا « سحاب أجش » نعنى صوته وشبه الدش بماء المطر لا يخفى ، قال أبو تمام يدعو بالسقيا لبعض ربوع الاحباب •

أَسْقَى ربوعهم أَجشُّ هَزِيمُ وغدت عليهم نضرةٌ ونعيمُ

جمع « أجش » جُشٌّ بضم الجيم بعدها شين والجيم كثيرا ما تصير دالا ووقع الجيم العربية عند الفرنسية كأنه دال — ولكن هذا يجعل « الدش » كأنه شىء غير متمدن ، ويكون على هذا المستر هانكس قد أصاب ؟ !

حمام البئر الذى كان فى داخلية بربر أحب الى • لاننا فى الدامر وكسلا لم تكن عندنا غير الآبار • ثم ماء البئر حمام فى الشتاء لدفئه ، وبرود فى الصيف ثم يمكن من الطهارة ومن غسيل الصابون معا ، وليس فيه الاسراف الذى فى الدش • وقد أمرنا بالاقتصاد فى الوضوء من الماء الجارى مثل ماء الجدول الجارى من الساقية ، مثل ماء النيل نفسه • هل هو ابن النحاس النحوىّ الذى اختطفه التمساح عندما كان يتوضأ بأحد شواطىء النيل بمصر ؟

— لا ، مصر ما فيهاش تماسيح دلوقت •

— ولا السودان ، حتى ولا جوبا •

ـ ولا أوغنــدة

ـ مش معقـــول

اكتمل الطابور • كل داخلية يقف تلاميذها صــفين • ولكل منها موضــع معروف، ويكون كل تلاميذ عنبر مع رئيسهم ، ويكون كل رئيس داخلية أمام صفيه يستقبلهم يسويهم ويتأكد من حضورهم وغيابهم ، ثم يستديرهم كما يفعل امام الصلاة ليواجه بقية الرؤساء • كانت الداخليات ستا • ثنتان منها غرب الميدان الاوسط فى البناء الذى كان الى حين قريب هو ادارة جامعــة الخرطوم ، موقعه جنوب شارع الجامعة • كان شارع الجامعة يسمى شارع غردون Gordon Avenue وكان فيه على بعد ميل غربا تمثال غردون باشا على بعيره لابسا طربوشا • وأربع منها معا شرق الميدان الاوسط فى البناء الذى كان الى حين قريب كلية القانون موقعه جنوب شارع الجامعة بازاء بابها الرئيسى ومبناهــا الرئيسى • الداخليتان الغربيتان همــا مفى وكرى • مفى ، سيرجون مفى ؛ كان حاكم السودان العام السابق لستيوارت سيمز وهذا كان حاكمه العام أيام دخلنا الكلية • وكرى ــ سيرجيمز كــرى كان أول مدير للمعارف السودانية فى زمان اللورد كتشـــنر وتولى ، كما قد تقدم ذكره ، تأسيس الكلية وغيرهــا من معاهــد التعليم الجديــد الاولى • والداخليات الشرقية الاربع هى فى الطابق الاعلى شرقا « استاك » • ، مسماة على السير لى استاك الذى قتل أيام المظاهرات سنة ١٩٢٤م وغربا «كتشنر» وهو مؤسس الحكم الثنائى وأول ولاته • وفى الطابق الاسفل تحت داخلية استاك داخلية آرشر « جوفرى آرشر » وكان الحاكم العام قبل استاك ،قالوا وكان رجلا فيه خير ، وتحت داخلية كتشـــنر داخلية « ونقت » « ونجت » الجنرال رجنلد ونقت وهو الذى خلف كتشنر وطالت مدة ولايته ، وعاش بعد تقاعده عمرا أطول من مدة خدمته وتوفى منذ زمان قريب •هذا البناء الذى كان كلية القانون وكانت فيه الداخليات الاربع التى ذكرنا ، استخدم فى أغراض مختلفة مثلا كان أول أمره فيه الكلية نفسها اذ كانت مبانيها الرئيسية فى طور

الانشاءوكان هو يراد ليكون مدرسة الخرطوم الابتدائية (الوسطى) ثم كان مدرسة الخرطوم الابتدائية، ثم مركز ادارةمصلحةالمعارف طوال أيام الحرب الثانية • وكانت فيه مدرسة التجارة الثانوية الصغرى حينا من الدهر ، كان ناظرها الاستاذ محمد عثمان أفندى مرغنى شكاك رحمه الله — كان يدرسنا الاقتصاد ودرسنا بعض دروس الانجليزية لما كنا طلبة كلية غردون وكان زميلاى معه الاستاذان هاشم افندى ضيف الله ومحمد أفندى عبد الله المغربى ، وكنت ضابط الداخلية وكانت فى الموضع الذى فيه الآن داخلية بحر الغزال من جامعة الخرطوم •

وكان أكثر أولاد الغرب فى داخلية مَفِى • وكانت داخليتا كتشنر وكرى فى اغلبيتهما من العاصمة • وأغلب أولاد استاك من بورتسودان وشرق السودان وكثيرا ما كان من هؤلاء أولاد من بربر والدامر وأتبرا وشندى وسائر الشمال • وكان أولاد كتشنر بالذات يشعرون بروح تعال ومدنية بالنسبة للوافدين من الاقاليم • وكان بين داخليتى ونجت وآرشر نوع من التنافر الخفى • وذلك أن كلتا الداخلتين كان معظم طلبتها من بيئة ريفية ذات بداوة كان أولاد « ونجت » يعترفون بهذا وينظرون الى مستقبل الوظيفة بجد وصرامة وكانوا « كبابين » فى نظر سائر التلاميذ وكان أولاد آرشر لا يعترفون لانفسهم ببداوة ، ولكن يرون أنهم متحضرون مثل أبناء العاصمة وكأنهم كانوا يجنحون الى لون من تحدى حضارة العاصمة باظهار طابع حضارى لانفسهم خاص بهم ، أشبه شىء — والقياس مع الفارق — بنوع الاصالة الفلكلورية الذى نحاوله ونتبناه نحن الان حينما ندخل فى مجال ابراز شخصيتنا القومية بالنسبة للامم المتحضرة ذات المسرح ، والمبانى الاثرية والموسيقا المكتوبة الكبيرة الالات وهلم جرا وكان بعضهم ربما بالغ فى هذا الباب فجاء بدهن الكركار وتمسح به فى العنبر يؤكد بذلك أصالته

---

(١) اسم Wingate جيمه كالكاف ، كما تنطق القاف فى دارجيتنا ودارجة كثير من العرب وكالقاف فى اليمن ولكن كنا ننطق اسم الداخلية بالجيم خالصة الجيمية متاثرين بطريقة التعريب فى كتابتها شكلا •

القومية الاقليمية • دهن الكَرَكار يصنع من شحم الغنم يجعلونه ودكا بغليه ويلين ثم يعالجونه بأصناف العطـور كالمحلب والصـندل وظفر الحـوت والعطور الزيتية ويصير معجونى الشكل ضاربا للصـفرة شـبيها بالفزلين شديد الرائحة ، يستعمل عادة فى الختان والاعراس • وهـو شـىء قـديم فى بلادنا • ولاأشك على وجه الترجيح ـ أن الدهن المذكور فى كتب السـير لنساء النجاشى انما كان هذا الكركار • يذكرون أن عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد وكان جميلا سفيها ، اصطحبا معا فى الطريق الى الحبشة وركبـا البحر وكانت مع عمرو زوجته • وفى البحر أصـابا خمرا فانتشى عمـارة وقال لزوجـة عمرو بن العاص قبلينى ، فامتعضـت ، فقال لها عمـرو ابن العاص بدهائه المعروف قبلى ابن عمك • ثم ان عمـارة عربد ورمى عَمْـرًا فى البحر غدرا يظن أنه لا يعرف السباحة ، وسبح عمرو الى السفينة ، وقال له عمارة بكل جهل وغباء ما كنت أظن أنك تسـبح • ثم لما صـار بـأرض النجاشى جعل عمارة يفتخر بأنه وجد حظوة من احـدى نساء النجـاشى ، فادعى عمرو أنه لا يصدقه ، وانما أراد عمرو أن يتأكد من صـدقه ليوقـع به عند النجاشى •فما كان من عمارة الا أن أحضر من دهن النجاشى المخصوص (الكركار فى ما نرجح) يجعل ذلك دليلا على صـدقه • فاحتال عمرو حتى عرف أمر ذلك من أبلغ النجاشى ، فأمر بعمارة فنفخت السواحر فى إحليله ، واختل عقله ، وهـام فى الفلوات حتى مات بأرض الحبشـة التى هى بلادنا (فى ما نرجح) من ناحيـة نهر أتبرة وكسـلا ـ هكذا يبـدو لى من نعت المواضـع التى كان يرد فيها الوحش فى ما زعموا • عمارة بن الوليد هذا هو الذى أرادت أن تدفعه قريش لابى طالب ليتبناه ويدفـع اليهم ابن أخيـه محمدا ليقتلوه فتـأمل •

فنعـود الى حـديث الداخليـات :

جاء رئيس الرؤسـاء Head Prefect بعد أن اصـطف الطابور الصباحى يلبس جلابية من سكروتة أو بوبلين أو تيل هزاز ، شىء متمـدن جدا ، وفوق رأسـه طاقية حرير حمراء وفى رجليه شبشب جلد نمـر ، كأنما

أنظر اليه الان ، وهل كان فى يديه شىء ؟ ويمشى بخيلاء • كل الرؤساء ــ رؤساء الداخليات ــ يمشون بخيلاء ، مثل مشية نظار القبائل والعمد فى احتفال ١٧ يناير الذى كان يقام فى عواصم المديريات انخليد أو تجديد ذكرى زيارة جلالة امبراطور الهند وملك بريطانيا الملك جورج لميناء بورسودان سنة ١٩١٢ فى طريقه الى الهند • كان يقام فيه سباق الموانع والجوالات وسباق الجمال والخيل وسباق ركوب الحمير بالمقلوب وجر الحبل ومائة ياردة ، ويشترك بعض التلاميذ فيه بأشياء تناسب أعمارهم • كنا أطفالا نحب احتفال ١٧ يناير وأحسب أن نهايته كانت سنة ١٩٣٦ اذ مات فيها جورج الخامس •

لم يكن طابور الصباح يحضره المشرفون من أولاد البلد والانجليز • وجعل المستر براون يحضر أحيانا فى ما بعد ، أحيانا كثيرة • وجعل غيره ــ انت وهو هناك ، ياولد يا صغير ــ بلش الكلام ــ قرضمه ــ أسكت يا شافع ــ تمام ؟ ••• تمام • تمام ؟ ••• تمام ••• تمام ــ السائل رئيس الرؤساء ويجيبونه رؤساء المداخليات واحدا واحدا •

كانت أكواب الشاى هنا مثلها فى داخلية المدرسة الوسطى • هذه قاعة الطعام • «سفرة الكلية» • شىء كبير • سكرتان ونصف • كل أثنين يشتركان فى خمس قطع • فى الغالب عندما تصل تجد قطعتين والنصف الاصغر • بسرعة البرق تتكسر القطع قبل وصولك • هل كان مع الشاى عيش (خبز) ؟ أذكر أحدهم يأكل قطعة رغيف مع الشاى ويقول آخر : (حتة) أى قطعة من فضلك كانت الضجة كبيرة فى السفرة • وقعد أكثر أولاد داخليتنا ولكن كان يوجد أناس غير قاعدين ، واقفين وأرجلهم على المقعد وفى أيديهم الاكواب • كان الشاى فى براريد من الطلس ــ المعدن المغشى بطلاء ، واللبن فى أباريق (جُكوك) بيض وعليه قشرة رقيقة وهو محروق نوعا ما • وبعد الشاى الجمباز الا فى يوم الاحد فان الفطور والشاى كانا معا وكانت الدروس فيه تنتهى فى الساعة الحادية بعد الزوال • كان ذلك يراعى فيه المدرسون الانجليز الذين كانوا يذهبون الى الكنيسة يوم الأحد

وأحسب أن ذلك كانوا ملزمين به ، بغض النظر عن مسئلة التديّن أو عـدمه وكان الطلبة المسيحيون يذهبون الى الكنيسة عن تدين أو عن روح محـاولة انتماء الى الإطار الحاكم • الله تعالى أعلم أى ذلك كان • كان يوم الجمعـة هو العطلة الرسمية • من هذه الجهـة كان سـودانا هو المصرى الانجليزى لا الانجليزى المصرى ، كما كان مكتوبا على الخريطة الكبيرة وعلى الخـرط الصـغيرة التى صرفوا لكل منا منها واحدة ودرسونا منها فى الكتاب •

كان الجمباز فى المدرسة الوسطى خفيف الظل أكثر الاحيـان • ربما عـن فيه الكف والسوط وفى الكتاب كذلك • كنت أكرهه على كل حال وفى كل مرحلة غير أنه هنا فى كلية غردون كثيف الظل ، كتوم الانفاس ، غالبـة عليه ارادة التذليل والضغط البحت • وكـان مشرف الداخلية الانجليزى يجىء ومعـه كلبه وهو لابس « شورت » أعنى المشرف — والشورت سراويل من الكاكى مفصلة تفصـيل البنطلون مع انتصاع شيئا ما وتتصـل الى الركبـة ويلبس معها المفتش الانجليزى شرابات (جوارب) طويلة تخينة تنتهى تحت الركبة باستدارة لفة منتظمة ربما كان عليها زينة • وفى وقت الجمباز يلبسون حذاء الجمباز القماش • وكانوا لا يلبسون الشورت فى التدريس ولكن البنطـلون ثم جعلوا من بعد يلبسون الشورت مع نوع من هندام منتظم وربما لبسوا معه الكرفتة وكثر استعمال الشورت فى لباس المكاتب فترة الحرب وزمانـا بعدها لغلاء الاقمشـة مع استشـعار روح التشمير والجد التى أشـاعها الحكام فى الناس • ثم جعل يختفى شيئا فشيئا لان الجيل الذين لبسوه قـد كبروا وبدّنَت أجسـامهم • وقـال بعض الناس أن مما يدل على انقضـاء الاسـتعمار مرة واحـدة انتهاء « الشـورت » • وغاب عنه المسـكين أن الاستعمار معنا فى صوره المختلفة • نحن أنفسنا نحمل طابـع ازدواجيـة منه • والذى نأمله مخلصـين أن يتغلب عنصر الاصالة منا على العناصر غير الاصـيلة • ولن تكون النتيجة هى حياة آبائنا • ستكون خلطا ما • وبعض الخلط مما يصـلح به المعادن • حتى الذهب العزيز أن لم يخلط بمعدن آخر

كان لينا لا يطيع عمل الصائغ . أفضل بلا ريب ، الذهب الحر الذى منه كساء توت عنخ آمون ، وكانت تصنع منه الصيغة : المُطَرّق والسّعفَة والمثَمّنْ ، ولكن (ولابد مما ليس منه بد) من الخطأ أن نظن أن « موضة » الصيغة الجديدة ، أجود من صيغة مطارق جيل أمهاتنا ، لكنها أقوى ، لم توجد الان البنوك ، ولا حاجة لادخار الذهب ... هكذا يقولون ، وهم اشد الناس له ادخارا فتأمل .

******* ******

كانت مبانى السنة الأولى فصولا خمسة خارج البناء الرئيسى . كان أمامها أشجار وشجيرات مختلفات . وراء ذلك ليمونات ظليلات ، يجلس تحت احداهن شيخ قالوا كان أبوه يملك أرض ذلك الجرف قبل أن تستولى عليه الحكومة . وزعموا أنه كان يبيع السجاير للتلاميذ الذين يدخنون السجاير . ما دخنت السجاير الا فى أخريات السنة الاولى بالمدارس العليا . ثم تركته تركا من بعد بحمد الله . كانت السجاير ممنوعة فى الكلية ، وسمحوا لنا أن ندخل بها فى فصول الامتحان فى المدارس العليا . وكان ذلك خطئا . وقد قلت عادة التدخين الان بعد أن وضح خطره لرجال الطب واجتهدوا فى التحذير من غبه . غير أن كثيرا من شباب العالم الثالث عن ذلك معرضون . انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء .

كان شرق البناء الرئيسى صهريج أو شىء كالصهريج فى المكان الذى فيه الآن مبانى كلية العلوم من جامعة الخرطوم . وكانت تخرج من حوالى ذلك المستودع غازات كريهة أشبه شىء برائحة ما يقال له كاربون دايسلفايد (مزيج احترافى من الكبريت وأصل الفحم بنسبة مضاعفة ما) . أحسب أن غاز المعامل كان يعد فى ذلك المكان ، اذ كانت بالطابق الأسفل من جناح البناء الرئيسى الواقع غربه معامل الكلية التى كانت تدرس فيها علوم الطبيعيات والحيوان (١) والكيمياء، وبالطابق الاعلى معامل الابحاث الكبيرة التابعة للحكومة رأسا ـ كان مكتوبا على أحد أبوابها ونحن نستكشف مبانى الكلية **Entomologist** أو Entomolist فنظَرنا

(١) الجيوان اى الحياة اصلها الحيان كالغيلان والدوران .

ذلك فى القاموس فاذا هو علم الحشرات كالجراد مثلا ـ وقرأت من بعد رسالة عن العقرب وعن العنكبوت لكى أكون ذا نوع من الانتماء الى حيز التخصص العلمى فعرفت أن العقرب ، وأنا أعلم أنها حشرة ، ليست بحشرة صحيحة ولا كذلك العنكبوت ، لخروجهما كليهما عما عرف به الحشرة الذين يقال لهم العلماء : «وما أُوتيتم من العلمِ إلا قليلاً» .

هذا وقالوا حاول بعض الفرنسيين أن يصنع جوارب لطيفة من حرير ناعم جدا يستخرجه من نسج العنكبوت . فبعد أن هيأه وسر به اذا به من لمسة يرجع بصاق عنكبوت لا جدوى فيه . وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت ، صدق الله العظيم .

كان مكتوبا بالقرب من الصهريج المامل على لافتة Out of Bounds أى غير مسموح المرور به ، وكان ما حوله كأنه برية مهملة لتشابك أغصان شجيراتها واغبرار ألوانها وكثرة السحليات (العظاء) بها ، ولعل بها كانت توجد الثعابين .

كانت « ورشة » النجارة بالقرب من فصول السنة الاولى الخمسة ، وباء وجيم ودال وهاء . فى زماننا كانت ثلاثة فقط لاننا كنا أصغر دفعة قبلت ، كذا وسبعين تلميذا وبعدنا أخذت الاعداد ترتفع الى يومنا هذا . كانت بين دروس السنة الاولى حصة للنجارة ، وخوفنى منها تلاميذ عنبرى . وتدريس العمل اليدوى يحتاج الى صبر . وأذكر حرص نفسى على صنع مقلمة وأن أتقن ذلك . لم أكن أكره عمل اليد ، كنت ، ولا أزال ، أحبه وارتاح اليه وأقبل عليه ما وجدت الى ذلك سبيلا . تعلمت نسيج العنقريب البلدى وأنا تلميذ بالمدرسة الوسطى ، وهو ذو الخطوط المستقيمة والثقوب الكبيرة طولا وعرضا . ثم عرفت النسج « الدنقلاوى » وهو الذى يميل فى شق واتجاهه واحد وثقوبه أقل . ثم عرفت « السجادة » وهو النسج ذو الزخارف . وظللت لا ينسج عناقريب البيت أحد غيرى ، وربما فتلت الحبل الدقيق الجيد . ورأيت عمل الحلقة ونجر أرجل العنقريب

المخرطة بالقدوم • وكان « البَصِير » (١) الذى حول أغصان السنط الخشنة الى أشكال هندسية محكمة ملس ، ذا زراية شديدة بنجارى الغارة الذين لا يقدرون على غير الخشب المستورد الناعم ••• خشب النصارى « أى المستعمرين » • كان مدرس النجارة ، يا للاسف ، ضيق الصدر ، وسريعا الى اتهام التلميذ بأنه يحتقر النجارة ولا يظنها مهمة ، فيعطيه صفرا من خمسين ليعرف أهميتها أو أهمية مدرسها • وكرهته ولم أكره النجارة ولم أستطع أن أتعلم منه شيئا مع شدة حرصى • نعم كدت أتعلم شيئا ولكن بعد فوات الاوان وكان اذا اهتم وصبر فربما أفاد • مرة واحدة أظهر نوع اهتمام بارشادى — وكان ذلك فى أخريات العام • وكانت النجارة لا تلاحقنا الى السنة الثانية ، وكنت قد جعلت أراقب يوم أقول لها بعد أن اتضح لى انى قادر على الحفاظ على فصلى وعلى المنحة Scholarship مع أصفارها المتواليات :

عَدَسٌ مالعبَّادٍ عليكِ إمارةٌ   نَجَوْتَ وهذا تحملين طليقُ

كان مدرس الرسم أحصف منه وأصبر وتنبه أن عندي مبادىء ملكة وكان يعطينى درجة كبيرة ، لان مستوى الرسم فى فصلنا كان غير جيد فكان مستواى كأنه حسن • لم أستطع أن أفهم عنه نظرية الظلال والضوء أو أطبقها ، انما كنت أجتهد ذلك اجتهادا بينى وبين نفسى — وفهمت طرفا منه بأخرة من زوجتى • وكانت « القلة » الحمراء التى رأيناها فى المدرسة الوسطى كأنما جىء بها هى نفسها الى فصل التجهيزى • وقد اختفت القُلَّات الآن وحل محلها الحديد ذو البأس الشديد يخرج من ثلاجاته الماء البارد العتيد • ومن حسن حظ الاجيال الناشئة الجديدة أنه لا يجاء به الى داخل غرفة الفصل ليرسم •

هذا ، وكان بالقرب من ورشة النجارة فى نواحى المكان الذى به الان أقسام النبات وحجرة اجتماعات مجلس كلية العلوم بجامعة الخرطوم ميدان مستدير أنيق العشب ، يحيط به حاجز من نبات « اللبخ الفايكوس »

---

(١) البصير فى عاميتنا معناها صاحب الخبرة والمهارة من صانع وطبيب وما اشبه •

ومكتوب عليه Out of Bounds أى غير مسموح المرور فيه • ومن يتعـد الحدود فقد ظلم • قالوا لنا لان المدفونين فيه جماعة من الجيش البريطانى الذين ضربوهم تلاميـذ المدرســة الحربية وعبد الفضيل المـاظ سـنة ١٩٢٤م • كانت سنة ١٩٢٤ من معالم الوطنية • وقبلها عبد القـادر ود حبوبة سنة ١٩٠٨م • قالوا كان تلاميذ المدرســة الحربية فى استباليـة النهـر (الان وزارة الصـحة) ومن هنــاك ضربوا الجيش الانجليـزى • وعبد الفضيل الماظ دخل فى ماســورة (أنبوبة حديد) وضربــوه وقتلوه فى الماســورة • حرقوه داخل الماســورة • ياللأســف •

هذا فصلنا ، السنة الاولى « ألف » فى الشرق والشمال ، بابه متجــه الى الشــمال ، الى النيل ـ لا ـ كان متجها الى الغرب فى شبه دهليز وكــانت الشبابيك فى الشمال • هؤلاء دفعتنا الجديدة • وهذا حســن عبد الرحيـم ثانى اللجنة • كنا أنا وحسن على خير ما نكــون علاقــة بين الزملاء طوال سنوات الكلية الاربع • وفى المدارس العليا التحق بقســم القضاة المدنيين • ثم فرق الدهر بيننا بعد أن فارقنا المدارس العليا • ولقيته حفظه الله ســنة ١٩٦٠ بالفاشر ونزلت مع زوجتى فى منزله الرحب ذى السخاء • وتذكرت ، تذكــرنا معا ، عهد الدرس • كان يجيد العلوم الانسانيــة واللغات • وصار رئيس الجمعية الادبية فى الســنة الرابعــة وكنت أنا ســكرتيرها ، وعجب بعضهم لم لم أجعل رئيسها ـ وأذكر أننى كنت ســعيدا جدا بالسكرتارية وكان الوئام بينى وبين حسن كأحسن ما يكــون الوئام • وكــان حســن ، حفظــه اللــه ، دمث الجانب ، لطيف الخـــلال •

وهذا •••• فى الفضاء بين الحصــتين ـ (أو هل كان ذلك عصرا) ـ جاء أحد التلاميذ وأظهر فرحة بلقائى عمت كل أسارير وجهه وعرفته • أنا وهو دخلنا المدرســة الاولية فى يوم واحد فى ســنة ١٩٢٩م فى كســلا • كــان لى صــديقا حميما وكان أبوه صديقا لوالدى رحمهما الله ، وكنا جيرانــا ، وأهله ، وتشاهدنا منذ ذلك الزمان • فقط الآن جاءت بنا تصــيفية الغربــال

التعليمى الكبير تصطخب مرة أخرى فى المضمـــار ــ يا ســـلام عليك ، جيت الأول ــ ازيك يا محمد الحسن • قبل أربع ســنوات حيانى أخوان أثنـــان معا بالمعرفة عندما دخلنا ابتدائى بربر • كانا معنا فى كســـلا • محمد سعيد ناصر وأحمد سعيد ناصر • وقد آثر محمد ترك التعليم الاوسط للعمل الحر واســـتمر أحمد معنا من بربر الى الخرطـــوم ثم التقينا مرة أخرى فى زمالة التعليم فى المدرسة الاهلية بامدرمان • وبين القلوب الوداد القديم •

علمت منذ حين قريب أنه توفى فحزنت لذلك حزنا • لوبقى أمرؤ لذكـــاء قلب وأريحية نفس وقوة جســـد ، لكان أحمد ناصر قمينا بالخلود •••. . . أوتى من كل خير بسطة الا الأجل ، ولكل أجل كتـــاب • رحمـــه الله الرحمة الواســـعة • وصـــدق الشاعـــر اذ قـــال :

النَاسُ للموتِ كخيلِ الطِّرادْ والسّابقْ السابق منها الجَوادْ
والموت نقّـــاد على كفـّـــهِ جواهر يختار منها الجيـــادْ

هذا أستاذنا الشيخ الأمين أحمد ابراهيم رحمـــه الله • كـــان يلقى الشـــعر والنثر بتفخيم ونبر واضح واشباع للحركات فى أواخر الأبيات وفى مواضع السجع والازدواج • مع جرس وقف نغم شديد • كان رحمه الله جادا لا يهزل كان قد عاصر الوالد رحمه الله فى كلية غردون فكان يذكر من عهـــده • أملانا احدى المحفوظـــات : قال حارثة بن بدر الغدانى يرثى زياد بن أبيـــه :

صلّى الالهُ على قبرٍ وطهّره عندَ الثّويةِ يَسْفِى فوقَهُ المُورُ
زَفّت اليه قريشٌ نعشَ سيدها فثمّ كلُّ التُقَى والبِرِّ مقبورُ
أبا المغيرة والدنيـــا مُفَجِّعـــةٌ وإنَّ من غرَّت الدنيا لَمغْرورُ
قد كان عِندكَ للمعروفِ معرفةٌ وكان عندكَ للنكـــراءِ تنكـــير
وكنت تُغْشَى وتُعطِى المالَ عن سعةٍ ان كان بيتُكَ أضْحَى وهو مهجور
النَّاسُ بَعْدكَ قد خفّت حُلُومهمو كأنَما نفخَتْ فيهـــا الاعاصـــير
لو خَلَّدَ الخِيرُ والاسلامُ من أحَدٍ إذَنْ خلـــدكَ الاســـلامُ والخِيرُ

(الخِير بكسر الخاء واشباعها مرت بنا من قبل فى قصيدة أخذناها فى السنة

الثالثة كتاب) :

تَرى الرجُلَ النَّحيفَ فَتزدرِيه ... وفى أثوابه أَسَدٌ مزِير

ويُعجبُكَ الطَّرِيرُ فتبتَليه ... فيخلفُ ظَنَّكَ الرجلُ الطرير

ضِعافُ الطَّيرِ أعظَمُها جُسُوماً ... ولم تَطُل البُزَاةُ ولا الصُّقور

بُغَاثُ الطيرِ أكثرها فِراخاً ... وأم الصَّقرِ مِقْلاتٌ نَزُور

المقلات التى لا يعيش ولدها .

لقد عَظُمَ البعيرُ بغَيْرِ لُبٍّ ... فلم يَستَغْنِ بالعِظَمِ البعير

يُصَرِّفه الصغير بكل وَجْهٍ ... ويَحْبِسُه على الخَسْفِ الجرير

الجرير هو الحبل .

وتَضرِبُهُ الوليدةُ بالهَراوَى ... فلا غِيَرٌ لديه ولا نَكِير

الهراوَى بالفتح جمع هِراوة بكسر الهاء وهى العصا

فما عِظَمُ الرِجَال لهم بفخرٍ ... ولكن فخرهم كَرَمٌ وخير

ههنا موضع الاستشهاد كما ترى وأحسب أن هذه الابيات مما اختير فى كتاب (أدبيات اللغة العربية) .

اقرأ ياصغير . وقرأ الصغير . أحسنت . ولماذا قال زَفَّتْ اليه قريش نعش سيدها ؟ ــ لانه كان واليا على البصرة (وكنا قد درسنا البتراء فى محفوظات النثر) ــ نعم يا صغير ، ولكنه قال « نَعشَ سيِّدِها » أى سيد قريش ، لأن معاوية بن أبى سفيان ، رضى الله عنه ، ألحقه بنسب أبيه ، فقيل له زياد ابن أبى سفيان . فقال الشاعر ينكرُ ذلك على معاوية :

ألا بلغ معاوية بن حرب ... مُغَلْغَلَةً من الرجلِ اليمانى

أتكرَهُ أن يقال أبوكَ عَفٌّ ... وترضى أن يقال أبوك زانى

اقرأ ياصغير .

وأَشْهَدُ أن رِحْمَك من زيادٍ ... كرِحِمِ الفِيل من ولد الأَتان

لم يشرح لنا هذا البيت لظهور معناه اذ لا قرابة بين الفيل وولد الاتان وهو الحمار . وقد كان الفيل من عتاد الحرب الرهيب . والحمار من رموز الذلة

والضـــــعة .

ولايقيــمُ على ذلٍّ يرادُ بـــهِ إلا الأذلّان عَيْرُ الحيِّ والوتد

وزعم أحد أســاتذتنا الفكهين فيما بعد أن الحمار قال للفيــل بينى وبينــك قرابة ورَحِمٌ ماسّة فعجب الفيل من مقالته وسأله : ما هِيَه ؟

فقال له الحمار : غُرْمُولِي يُشبــهُ خُرطــومَكَ .

ولا يستبعد أن يكون يزيد بن مفرّغ الحميرى ، صــاحب هذه الأبيات ، أراد هذا المعنى اذ قد كان هجاءً خبيث الهجاء من شياطين الشــعراء .

وقد قال فى عبّاد بن زياد وكان عظيم اللحية :

ألا ليت اللّحى كانت حشيشا فنعلِفها خيــول المســلمينا

ومن خبيث ما قاله فى زيــاد :

وأشـــهد أن أمك لــم تباشِرْ أبا سفيانَ واضعةَ القِناع

ولكن كان أمــرٌ فيــه لبس على خَوفٍ شديدٍ وارتياع

وكأنما قد صُب سوط عذاب من لسان يزيد بن مفرّغ على آل زياد فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد والله عزيز ذو انتقام .

ويزيد بن مفرّغ صاحب الأبيات المشهورة فى بيعه غــلامه برداً وجــاريته الأراكــة التـــى منهـا قولــــه :

سبحان من قَسَـمَ الحظــوظَ فـــلا عتــابَ ولا مــلامة

أعمــى وأعشــــى ثــمَّ ذو بَصرٍ وزرقــاء اليمــامة

وزعموا أنه وقع فيها الخَرمْ فى عروض الكامل عند قوله :

وشَرَيْــت بُــرْداً ليتنــى من بَعْدِ بُردٍ صرتُ هــامه

هــامــةً تــدعــو صَــدَى بين المشــقَّر واليمــــامه

وليس الكامل مما يدخله الخَرْم ولكن يدخل الطويل فيصــير شطره كأنه من الكامل مثــل قول أبى الطيــب :

لا يَحْزُن اللـــه الامـــيرَ فاننى   سآخذُ من حالاتـــه بنصـــيب

وزعم بعضــــهم أن يزيد قـــال :

أو بومـــة تدعـــو صـــــدىً   بين المشـــــقر واليمـــامة

ووقع هذا فى بعض نصوص الأغانى وهو ضعيف لا يشبه شدة الأمـــر التى هى من طابـــع أســـلوب يزيد •

والشعر العربى كله مبنى على الترنم كما ذكر صاحب الكتاب وهـــو تلميـــذ الخليل • وكان يزيد بن مفرغ قد ترنم فقـــال :

•••• مــن بَعْــدِ بُـــرْدٍ صِــرْتَ هـــا ••••

ثم استمر مترنما بعد سكتة يسيرة ••• مَهْ •• هامة •• تدعو صدىً الخ •• وعليه فلا خرم ولا أمت ولا عِوَج فى البيت •

وقد زعم المعرى على لسان امرىء القيس أن العرب كانت تمر فى البيـــت حتى تأتى الى آخره قال : « فاذا فنِىَ وقاربَ تبيّن أمره للسامع » فهذا يقوِى ما ذهبنا اليه آنفا ويصححـــه إن شـــاء الله تعـــالى •

هذا ويعجبنى من شعر يزيد أبيات له رائية يذكر فيها بعض أهوال حروب الفتوح أيام بنى أميـــة الأولى :

كم بالجُرُوم وأرض الهند من قدم   ومن جماجم قَتلى ليتـــهم قُبِـــروا

ومن سرابيلِ أبطـــال مضرّجـــةٍ   صاروا الى الموت لا خاموا ولا ذعروا

بقَنْدَهـــار ومـــن تُكتب منيتـــُــه   بقنـــدهار يُـــرَجّمْ دونه الخبر

وهذا من عميق فطانة الشعر وحَدْسِـــه ونفاذه الى نوع من الكشف والنبوءَة اقرأ ياصـــغير ••• كأنما نفخت فيها الأعاصـــير

••••••• •••••

لو خلد الخِيرُ والاســـلام من أحدٍ اذن لخلدك الاســـلام والخير

اقرأ ياصـــغير • ما اسمك ؟ طاها عثمان بليه (هذا الدكتور طه بليه قضـــى نحبه فى سن أوج الشباب وكان لى صديقا رحمه الله)

ـ يا بابَكْر مصطفى الطاهر (يعنى صديقنا الدكتور محمد الحسن أبو بكـــر

حفظه الله) ـ اقرأ ياعجباني (يعني الاخ المفضال والمهندس القدير والوزير سابقا أحمد الامين حميدة ، ينسبه الى اسم الأسرة بأمدرمان) ..
ـ اقرأ ياصفي ، اقرأ يا طيب .

واستمر اسم المدرسة الطيب معي حتى اقتصرت عليه مع الاسم الأول عبد الله هكذا ـ عبد الله الطيب ، وحتى اقتصر عليه كل معارفي . ولما أخرجت كتابي المرشد إلى فهم اشعار العرب وصناعتها ، اقترح على الناشر السيد عبد القوى الحلبي رحمه الله أن أذكر اسم الجد الاكبر (المجذوب) تبركا بالمجموعة المجذوبية التي كانت طبعتها دار مصطفى البابي الحلبي ومنها ـ كما تقدم كان أول تعلمي القراءة ـ فقبلت اقتراحه فصدر الكتاب وعليه تأليف عبد الله الطيب المجذوب ، فأحدث ذلك نوع التباس بالنسبة الى اثبات اسمي في القوائم والفهارس التي تقع فيها الاشارة الى المرشد وبعض التعليقات كتعليق الاستاذ بلاشير في مجلة أرابيكا .

وفي اسم المجذوب بركة لا تخفى وهو في تسجيل أطيان أجدادنا الفقيه الطيب بن محمد بن أحمد بن محمد المجذوب (جد الوالد) والفقيه محمد ابن أحمد هو المعروف بالتسعة في الجزيرة المحمدابيه والجد الاكبر محمد المجذوب بن على أب دامع ابن حمد ضمين الدامر ود عبد الله راجل دُرُّو ، وهو مرن أب سلم ـ صحراء لا حصر لها لو أمكن سقيها لا غنت بعض عالم الثالث .

ورحم الله ولي الله الصالح القطب المهيوب ، الفتّح الدروب ، جليس النبي المحبوب،سيدي واستاذي ووسيلتي الى الله تعالى سيدي الشيخ محمد المجذوب ... هكذا يقول حيران الشيخ الجعلي رضي الله عنه في ختام أذكارهم ، لا يعنون جدنا الاكبر ، ولكن الشيخ المجذوب بن قمر الدين ، صاحب الديوان العجيب الذي هو درة المجموعة المجذوبية ومنه استفدت واستفاد خلق كثيرون حبّ العربية والشعر وحب رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، الذى حبه سر الايمـــان • ولم يكن للشـــيخ المجذوب ولد ولكن بنت مباركـــة اسمها عائشـــة ولذلك يقول الناس حين يعتملون ويجرون المركب :

ســـيد ســيِّوده ••• ياب عاشـــة قـــودا

وأذكر خبر وفاة ابنها الامين ود عاشة رحمه الله ورضى عنه وأبوه أبوبكر الـــذى ذكـــره الشـــيخ فى شـــعره :

أبابكر هـــم مـــع صـــالح أم عبيـدة

هذا ، وقد جعلوا يطالبوننا بأخرةٍ بتثليث الأســـماء ، يظن أنه يدفـــع الالتباس ، ولا يدفعه لكثرة ما عَبْدَ وحَدَّ ولكثرة أســـماء الطيب والطـــاهر والحســـن والحسين بين المسلمين ولا سيما العرب منهم • وقـــد اتفق لى اكثر من مرة أن وجدت نفسى فى مكان واحد مع من تثليث اسمه مثل تثليث اسمى بلا اختلاف ، هكذا : عبد الله الطيب عبد الله ، فيقال الدكتور عبد الله الطيب والبروفسور عبد الله الطيب من أجل طلب التمييز • وكل ذلك لقـــب غير داخل فى حقيقـــة الاســـم الشرعى ثم أمثاله قد كثرت الآن فصار قليل الجـــدوى فى التعريف إن لاف التشريف ، فمرت على فترة ربعت فيها إسمى اتحرى بذلك دفع الالتباس مع المحافظة على الاســـم المعروف ، فطال بذلك حتى أوشـــك أن يصير شجرة نسب : عبد الله الطيب عبد الله الطيب وعدنا من حيث بـــدأنا كمـــا ترى •

فى انجلترا كان يقـــال لى « مستر طيب » ـــ تايب Mr. Tayeb [6]

فاذا أرادوا رفع الكلفـــة نادوا باســـمى الاول عبد الله Abdulla

بجعل العين همزة هكذا « ابدالا » ويذهبون بتشـــديد اللام وتفخيمها مـــرة واحدة • وكان يقال ل : ابدالا هذه : Christian name وترجمة

ذلك الاســـم المسيحى أو أصـــح من ذلك « اسم التعميد » فاعمد • التعميد من قولهم يوحنا المعمدان (أى ســـيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام) •

والتعميد غمس المسيحيين أطفالهم فى الماء ليكونـــوا نصارى •

واسم عبد الله قد يقع عند بعض النصـــارى ، فلا أدرى أيعنون به اللـــه العظيم سبحانه وتعالى ، أم معنىً من معانى الثالوث عندهم •

ولاشـــك أن التثليث والثالوث أصـــله من وثنيـــة يونان ثم فلســـفوه • ولا يتصـــور فى لفظ الله الا معنى التـــوحيد المحض المنصـــوص عليـــه فى سورة الاخلاص ، قُلْ هو اللهُ أَحَد الله الصَّـــمَد ، يدلك على ذلك آية المائدة اذ قال الله تبارك وتعالى فى خبر سيدنا عيسى بن مريم عليه الســـلام :

« أأنت قلتَ للناسِ اتخذُونى وأمىّ إلٰهينِ من دون اللـــهِ » ••••• فدلّ على أن الله ــ سبحانه وتعالى تبارك أسماء ــ لا يراد به شىء من معنى الثالوث وأن فى ذلك ما يكون متضـــمنا اتخاذ إله من دونه جل شـــأنه •

وكان مكتوبا فى قطار النفق بلندن Underground Train فى بعض العربات الممنوع فيها التدخين ، وكـــانت الى زمان قـــريب أقل عـــددا من العربات التى هـــو فيهـــا غير ممنـــوع No Smoking, not even Abdullahs

وقد كان هذا مع تضـــمنه معنى المنع اعـــلانا فى نفس الوقت عن نـــوع من السجاير تركى النكهة يقال له سجاير عبد الله Abdulla's cigarettes فكان يخيل الىّ أن المقصـــود هو أنه حتى من يكون اســـمه عبد الله فهو داخل فى نطاق المنع ولا يقدر أن يعتذر بأنه أجنبى أو لا يعرف الحـــروف الانجليزية ، ســـواء فى ذلك من يكون اسمه «عبد الله » من الهنـــد ومن يكون اســـمه « عبد الله » من الســـودان الانجليزى المصرى أو المصرى الانجليـــزى •

ولمـــا كنت فى نيجريا كان زملائى من الهوسا رعى الله عهدهم يقولون بروفسور عبد الله الطيب لا بروفســـور طيب التى يقولها غيرهم وربما بدأ بها رسالة رسمية جافـــة • وكانت قد مرت فترة خلاف شديد حـــول وصـــول رأى قاطع فى اختيار الموقع المناسب لتبنى عليه كلية عبد اللـــه بايرو وصـــير الى الـــرأى الذى كنت أقـــول به آخر الأمـــر والحمد للـــه

اذ هو أرحب رقعة وأكفل ، كما قد اتضح من بعد ، بما عسى أن يتطلبه المستقبل من التوسع • ولقد صارت كلية عبد الله بايرو جامعة مكتملة منذ أعوام • ولا أدرى ما شجن عن وجه الصواب بادىء الرأى • ولعل الخطأ انما تطرق من أن المسئول البريطانى آنئذ لم تكن له أدنى صلة معرفة حقيقية بموضوع كلية عبد الله بايرو — وهو الدراسات الاسلامية والعربية — من حيث انه هو الخلفية الحضارية الكبرى لبلاد هوسا وبرنو وسائر المسلمين فى افريقية الغربية •

ولا بأس أن نستطرد ههنا ونذكر أن كلية عبد الله بايرو هذه قد كانت جزءا من جامعة أحمد بلّ مقرها مدينة كنو • وقد أتيح لى أن كنت أول من تولى أمر انشائها • وسميت على اسم والد سمو أمير مدينة كنو ، الامير الحاج عبد الله بايرو ، رحمه الله ، تخليدا لذكراه اذ فى زمان امارته أنشئت أول مدرسة حديثة المنهج للدراسات العربية ، أحسب ذلك كان سنة ١٩٢٦م • وسميت الجامعة باسم الحاج أحمد بل « السَّردَونة » (١) • وكان مقرها الرئيسى بمدينة زاريا • وكان السردونة رئيس وزراء نيجريا الشمالية وكبير زعماء نيجريا قاطبة • وخبر مقتله هو ومقتل الحاج المير أبو بكر تفاوة بليوا — رحمهما الله — معروف • وكان ذلك فى يناير سنة ١٩٦٦م ليلة الجمعة فى شهر رمضان بعد رجوع السردونة من العمرة • وكان آخر عهد لى بالحاج أبى بكر رحمه الله تعالى سنة ١٩٥٨م اذ زرته بمدينة لاغوس ، فلم أره بعد ذلك • وكما تزاملنا من قبل بلندن فى بعثات الدراسة سنة ١٩٤٥م — ١٩٤٦م • سكنا فى داخلية أعدت لنا ، أبناء المستعمرات ، فى « نتفورد هاوس » Nutford House بناحية ماربل آرش Marble Arch فلم ينس رحمه الله ذلك وتحدث عنه ، وسألنى عن الدكتور أحمد الطيب ، رحمهما الله • وكان له

(١) السردونة من القاب دولة هوسا القديمة قريب المنزلة من سلطان المسلمين ولعل اصلها سر الدولة والله اعلم •

صديقا • وكان اذ لقيته لا يدخن وكان عهدى به فى لنــدن وهو يدخن سجاير شديدة التبــغ يقال لها كابستن فل استرنقث ، capistain full Strength

فذكرته فى مجرى الحديث بذلك ، فقال ان الاطباء نهوه عنها فترك التدخين • كان صديقه وصديقى الحاج محمد بل، مقاما كنو ، شديد الحــزن عليه بعــد أن نعوه صباح عيد رمضان • وكان يعجب فيــم قتلــوه ؟ ولعمرك ان الســياسة رعناء ليس لما يجرى فيها من تأويــل ،

ومرادُ النفوسِ أصغرُ من أن   نتعادى فيــهِ وأن نتفــانى

هذا وانما جر الى هذا الاســتطراد الحديث عن الاســماء وعادة المدرسين عامــة ، لا شــيخنا الامين وحــده رحمة الله عليــه ، فى اســقاط أسمــاء الآباء • وكأن أصــل ذلك كله من طريقة الافــرنج فى اعتبار اســم الاسرة هو الاسم دون ســواه ، فترا اسم الاب بمنزلة اســم الاسرة • من كــان اســـمه على ابرهيم مثــلا يقال له عند الافرنج مستر ابــرهيم ومســيو ابرهيم وانما ابرهيم أبوه • والتبس من هذه الجهــة فى أسماء النساء ، لان من اســمها زينب عثمان مثلا ربما يقال لها مســز عثمان وعثمان أبــوها لا زوجها كما لا يخفى ، فتضــطر السيدة الى العــدول عن اسم أبيها أحيانا الى اســم حليلها حتى لا يخطىء من يقول لها « مسز فلان » فى فهم المراد من ذلك ، وحتى لايظن أنها غير متزوجــة حين يختلف الاســمان ــ اذا كان اسم زوجها مثلا رقيب عامر • هذا ثم ان طريقة وصل اسم المرء باسم ابيه (على ابرهيم ــ زينب عثمان ــ رقيب عامر) ــ نفسها ليست عربية • الوجه العربى أن تقول على بن ابرهيم ــ زينب بنت عثمان ــ رقيب بن عامــر • وتســقط ألف ابن فى الامــلاء اذا وقعت بين علمين وكذلك ألف ابنة ــ الا حــين تبتــدىء من أول الســطر يا ولــد (ليت المطــابع الآن تعقل مثل هــذا التوجيــه)

وفى الدارجة عندنا نقول وَدْ (عند أهل البحر أى النيل) وَوِلْد عند عــرب البقارة • مثلا عبد الله وَدْ الطيب ــ وفى العرب الآن من يقول وَلْــد ووُلْــد وبِنْ • ونقول للبنت زينب بت عثمان أو بت عثمــان •

فلا أرى اسقاط ابن ومرادفاتها فى العامية الا قد جاءنا من تكلم الفرنج .
وتوجيه هذا الاسقاط فى العربية صعب وهو أن تزعم أن الابن هو أبوه
على وجه التشبيه :

ومن يُشابِه أَبَهُ فماظَلَمْ

هكذا قال الراجز .

أو كما قال أبو الطيب فى مدحه لسيف الدولة :

وأنتَ أبو الهيْجَا بن حمدانَ يابْنَه ... تشابَهَ مولودٌ كريمٌ ووالدُ
وحَمدانُ حمدونٌ وحمدونُ حارثٌ ... وحارِثُ لقمانٌ ولقمانُ راشِدِ

وهذا الوجه من التأويل يعسر فى أسماء النساء . زينب عثمان مثلا لا يمكن أن نقول فيها أن زينب هى عثمان على وجه التشبيه كما تقدم . وإذن فعسى أن نجد مخرجا آخر فننسب اسم الشخص الى أسم ابيه على وجه الاضافة على ابراهيم ، أو على الذى لابراهيم . وهذا الوجه يعسر فى الاسماء المركبة تركيبا اضافيا مثل عبد الله وعبد الحميد . الا أن تدعى اضافة الاسم المركب كله على الوجه الذى يسميه النحاة « الحكاية » وهذا ياصاح هو التكلف .

على أننى سمعت كثيرا من الناس ربما قالوا عبد الله الطيب بنغم تشعر منه كأن مرادهم هو عبد الله الذى للطيب ولا يعجبنى هذا النغم ، ولو نسبت امرأة الى امها فقلت زينب خديجة . جاز الوجه الاول كما لا يخفى .

وبعد ، فانظر أى مبلغ بلغ بنا أثر التعليم الحديث .
حتى طريقة العربية الواضحة فى حفظ الانساب قد خرجنا منها الآن كل الخروج . تأمل رنة لفظ ابن فى قول القائل :

إِنْ يقتلُوك فقد ثللت عُروشَهم ... بعتَيْبَةَ بن الحرثِ بن شِهَابِ

وفى قول القائل :

فقتلنا بعبد الله خَيْرَ لداتِهِ ... ذُؤَابَ بن أسماءَ بن زيدِ بن قاربِ

وفى قول زهير :

لعمرى لنِعْـمَ الحىُّ جـرَّ عليهـم   بما لايُوَاتِيهم حُصَيْنُ بن ضَمْضم

تأمل حصين ضمضم ــ واذا ثلثوها صارت حصين ضمضم حصـين ..

وكما خالفنا طريقة العـرب والعربية فى الاسماء ، خالفناهـا كذلـك فى العدد ، فنكتبه من الشمال الى اليمين ١٩٧٦م مثلا وننطقه من الشـمال الى اليمين ألف وتسعمائة ، ثم بعد ذلك من اليمين الى الشـمال وسـتة وسبعين فانظر الى هذا الخلط العجيب . والصواب أن نكتبه من اليمين الى الشـمال الستة فالسبعة فالتسعة فالالف كما يكتب سـائر الكلام وأن ننطقه كـذلك فنقول ستة وسبعون وتسـعمائة وألف مثل الكتابة تماما والامـور تـعود واذا عودنا أنفسنا ذلك ولا سيما فى ساعات الدرس وفى ابان الصغر بوجـه خاص كان أمره علينا يسيرا كل اليسر . وقد أخـذ الارقام الافرنـج منا فى عهد البابا سلفستر (٩٩٩ ــ ١٠٠١م) فنحن أهل هذا الاصل أولى بالمحافظة على أصلنا ، ولا يقدح فى ذلك أخذنا كتابة الأرقام من أهل الهند فكلنا فى الهم شرق كما قال شوقى رحمـه الله .

والناسُ بالناسِ من بدوٍ وحاضرة   بعضٌ لبعضٍ وان لم يشعروا خَدَما

هكذا قال أبو العـلاء المعرى فى اللزوميات ، وقـد صـدق .

❁ ❁ ❁ ❁

كان كتاب المطالعة العربية المقرر علينا « نزهة القارىء » سمجا خاليا من الروح ، لعل أجود ما كان فيه قصيدة أبى بكر بن العلاف :

ياهـرُّ فارقتنـا ولـم تَعـُـد   وكنت فينا بمنزَل الولد

وما كانت ضرب أشعار مما تستعذ به سننا آنئذ ، انما كنا نستعذب شـعر الوطنية والمجد والصبابة المتقدة والحماسة الشديدة . وكان ما يختاره لنـا أستاذنا الشيخ الامين رحمه الله من الكلام الجزل الذى له فى القلب والسمع رنة كخطبة زياد البتراء وشعر حارثة بن بدر الغدابى ممـا يتـلافى نقص « نزهـة القـارىء » أيمـا تـلاف .

وكان زملاء الشيخ الامين رحمه الله ، من مدرسى العربيـة آنئذ أقوياء فى مادتهم ، تعلموها عن حسن تلق ودرس من خيرة الاسـاتذة المصريين الذين

كانوا قد جيء بهم أول انشاء كلية غردون • وكان الطلبة فى الفصول المختلفة كلما تلقوا من أحدهم درسا ممتعا أو نافعا قصوا من أمره على رفقائهم فى الداخلية والعنبر وحلقات الانس والنقاش • وكان ذلك من أول ما بدأنا نتذوق به قضايا الفكر • • • أو قل ما يقال له قضايا الفكر • مثلا الفتنة الكبرى كانت دائما موضوع نقاش فى عنبرنا • وكان ميلهم مع أمير المؤمنين كرم الله وجهه ، الا أن روح التعليم السنى المحافظ كانت تحملهم على احترام معاوية وعمرو بن العاص وكبار الصحابة طلحة والزبير وأمنا عائشة رضوان الله عنهم أجمعين • وكان الشيخ البشير الفضل رحمه الله قد أملى على تلاميذه أبيات شوقى التى يقول فيها :

مـا كان ضَرَّ نُصَراءَ البَيْعَةْ	لو صَبَرُوا عَلَىَ الوَغَى سُوَيْعَةْ
غادرهم بِسِحْره معاوِيَة	كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية
ألقى القَنَا وشرع المصاحِفَا	ينشُدُ بالله الخميسَ الزاحفا
لا يرفَعُ المصحفُ كالدفوفِ	والسِّلْمُ لا تذكرُ فى الصفوف

رحم الله شوقيًا • ليت العرب تذكروا كلمته هذه :

والسلم لا تذكر فى الصفوف

سنة ١٩٤٨م حين تقدمت صفوفهم فى أرض فلسطين فخدعوا عن الاستمرار بدعوى الهدنة • وما هو الا أن أصاب اعداؤهم فرصة مهلة فاستعدوا ثم أعادوا الكرة • وكانت مذابح دير ياسين وسقوط حيفا والخليل وتوالى الكوارث • وكان أمر الله قدرا مقدورا •

وكان متن الجوهرة المقرر فى التوحيد جيدا يتناول أهم موضوعات العقيدة ويعرضها عرضا فيه روح تَحَدٍّ يستهدف الجدل ولا سيما جدل من يكون فى مثل أسناننا المراهقة آنئذ :

ولـم تكن نبـوّة مكتسَبَةْ	ولو رَقَى فى الفَضْلِ أعلى عَقَبَة
فـان يُثِبْناَ فبمحض الفَضْل	وان يعذِّب فبمحضِ العَدْل
وأَثْبِتَنْ للأوليا الكرامَةْ	ومن نفاها فانبذَنْ كلامَه

وأوّلِ التشاجُرَ الذى وَرَدْ   إن خضت فيه واجتنِبْ داءَ الحسد

اجتهد عليٌّ فأصاب • واجتهد أصحاب الجمل وأخطأوا • واجتهد أصحاب صفين وأخطأوا • لهم أجرٌ واحد •

غير مقنع •

يا ولد ؟

وليس مجبوراً ولا اختيارا   وليس كلاًّ يفعلُ اختيارا

انصاف حلول •

بلاش إلحاد يا شافع •

ولكن متن العزية فى الفقه كان جافا • وليته كان المقرر رسالة ابن أبى زيد لأنها كانت معروفة عند علماء السنارية وسائر أهل السودان ، ثم تأليفها قد روعى فيه جانب السن كما قد نص على ذلك مؤلفها •

وكان ثلاثة من تلاميذ فصلنا يجلسون معا متجاورين ويهمسون وكأنهم كانوا يأتمرون بأمرٍ واحد بينهم • فاذا ضحك أحدهم ضحك الآخران • واذا سأل أحدهم سؤالا ، سأل الآخران كذلك • وكانت فيهم شيطنة ، ومن هابوه من المدرسين سكتوا وتمسكنوا له • وجسر مرة أحدهم فسأل فى حصة متن العزية عن معنى الحَشَفة ، وذلك بمعرض ما ذكره مَتْن العزية من أن من موجبات الغسل ، غسل الجنابة ، « ادخال الحشفة فى فرج » ولا كذلك اذا « أَلطفَتِ المرأة أى أدخلت يدها بين شفريها » وأشياء من هذا القبيل •

وأدرك الاستاذ ما كان يراد من روح الهزل والاستخفاف فقال للسائل بزجرة وانتهار : « الحشفة يعنى النومة (١) ياسخيف » — ولم يستطع صاحباه الشيطانان أن يضحكا •••

---

(١) كلمة دارجة تعنى اللقاسفة •

تعدو الذئابُ على من لا كلابَ له　　　وتتقي صَوْلة المستأسد الحامى

وكان كتاب المطالعة المقرر فى الانجليزية للسنة الأولى هو Reader VI أى الكتـــاب الســـادس من سلسلة الدكتور مايكل وســـت ولم يكن جيداً ، وانما كانت كتب الدكتور مايكل وســـت جيدة فى مراحلها الاولى ثم أدركها الضـــعف من بعـــد •

كان فى الكتـــاب السادس هذا تمهيد لم يخل من فائدة ، عن أصـــول كثير من الكلمات الانجليزية فى اللغـــة اللاتينية وعن الحـــروف التى تقـــع فى أوائلها Prefixes وفى أواخرها Suffixes ـــ فتنشـــأ من ذلك أنواع تفريعات الالفـــاظ والمعـــانى ، مثلا predict و pretend و prefer والحـــرف pre وهـــو متقدم أى prefix يفيد معنى التبلية • ومثلا laughable و probable و notable والحـــرف able وهـــو متأخر أى Suffix يفيد معنى القابلية • وكانت فى التمهيد قوائم من الاحرف المتقدمة والمتأخرة وشروح لبعض الاصول التى تتركب معها •

وكـــان المدرس لا يضيف الى مادة الكتاب شيئا ، ويأخذنا بحفظ قوائمه ويمتحننا بالاســـئلة فيها ، لا يعنف كما كانـــوا يصـــنعون بنا فى المدرســـة الوســـطى مع الكف والسلخانة ، ولكن باصرار ، ودرجـــات « التـــيرم » المرتبة على انطباعاته عنا فى الحصـــة كانت تنوب مناب الكف والســـلخانة فى الزمـــان القـــديم •

وكـــان اذا قـــرأ جمـــل القـــوائم وشـــروحها تغنى بـــذلك تَغَنِّيـــا كأنمـــا هـــو به ذو طـــرب :

Tenere means to hold:

retain, to hold again, to keep.

Tenere means to hold:

maintain, to hold in hard, to look after.

Re: means again
main: means hand.
Retain, remain, regain
Remit, resit,
attain, sustain, obtain....

وكان النطق ذا أهميـــة كبيرة ، تلوى له الشـــفاه ، والاشداق ، وطريقة مخارج الصــوت على نحو مثل أعلى متوهم لفصـــاحة لغة الانجليز • لقد كانت قصة ••• Smoke does not go down, it goes up ...

التى علمنا اياها ناظر المدرســة الوسطى فى العـــام الذى سبق أخف وأيسر من هـــذا الذى نؤخـــذ به الان بكثـــير Extend, pretend, intend

هكذا ، لا اكسى طند ــ برى طند ــ ان طند Obtain, retain

لارى طين ــ اوب طين ــ بغلظـــة وخشــــــــونة كم كم كم كم لبع لبـــع مثل نطق هذا ••• ونطق هذا ••• ونطق ذاك ••••

وكان عدد من التلاميذ ينطقون نطقا صحيحا يرضـــاه المـــدرس • وكان الثلاثـــة المتشـــيطنون يترنمون به ويبالغون • وكلما سخر المدرس ممـــن ينطق كم كم لبع لبع التفتوا اليه ثلاثتهم بعنق واحد ــ مرة يمنة ومـــرة يسرة ، ومرة الى الوراء ، ويتهامســـون وِشْ وِشْ وش ويضحكون تشجيعا لسخرية المدرس ••• وكنت أحرص على النطق الصـــحيح فحين لا أجـــد تشجيعا أتعمـــد نطقا خشنا غليظا وكان المدرس يفطن لهـــذه المعاكسة وفيه روح فكاهـــة •••• « شوف دا ، كَمْ كَمْ ، لَبَعْ لبع » •• ويضحك الفصـــل كله • وينظر الثلاثـــة المتشيطنون بعدم استحسان وقد يهمسون : «ثقيل» « ســـخيف » •

وكانت الدرجات فى الانجليزية ترتفع وتنخفض تبعا لبراعة محاكاة نطق التنغيـــم • ومن العجب أن مدرس الانجليزية « الخواجة » لم يكن يهتـــم بشىء من هذا العناء وكانت درجاته أعدل ميزانا •

وقررت ادارة الكلية منع الكـلام بغير الانجليزية أثناء الفسحتين الكبيرة والصغيرة مدة اليوم المدرسى • قيل الغرض من ذلك تدريب التلاميـذ على اسـتعمال اللغـة •

حاشـية : اللغة أى الانجليزية ، هكذا كان يقال لها فى دواوين الحكومـة• يكتبون مثلا فى المكاتبات الرسمية : « بالاشـارة الى جوابكم باللغـة نمرة كذا بتأريخ كذا » ••• يعنى باللغـة الانجليزية • قال ابن مالك رحمه الله :

وقد يصيرُ علماً بالغَلَبه   مضافٌ أو مصحوبُ ال كالعقبه

طبعا انما كان يحـدث هذا أكثر ما يحدث فى دواوين الحكومـة الصغـيرة والاقليمية المباشرة للجمهور ، لا التى فى العواصـم وعنـدها ذروة الحـل والعقد ـ هذه كانت مداولاتها باللغة لا غير • وكان التـدريس فى السـنتين الثالثة والرابعـة باللغة (الا حصـص العربيـة) وهؤلاء هم التلاميـذ الكبار Seniors • أما فى الاولى والثانية ، وهـؤلاء هم التلاميـذ الصـغار juniors فكانوا يدرسـون باللغة أربعـة عـلوم فقط ، الحساب والجبر وهندسة اقليدس واللغة نفسـها

ـ لسـع يدرسـوكم بالعربى يا جونير يا عفن •

ـ لكن أنا باعـرف انجليـزى أحسـن منك •

ـ روح يا جـونير يا ثقيل •

****** *****

كانت الفسـحة الكبيرة بعد الحصة الثانية تقارب مدتها ساعة والصغيرة بعد الثالثة مدتها ربع ساعة • وفى الفسحة الكبيرة كنا نذهب للفطور • وكان يوما عدسا ويوما فولا • كان هذا تحسينا بالنسبة الى نظام المدرسة الوسطى لان الفـول هنـاك كان له يومان فقط • يـوم الخميس والاثنين وكان أحب الينـا من العـدس ، لتوالى هذا علينا فى جميع الوجبـات •

كان فول الداخلية فى الجملة حسنا ، الا انه ربمـا اتفق عـدم انضاجـه أحيانا مع رداءة بعض الحبات • فكان التلميذ ربما استحسن فى ذلك اليـوم الذهاب الى « مستورة » التى كانت تبيع الفول بالقرب من مقهى الطلبة •

وكان فولها جيدا دائما ، ذهبى الحبات ، كامل الاســتواء ، ومعه « سلطة » فلفلية متوقدة وزيت مستجاد ، وكانت تبيع الفول مع « رَغيفة » (١) واحدة على الاقل وكان رغيفها بلديا (٢) شمسيا حسنا • غير أن رغيف الداخليــة قد كان لا بأس به ، رغفانا ضخمات ، كل واحدة منها تكفى ثلاثة يقتســمها الطلبة قســمة عادلة • وكان ربما اشترك ثلاثة أو أربعــة فاشتروا فــولا ورغيفة واحدة من « مَستورة » وذهب أحدهم الى الداخلية فجاء بأنصباتهم من الرغفــان ، وكان مما يغرى بفــول مستورة ســوى جودته أن الطلبة كانوا فى أعماقهم من بيئة قروية بدوية تنفر من القعود على الكراسى والاكل على الموائد المرتفعــات على الطريقة الافرنجيــة ، وتؤثر الفرار أحيانا الى حرية الاكل على ميدان النجيلــة ، اذ لم تكن فى مقهى الطلبة آنئــذ مــوائد وكــراسى •

وكانت ساحــة ميدان المقهى وهى التى فيها الآن قاعة الامتحانات والمبانى الجنوبية الغربية من كلية العلــوم تمتلىء بالتلاميذ بعد انقضــاء الفطــور يقعدون معا ، كل مع أصحابه ، ويشربون من شاى عبد الباســط ويتآنسون وكان شايــه دائمــا ساخنا وخدمته سريعة ، ويذهب الطلبــة أنفســهم ويحضــــرونه منــه •

وكنا فى الفترة التى بين الفطــور وجرس الحصــة الثالثة ربما تحــدثنا فى الادب والتأريخ وأنشــدنا بعضنا بعضا القصائد • ولم تطل مــدة منع الكــلام بغير الانجليزية اذ سرعان ما ألغى هذا الامر لما تبين عسر تطبيقه • ولكن أوائل أيامــه كان أكثر ما يتعرض التلميذ له حين ينصرف من جلسات أنس المقهى أو حين يتمشى فى الفسحة الصــغيرة مع بعض أصحابه وقــد قربت الحصــة الخامسة وظن أن اليوم قد قارب الانتهاء •

وينــزل القَــدَر •

— Talking in Arabic ?

---

(١) لحوق التاء الاســماء فى العربية كثيرة •

(٢) هكذا كانوا يقولون وكل الرغيف لا يمت الى بلدنا فى اصله بشىء •

ويؤخذ المسكين الى المكتب حيث يقرر عليه العقاب • وكان العقاب نوعين • « النتيلة » وهى أشده وأوجعه ، و « الطلبة » بضم الطاء وسكون اللام ، وهى دون « النتيلة » وربما جرت اليها ، فيجد المرء العقابين معا وحسبنا الله ونعم الوكيل •

وكان فى الكلية جلوازان يقال لكل منهما « الصول » وهى رتبة فى النظام العسكرى لضباط الصف علامتها أربعة شرائط عند الكم أو شىء من هذا النحو • كبيرهما جسيم رهيب المنظر • وكان اليهما ضرب الأجراس، ونقل الرسائل الهامة بين المدير Warden وكبير المشرفين Senior Tutor وسائر المشرفين ومساعديهم وضروب المدرسين، ثم كانا يتوليان العقاب ، « النتيلة » بحضرة المشرف أو مساعده ، « والطلبة » أحدهما كل يوم من أيام الاسبوع ماعدا الجمعة والاحد •

وكانت الطلبة ضربا مرهقا عنيفا من الحركات البدنية (الجمباز) ودقائقها الثلاثون أو الاربعون كل منها عذاب أليم • وكان وقتها ما بين الساعتين الثالثة والرابعة بعد الظهر ، وذلك أوان الراحة ، فكان ذلك من أمرها وحده تنغيصا • وكان يصف التلاميذ المرادون لعقاب الطلبة بأحد الميادين •

كان امام المبنى الرئيسى كله ميادين ، أولها الميدان الشرقى وكانت تقام فيه مباريات الكرة الكبيرة ، ثم تليه الميادين الاخر الى حيث أشجار اللبخ التى شرقى كلية الهندسة •

كانت أكثر ما تصطف الطلبة ، بضم الطاء ، فى الميدان الذى هو الان كلية الأداب ، جناحها الجنوبى ، يصطفون وأمامهم « الصول » : « معتادا » مرش (مرش هى كلمة march الانجليزية ، « ومعتادا مرش » من اصطلاحات التمارين الحربية وهو ما يقال له بالانجليزية quick march و سريعا مارش أو مَرْش كما كان يقول الصول هى quick double march ، والكلمة الانجليزية

أدق من قولهم « معتادا » لان عادات الناس فى المشى لسن على نظام واحد ، والكلمة العربية « سريعا » أدق من الانجليزية double الا أن يكون منظورا فى هذه الى الاصل الفرنسى وهو الزيادة والسبق أحيانا ، فسبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم .)

معتادا مرش . شمال يمين ـ شمال ، يمين ، شمال يمين ... وفجأة يقول « الصول » : أقعد . قم . أقعد . أرقد . قم . سريعا مرش . واحد ، أثنين ، واحد ، أثنين ، هب ، هب ، هب ، أم ، أم ، أم ـ أقعد ، قم .. تمرين الارض ... واحِيد ... أثنيـ ... ن ... وهذا كان مرهقا بطيئا يحاول المرء أن يجعل نفسه فيه مثل الخشبة ... واحيد .... اثنيـ ... ن ... انت هناك . ويكون هذا تهديدا لمن لا يحسن أداء التمرين ، كأن يتقاعس الصدر ، ويرتفع العجز ، وتضطرب حال الرأس والساقين، وينبغى أن يكون الجسم مستقيما على حال مستوى واحد ... إينتباه !! معتادا مرش ... أرقد ... قم ... تمارين : واحد ، اثنين ، تلاتة ، أربعة .. واحد ، اتنين ، تلاتة ، أربعة ... خلف دُور (أى على الخلف در) وبعد ربع ساعة قد يأذن الصول لمن يرى أنه قد اجتهد وأخلص بالانصراف. وأحيانا قد يغتاظ بعض التلاميذ من العنف فتقع بينه وبين « الصول » مشادة ويطرده ويقدم اسمه للمشرف فيكون نصيبه « التيلة » بلا ريب...

وقد يحضر بعض اخوانهم يتفرجون ويقولون للصول ، خلاص يا عمى فلان ، تعبوا . وكان « الصول » ربما رق وتسامح ، وربما خشن وزجرهم وطلب منهم أن يبتعدوا وأطال المدة مبالغة فى التشدد . واحد ، اتنين، واحد ، اتنين ، أرقد . . .. وكان ألم « الطُلبة (بضم الطاء) يبقى مع العضلات تتشنج به أياما . فكان بعض التلامذة ربما زعم أنها شر من « التيلة » ، وليس الامر كذلك ، ولا ينبئك مثل خبير .

أصل الطُلْبة بضم الطاء من الضريبة الشاقة التى كان يقال لها ذلك لما كان يصحب مطالبة الحكومة للناس أن يؤدوها من ضروب التعذيب . وقالوا فى الشعارات التى سبقت قيام الثورة المهدية فى القرن الماضى : « عشرة فى

تربة ولا ريال فى طلبة » تفضيلا للموت على العذاب الذى كان يصحب الطلب بدفع ريال الضريبة كما ترى .

هذا ، أما « التيلة » فكانت حبالا من التيل ثلاثة معا أو لعلها أكثر ، ذوات عقده يفرى حر وقعها الجسد . قالوا كانت تغمس فى ماء الملح ، فلا أدرى أكان ذلك يجعلها أوجع أو أقل أذى أم كان توجيها طبيا ، من نوع الالزام بحضور الاطبة عقوبة الاعدام ليتأكد من وقوع ما دربوا من أجل أن يدفعوه ... لاريب رحمة بالمسكين ألا يؤخذ فيدفن وهو حى .

قالوا ـ ولم يكن هذا فى مجال عقوبة الاعدام ـ أن بديع الزمان الهمذانى الاديب الكبير ، أغمى عليه فأخذ ودفن وهو حى ودافنوه لا يعلمون ، فانتبه فى القبر مذعورا ، فقبض على لحيته فمات . لكل أجل كتاب .

كان الجلد « بالتيلة » على العجز فوق السراويل بعد رفع الجلابية . ويترك الضرب ولو جلدة واحدة ، أثرا وخدشا على الجلد .ولابد من تقبض فى العضلات وورم واستمرار ألم ثلاثة أيام على الاقل . وقد تحس فى صباح اليوم الثالث أنفاسا من الحمى . تشنج العضلات من «الطلبة» دون ذلك بكثير ، بله الاهانة .

كنت أملت فى نفسى ألا أجلد بالتيلة طوال سنوات الكلية الاربع . وقديما قال الشاعر :

يوشك من فرّ من مَنيّتِهِ　　　فى بَعْضِ غِرّاتِهِ يوافِقُها

كانت حصة الجغرافية فى السنة الاولى سخيفة جدا . كانت الجغرافية فى ذاتها من أحب العلوم الى ، ولكن الاستاذ كأنه لم يكن يعقل منها شيئا . وما كان يتكبده من عناء هو فى فهمها كان ينعكس عيا وبلها فى تدريسه لها . كان يعيد ويبدىء ويكرر ويلت ويعجن لتا قبيحا . وكنت أنظر اليه أتعجب . وكانت الجغرافية الطبيعية أعسر شىء عليه ، فيعول على الصياح والتكرار ويلح فى ذلك الحاحا .. والضغط الجوى .. والضغط

الجوى •• هنا عالى ••• هنا عالى •• هنا واطى •• هنا واطى وآيسوثيرم وآيسوثيرم •• وآيسوبار وآيسوبار •• وكان يغتاظ لنــوع النظر الشارد المشدوه الذى كنت أنظر به اليه • وكنت لا أفطن • وأحسب كرهنى • ومرة جعلت أنظــر ••• نظرت ونظرت ونظــرت •• فــرأيت عينى ضــفدعة جاحظتين • وسمعت نقيق ضفدعة • ويقال للضفدعة فى دارجتنا «القَعْوَيّه» واشــتقاق ذلك من الإقعــاء كما لا يخفى • كأنهم ســموها « إقعاءة » ثم فخموا الالف يذهبون بها نحو الضمة وسهلوا الهمزة الثانية وحذفوا الاولى مكتفين بتحريك القــاف يتوهمون أن أصل المجىء بها لتجنب البدء بالساكن فصارت « قَعْوَيهْ » • والجمع « القعوى » ، تجعل الواو شــيئا بين الالف والضــم الطويل المشــبع • ومنهم من يقول « القعونجة والقعونج » وهى دارجــة رديئة • ولا يخفى أن الجيم تحولت من اليــاء والنون من غنــة مع التفخيم ، والله تعــالى أعلم • كانت لى أخت صــغيرة ، ماتت جعلهــا الله سلفا صالحا ، كنت أتمنى لها وأقول :

الليلــه القعــوى جــانى
وأكلت النملــه بلســانى

كان ذلك ســنة الفيضــان • وكان صوت « القعوى » (الضفادع) قــد ملأ كل مكان • قالوا : وتمــد الضفدعة لسانا دقيقا رقيقا سريع الحركــة وتبتلع النملة وغيرها من الحشرات الصــغيرة • سريعة الافتــراس كمــا تفعل العنكبوت بالذبابة • وكنت أقول لهــا :

قَعُويــ ينَبْ
ياكــل زينب

كان اسمها زينب • توفيت بالسحائى ســنة أحدى وأربعين فنكأ رزؤها قــروحاً ما بــرأن :

أأخْتِىَ قد شــطّ المزار فبيننا مسيرٌ على الايام والسنوات
كنا فى الصــغر ، زمانا مضى ، نحاكى الضفادع ، ويقال لنا ان الضفــادع

تقــول فى نشــــيدها المســـتمر :

قيق قوق قيق قوق ـــ قيقـــوق قيقـــوق
بيفـــوق بيفـــوق ـــ (أى بالمكان الذى فـــوق) •
بيفـــوق بيفـــوق ـــ ود حليمه كتله الشـــوق
بيتحت بيتحت ـــ ود حليمه كتله الضـــحك

كتله أى قتله والقاف عادة فى دارجتنا لا يبلغ بها الكـــاف الا فى أشياء قليلة مثل قتل المبنى للمعلوم وقتل المبنى للمجهول نقول كتل •

بيفـــــوق بيفـــوق
ود حليمه كتله الشـــوق
بيتحـــت بيتحـــت
ود حَلِيمَه كَتله الضِـــحْك

ـــ من ولد حليمه هذا الذى قتله الضـــحك ؟
وضحكت : قَرْ قَرْ قَرْ قَر ••• قَرْ قَرُوبا ••• فى وســـط الفصـــل الســـاكت
والتكـــرار ••• رار ••• رار ••••••
واحمـــر المدرس غضـــبا
لا شك أنى أسَأْت أدبا
ـــ « أخرج وانتظرنى بالمكتب » ••••• أخـــرج
ونظر الفرســـان الثلاثة الى المجرم شامتين ، كأنما حركهم محرِّك واحد ولم يتهامســـوا ولا يضـــحكون •

زعم الكســـندر سلهنستين أن عـــادة الطاعـــة جعلت النـــاس مســـاكين يذعنون كالضأن • يلقى القبض على أحدهم وســـط الزحام أو فى أى مكـــان فينصـــاع • ويذهبون به الى احدى جـــزائر رخبيل «قولاق» فيذبحونه • ولو كان احتج ساعة القبض عليه أو قـــاوم ربما نجا • الله تعالى أعلـــم • الناس مســـاكين • حق مساكين • دائما مساكين • أحسبهم اكتسبوا عـــادة تأليف الحيوان من الدجاجة الى البعير من سابنـــة تأليفهم بعضهم لبعض • وقد كان الناس ولازالوا يأكل بعضهم بعضا • قوله سبحانه وتعالى :« أيحب

أحدكم أن يَأكُلَ لحمَ أخيهِ ميتاً فكَرِهْتُموه» فى سورة الحجرات ، مما يستفاد منه ضمنا أن الناس كانوا فى زمان سالف يأكلون الجنائز ثم كرهوا ذلك فتركوه • فشبه سبحانه وتعالى الغيبة بأكل لحم الجنازة • فكما كرهوه فينبغى أن يكرهوها وينفروا منها نفورا بتقزز • ولاتستبعد هذا الوجه من جوانب التأويل ، نعوذ بالله أن نقول فى كتابه بالرأى ، فقد تعلم أنهم رووا لذى الاصبع العدوانى من شعراء الجاهلية :

لو تشربُون دَمِى لَمْ يَرْوَ شارِبُكم ولا دماؤكمو جمعا تُرَوِّينى

فدل على أنهم ربما شربوا من دم القتيل فى معرض الانتقام والتشفى • وخبر هند اذ لاكت كبد حمزة قد تعلمه • وكذلك ما ذكروه من أنهم ربما تداووا من السعر بشرب دم القتيل الشريف ، قال الفرزدق :

ولو تشربُ الكَلْبَى المراضُ دماءَنا شفاها وذو الداءِ الذى هو أَدْنَفُ

وذكر صاحب الغصن الذهبى أن الناس لم يكن أحدهم يرى الآخر الا طعاما •• وذكر مالونسكى فى كتابه عن بعض المتأخرين من البشر أنهم يمتصون اللحم من عظام جنائز آبائهم برّاً بآبائهم على كراهية منهم شديدة لهذا العمل •

وأكل الناس بعضهم بعضا أحياء فى شتى العصور لم ينته الى اليوم• وذكروا أن المعتمد لما قتل ابن عمار ضربه بالفأس على رأسه وتركها فيه ، فهذا أكل له كما ترى وهو حى • وابن عمار هذا هو الذى قال :

مما يزهدنى فى أرضِ أندلسٍ ألقابُ معتمدٍ فيها ومعتضِد

ألقابُ مملكةٍ فى غير موضعها كالهرّ يحكى انتفاخاصَوْلة الاسد

فما ضربه هذه الضربة القاسية الا ليعلمه أنه أسد لاهر ، فما كان الا هرا، اذ الهر هو الذى يصنع بفريستهمثل هذا الصنيع • أما الاسد فيجهز عليها ويضغم :

منه تظلّ سباع الجوِّ خائِنةً ولا تمشّى بوادِيه الاراجيلُ

كما قال كعب •

والى معنى أكل الناس بعضهم بعضا وهم أحياء أشار زهير أبوه فى المعلقة حيث قال :

ومن لا يَذُدْ عن حَوضِه بسلاحِه   يُهَدَّمْ ومن لا يظلِم الناسَ يُظْلَمِ

وأبان عنه أبو الطيب كل الابانة حيث قال :

انما أنفُسُ الأنيسِ سباعٌ   يتفارَسْنَ جَهْرَةً واغتيالا

وقصة السندباد البحرى فى جزيرة الغيلان قوية الرمزية فى هذا المعنى. وذلك أن الغيلان كانوا يسوقون البشر الذين يقعون فى أسرهم مثل قطيع الغنم . قالوا وكانوا يطعمونهم طعاما يقتل ارادتهم ويميت حرارة قلوبهم ويجعلهم يسمنون . وكل صباح يأخذ الغيلان منهم أثنين أو ثلاثة أو أكثر للذبح والأكل بحسب الحاجة . وهم يغدون ويروحون وقد ألفوا هذه الحياة .

قال أبو الطيب :

إلفُ هذا الهواءِ أوقعَ الانـ   ـفُسِ أن الحمامَ مرُّ المذاق

وقال :

ذَلَّ من يغبطُ الذليلَ بعَيشٍ   ربَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمَامُ
مَنْ يَهُنْ يَسهُل الهوانُ عليه   ما لجرحٍ بميتٍ ايلامُ

وحب الدنيا والاخلاد اليها كلَّ الاخلاد من مداخل الهوان ، أكبر مداخل الهوان . وفلسفة الاستعمار كلها كانت مرتبة على حب الدنيا ، دنيا التفرنج الجديدة ، والهوان من أجل هذا الحب لها وفى سبيله . كان العامة يقولون : « الترك جنتهم الدنيا دى » ، يعنون بالترك الانجليز والمستعمرين النصارى أن جنتهم فى هذه الدنيا وليس لهم فى الآخرة الا النار . وأصل استعمال « الترك » بهذه الدلالة منشأه من الثورة المهدية . وكان المهدى عليه السلام يقول : « جيت لخراب الدنيا وعمار الآخرة فاتبعه الناس على ذلك ثم تفرقت بهم السبل من بعد . وقل أبو نواس الحسن بن هانىء :

سُنّةَ العشاقِ واحدةٌ   فاذا أحبَبْتَ فاستكِن

وان تكون أفنديا كان هو السبيل الى الجاه والمجد واللذات وطيب العيش و الاستمتاع بالدنيا الجديدة التى أتاحها الاستعمار ، وخيل للناس أنها باقية لا تفنى لشدة بريق بهرجها . وحياة المدرسة والداخلية ونظامها كان طور اعداد للأفندية (١) التى هى خدمة الاستعمار ... الافندية التى هى سبيل الجاه المعشوق اللازمة معه ضروب الاستكانة والهوان والطاعة .

كنا ونحن تلامذة نكره الاستعمار ونقسم الناس الى «وطنيين» « ومخلصين » . الوطنيون هم الذين كانوا يتجاوبون ، فيما يبدو لنا ، مع نزعات شبابنا الثائرة . ونقول هذا المدرس « وطنى » «وطنى جد » ،ونقول هذا المدرس « مُخْلِص » . ويشتم بعضنا بعضا : يا مخلص ، يا مُتَكَبْكِبْ أى يا صبّاً بالاستعمار يا تابعا له يا كلبا جاريا يبصبص ذنبه له .

ـ يا مخلص .... (أى يا مخلصا للاستعمار)

ـ سيبك منه ، دا واحد مخلص .

ـ بلاش اخلاص .. أى يا هذا أترك الملق للاستعمار .

قال تعالى جل من قائل فى سورة مريم « واذكر فى الكتاب موسى انه كان مُخْلِصاً وكان رسولا نبيا » وقرىء « مخلصا » بكسر اللام (٢) وفتحها (الفتح قراءة الكوفيين (٣) وعليه رواية حفص) فوصف الله سبحانه وتعالى نبيه بالاخلاص كما ترى . أنظر كيف تحول معنى الاخلاص فى موسوعة تلاميذ جيلنا . يا للأسف ، كانت ثورتنا فى ذاتها جزءا من الاستعمار ، لاننا انما كنا نعد لنكون أفندية (٤) الاستعمار ، وحركاتها الوطنية قد نبعت ، يا للأسف ، فى أساسها من هذه الثورة ، فعنصر الأصالة فيها كان هو الغضب وحده . هو وحده لا غيره كان الشىء الأصيل النابع

---

(١) و (٤) الافندية مصدر صناعى بمبنى كون المرء افنديا وهى ايضا جمع افندى كما تقول الصوفية جمع صوفى

(٢) قراءة ابى عمرو وعليه قراءتنا فى السودان ونافع وابن كثير وابن عامر .

(٢) الكوفيون هم عاصم وحمزة والكسائى فهم مع الاربعة المتقدمة اسماؤهم المعروفون بالقراء السبعة .

من الاعمـاق ، المندفع به صـدق الشـباب •• صـدق الشـباب الحى الجميل لم تكن فى النفوس حقا ثورة على معدن حضارة الاسـتعمار • حتى جمال عبد الناصر كان يتكلم عن حريـة لقمـة العيش ، يا للاسـف •

هنا كان مكمن نقطـة الضـعف •

حتى الحماسة الدينية التى كانت تنظر الى زمان عمر والوليد بن عبد الملك وهـرون الرشيد وتستمد من ذلك روح استشعار البطولة والمجد والكفاح ، كانت هى تـرغب فى تطوير الحياة العربية لتتحـدى الحضـارة الغربيـة بزخرف كزخرفها مسـتعار منهـا فانظـر •

« الله لطيفٌ بعبادِهِ يَرزُقُ من يشاءُ وهو القويُّ العـزيز • من كـان يريـدُ حَرْثَ الآخرةِ نزِدْ له فى حرثِهِ ومن كان يريد حرثَ الدنيا نُؤْتِـهِ منها ومالـه فى الآخـرةِ من نصـيب » •

وقد وعد الله عباده المستضعفين ميراث الأرض • وعد ذلك عباده المستضعفين الصالحين ، كما ورث خالد وسـعد دولتى فارس والروم ، لا بعقلية فارس والـروم ولا بمعـادن حضـارتيهما •

ورثنا نحن الاستعمـار بمعادن حضارة الاستعمار ، فنحن وان لم نشعر بذلك جزء منه • كان الاسـتعمار هو الغيـلان •

وكانت حياة الكلية ومعيشـة الداخليـة والدنس والطـابور والجمبـاز والكرة والعدس والفول والأرز والحصص وسمت النظام وارتقاب التخريج والوظيفـة والمستقبل ••• ذلك كان هو طعـام الغيلان ••• طعام الغيلان الذى يقتل حرارة القلوب وتنسلب معه حيوية الارادة •

« أخـرج وانتظـرنى بالمكتب » •

ماذا كان يحـدث او لم انتظره بالمكتب • أغلب الظن «لاشىء» • كان يرسل ••• هذه لا تنسى • وانتظرت باذعان الطاعـة ، وتأميل الرتبة •••• وجاء الى فلا يجدنى • وفى الغد كان ربما نسى غيظه العارض ان لم ينس كراهيته « الصول » بتيلته التى غمسها فى الملح •• وجلدنى ، احسبه جلدنى تيليتين •

وكان قل أن يبلغ بعقاب التيلـة أكثر من اثنتـين فى الاكثر الاغلب • وثلاث جلدات عقاب أشـد صرامة وأندر • وسـمعنا أنه ربما بلغ بالعقاب سـت جلدات فى الاحيـان النادرة جدا • وكان لا يسمح بأكثر من أثنتى عشـرة على أية حـال من الجهة القانونية النظرية البحتـة فيما زعمـوا • وهـذه كانت كأنها درجة الاعدام ، فلا أدرى لاى الذنوب كانت تدخـر •

كانت التيلتان موجعتين ومكث وجعها أياما وصداه زمانا طويلا • وغضبت على الصـول ومن أمر « الصـول » والظروف التى أتاحت لهذا أن يأمر •• وغضـبت على الدنيـا •• وغضبت على الاسـتعمار ••• وغضـبت على الاستعمار ••

صـدق أحمـد شـوقى :

وللمستعمرين وان ألانـُوا قلوبٌ كالحجارِة لا تـرقُّ

شاهد ذلك التيلة ــ « وإنّ من الحجـارة لما يتفجر منه الانهار ، وإنّ منها لما يشقّق فيخرج منه الماءُ • » صدق اللـه العظيم •

كانت تلك العقوبة الأولى فى أخـريات النصـف الاول من عام التجهيزى الاول • وتبعتها أخرى ، جلدتان أيضا توجع وأضرنى •جرتهما على «الطلبة» اذ لم يرض «الصول» عن أدائى فيها أو أحس منى خنزوانة غرور • وقالوا لى فى العنبر ان مرتين فى عـام فضلا عن نصـف عام شىء كثـير تخـاف عواقبه ، وأشعرونى أن مستقبلى الان فى خطر ، والفصل ألف ، والمجـانية والمنحـة التى يقـال لها Scholarship •

ــ تّيلـوك ؟ !

ــ مرتين تيلـوك وفى التيرم الأول !

ــ وكمـان أول اللجنـة ؟

ــ فتـح عينك يا شـافع •

وفتح الشـافع عينيه • أم لم يفتح عينيه ولكنها عنايـة الله •

لم يعـاقب بالتيلــة ولا بالطلبة حتى ألغيت ٠

مرة واحدة ضربه أحد المفتشــين أولاد البلــد كف !

كان يتدين ويستعين بالله على اليتم والفقر والمصـائب والناس ٠ رأى فى وجه جدته أعيـاء وكانت تشـكو ولم تذهب الى سـوق السبت ٠ وباعوا شجرة بريـال ونصف ليحصل على ثمن ربع الاجـرة ليعود به من العطلـة الصغيرة ٠ ومر زمان يسير ، أسبوعان أو ثلاثة وأخبروه أن جدته توفيت ٠ وسقطت دموع حـرار وهو يتجلد لكيلا يظهر أنه تأثر بالمصيبة ٠ وكـانت جدته تقول اذا سمعت بموت شخص أثير : « هلا هلا ، انا للـه وانا اليـه راجعون » ٠٠٠ وحزن حزنا : « هلا هلا يا حبوبـة » ـ أى يا جدتـاه ـ « انا للـه وانا اليـه راجعـون » ٠

والمـوتُ نَقّـادٌ على كفّـه جواهِـرٌ يَخْتار منها الجياد

كان ظاهرا عليها المرض وممتقعا لونها شـيئا وأحس فى نفسـه خـوفا عليها ٠ وهل تقوى أمـه الرقيقة قلب الحنـان على هـذا الدهر الشـرس بعدها ٠٠٠ ولقد توالت الرزية بعد الرزية ٠٠٠ وكان فى الحوش الذى فيـه بعر المعزى ينظر الى أسمال أشـجار السنط ويخشى أن تموت ٠٠٠ ويذكر اذ مـات والده وأخوه ٠٠٠ والدهر غير مأمون ٠٠٠ ولو ماتت أمه ووقـع العبء عليه هو لكانوا اذن مثل « محمد وأخته ، فى سوق الخلا » (١) حينما حرمتهـا أمرأة أبيهما من طعـام الوليمة وقالت لهما أحرسا هذه القـدر حتى تفـور ، وغطتها بجلد وما كان فيها الا حصى وماء ، ٠٠٠ وقدها محمد لما اشـتد به الجـوع وأخذ أخته وهربا وسكنا فى سوق الخلا » ٠٠٠ كـل الاحـاجى تحمل معنى قويا رمزيا من حياة الناس ٠

رحمهمـا اللـــه ٠٠٠

ونودى بعد أيام قليلـة ، أقل من أسـبوع وأروه تلغـرافا يحمـل نعى

(١) سوق الخلا اى وسط وحشة الصحراء المقفرة كان الخلاء القواء اقام سوقه هنـاك

والدته ، لم يصـــدق ، والدته ؟ ولقريبا ما تركها كأصـــح ما تكـــون ....
هذا غير ممكن .. مثلما ترك أخاه من قبل كأصـــح ما يكـــون ... عليك أن ترضى بقضاء الله يا بنى ... لامفر من تصـــديق الخبر المر المشئوم ... وأظهر الجلد على أشد حر لاذع ... هـــو الآن فى « ســـوق الخـــلا » ... يا للمصـــيبة الرعنـــاء ...

واذا المنيـــةُ أنشـــبَت أظفارَها ألفيْتَ كلَّ تميمـــةٍ لا تنفعُ (١)
والدَّهرُ لايبقى على حَدَثانه جَوْنُ السَّراةِ له جدائدُ أربع
والدهر لا يبقى على حدثانه شَـــبَبٌ أفزَّتهُ الكِلابُ مُرَوَّع
والدهر لايبقى على حدثانه مستشعِرٌ حَلَقَ الحديدِ مُقَنَّـــع

يا للفاجعة ... والله يحكـــم لا معقب لحكمـــه ..

حف به زمـــلاء لما سمعـــوا يواسونه (لا يستطيعون الكلام ، وطلبوا لـــه شايا من عبد الباســـط ... وفى الليل (سيسافر غـــدا الى البلد لحضـــور العزاء مع البقيـــة الباقية من الاسرة) ـــ فى الليل ســـمع أصواتا من أنس الناس المعتـــاد ، واغتاظ للوحشـــة والانفراد بأسى المصيبة .... ووقـــع صـــدق الخبر الذى كان من قبل ضربة صـــدمة عليه وقوعا ثقيـــلا فر منـــه الى الدمـــوع المنهمرة الغزار وهو أحـــر شىء فى حشـــاه .

طوى الجزيرةَ حتى جاءنى خبـــرٌ فَزِعتُ منه بآمالى إلى الكذِب
حتى اذا لم يـــدَعْ لى صدقه أَملاً شَرَقْتُ بالدَّمع حتى كاد يشرق بى

كانت والدته أصـــبر الناس وأنبلهم وأحبهم ...

---

(١) الشـــعر لابى ذؤيب . المنية ، الموت . التميمة العوذة كما نســـميه نحن الورقـــة والحجاب الذى يتخذ لدفع الشر والعين . جون السراة : اى اسود الظهر ، ويعنى به الحمـــار الوحشى وكان يعد من رموز القوة ، وجدائد اى زوجات جمع جدود بفتح الجيم وهى الحمارة الوحشية التى خف لبنها من اجل حملها ، شبب بفتحتين ، الشبب هو التام القوة من الثيران الوحشية . افزته ، الزاى مشددة ، اى شردته واتبعته . مستشعر حلق الحديد اى لابس على جسده الدرع المصنوعة من حلق الحديد ، مقنع اى مدجج بالسلاح له قناع من الحديد . يقول الشاعر ان الدهـــر لا يبقى على حدثانه شىء مما يسبق الى الوهم انه رمز من رموز القوة .

قالوا أصابتها حمى التهاب فما أمهلتها • وقد أصابها ارهاق شديد بعد وفاة والدتها • ورامت أن تكتم خبر وفاتها عن ابنها اشفاقا عليه وذلك ما لايستطاع ••• لقد بهظها ثقل الفادحة • كانت تكظم الغيظ وتعفو وتُحسن العشرة وتطيب النفس ولا يستفزها شَرّ الناس الى الغضب ••• كانت كما قال عن ابنته الملك لير، رقيقة الصوت ، خفيضته ، زين النساء ،

.... Her Voice was ever soft
Gentle and low, an excellent thing in woman ....

والآن ذهبت الى الأبد ولن تعود •••••

ويحيا الأوزاغ والخنافس وأبناء اللكيعة •••

ويتحدثون وأسمع أصواتهم وأبكي •••

ذهبتا كلتاهما معا الى الابد •••••

ذلك الذهاب السرمدى •••••

ومضى الى البلد •••• وبكى وبكَين شجوهنّ ••

ثم شهد فراش البكاء ذا الخشونة والكِسْرة والسلوان الغليظ ، ثم عاد والفؤاد مكلوم •

قال له أحد أصحابه وكان شاعرا ، أرجو أن تكون تأسيت

وما المـوتَ الا سارقٌ دقّ شخصُه يصُولُ بلا كفّ ويسعى بلا رِجْل
يَردّ أبو الشبل الخميسَ عن ابنهِ ويُسْلِمه عند الولادة للنَّمل
اذا ما تأملت الزمانَ وصَرْفَه تيقنت أن الموتَ ضربٌ من القتل
وما الدهرُ أهْلٌ أن تؤمَّل عنده حياةٌ وأن يُشتاق فيه الى النسلِ

وأخذ نفسه بحزب القرآن يتسلى بالنظر الى أسطار آياته يجد فيهن راحة نفس وبرد عزاء : « واتل عليهم نبأ ابنَيْ آدمَ اذ قرَّبا قُرْبانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الاخر قال لأقتُلنّكَ ، قال انما يتقبل الله من المتقين » • كان ربما صام يتطوع به • وربما نهض فى الثلث الاخير كسابق عهد أبناه لولا أنه ليس كمثله ندى صوت •• وارتضخ أخطاء فى القراءة ما صححها

إلا بعد زمان ومن أخطاء الصبا مالا يستقيم على التصحيح •• كان يستيمن بالعبادة ولا سيما التلاوة على اليتم والفقر والمصائب والناس • وكان فردىَّ المزاج فى جميع ذلك • وربما صدت نفسه عن الأوراد المرتبة والسموت المحفوظة والطقوس الموضوعة • كان لا يضع راحة يده فوق جبهته بآية الكرسى بعد صلاة الصبح ، يقرأ آية الكرسى فقط ، سرا فى الغالب • وسمع عمة له تقول وهو صغير :

سورة البقرة للدارسين

وآية الكرسى للتحصين

قولاً مأثوراً من باب ما ينشد • وكان لا يرفع اصبعين اصبعين الى فمه وعينيه يومىء بهما ويقول حبيبى وقرة عينى عند التشهد الثانى من الاذان • ويسمع من الساجدين وسوستهم « سبحان ربى الأعلى ، سبحان ربى الأعلى » فقلما كان يصنع ذلك — ولا أبدا « حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه » يسمعها ممن يتكلف بها التقوى من يمين أو شمال • والمطولات التى قبل تكبيرة الاحرام ، وبعد السلام ، والتمهيد للباقيات الصالحات بجل الباقى سبحانك سبحان الله ، يرفع بها بعضهم أصواتهم ثم يتخلصون الى التسبيحات التسع والتسعين كما يتخلص الشاعر بجهد من النسيب الى المديح :

أُحبّكِ أو يقولوا جرَّ نملٌ ثبيراً وابنُ ابرهيمَ ريعا

والسدل كان أحب اليه من القبض كأن فى هذا من بعض الناس مبالغة فى اظهار الخشوع مع ما يتزيدون فيه من احناء وخضوع رأس وتطبب بعضهم بوضع الراحتين فى حيث يظن أنه من صدره مقابل لموضع القلب• وأصناف من جلبة الجماعات كانت لا تعجبه • واعترض بعضهم بجهر الدعاء يقطع به ما يسر به مخلصا الى مولاه يأمل أن يستجاب ••• كان صائما يتلو فى زاوية التلاميذ •

وضرب جرس طابور العصر ، طابور الساعة ٤ ــ الجرس الاول • وبعد خمس دقائق سيضرب الجرس الثانى •

كان طابور الساعة ٤ (بعد الظهر) عظيم الخطر ، أعظم خطرا من طابور الصباح • ما كان تلميذ أو رئيس ليحضره يلبس شبشبا أو على رأسه بشكير • كان مكتمل النظام يحضره جميع التلاميذ ، الداخليون والخارجيون بالجلاليب البيض والعمائم ، عمائم التجهيزى ذوات اللفة الظاهرة المعروفة • ويشهده رئيس المشرفين The Senior Tutor وجميع المشرفين ومساعدوهم وضباط الداخليات والرؤساء ورئيس الرؤساء • وكان يهيمن على الطابور جو هيبة ، واستشعار صمت • كان الصمت لزاما •

وكان أحد المشرفين حديث عهد بقدوم ، شابا شديد الحيوية يتحفز كالنمر وهو بملابس الرياضة ، قميص ذى لون باهت الزرقة ، وشورت (سراويل قصير) من الكاكى ، وحذاء ألعاب ، ويغز كوعيه ، ويمشى قلقا عند مكان داخليته الى نصف الميدان •

كان طابور الساعة الرابعة يقفون فى الميدان الغربى من الحيز الذى هو مباشرة أمام مربع مبانى الكلية الرئيسى •

وفجأة يثب النمر باشارة من مخلب يده الى فريسة من تلاميذ الطابور :

ــ •• ؟ •• Talking

ويجثم صدى وقع الصاعقة على الطابور جثوما

Come to my office —

وهى التيلة لا ريب فيها •

وكان النمر ربما حضر الصباح ووثب :

See me at one Thirty —

ويكون صَبَّارة (١) غداء المسكين أن تتغذى به النيلة من قبل فلا يصل الى السفرة (قاعة الطعام) الا وهو ناشف الريق •

وربما سمع النمر يجوس بعد الساعة التاسعةمساء مباشرة • وتلك كانت ساعة اطفاء النور وأخذ التمام وعلى كل أن ينام ••• وكانت أكثر الليالى انما هى ليالى صيف لا يستطاع فيها نوم الغرف ، فكان معظم التلاميذ ينامون فى الميادين ، يخرجون سرايرهم من المنابر ويفرشونها •

Talking ?

وفى الليل ، ولا سبيل الى تبين الوجوه ، يتجسس اتجاه الصوت ، ويرين السكون الساكن كما لو قد انعدم النسيم ••• وحين ييتيئس النمر من معرفة الذى تكلم ربما يزأر : ••• ؟

Who is talking there ?

سكوت دامس ••• ويجوس قليلا ثم ينصرف •

ـ أمانه الخواجه دا مش مفسر ••• (أى أما انه للئيم ومشئوم) ـ ثم يتبع ذلك لغط يذمه ربما جعل تعلو أصواته شيئا فشيئا •

ـ خلاص يا جماعة خلونا ننيم •

ـ خلاص انتهوا

Talking ?

هذا أحد التلاميذ يقلد صوت النمر يخيفهم به •

ـ انتهى يا مخلص

ـ خلاص ، كفاية •

لما ضرب الجرس الثانى كان « الشافع » قد قارب ميدان الطابور • يمشى خطوة خطوة • كان فى السنة الثانية فى نصفها الاول • كان مطمئن النفس التى تريد أن ترجع الى ربها راضية مرضية • وما كان يخطر بباله أن

---

(١) الصبارة الشيء القليل ياكله الجائع الذى ينتظر طعاما كثيرا جيدا ليتصبر به •

أحدا سيؤاخذه على تأخير دقيقة أو دونها وهو صائم • وكان يريد أن يقول للنمر اذا قال له يزأر :ـ

Coming late ?

ـ اللهم انى صائم •

يترجمها طبعا ويتأدب : I am fasting, sir

وستهمد جمرة النمر همودا • كل الخواجات يعملون حساب الدين ، هكذا فكر وقدر • ولله درأبى الطيب اذ يقول :

فلا تَنَلْكَ الليالى إنَّ أيديَها ... اذا ضَرَبْنَ كَسَرْنَ النَّبع بالغربِ

وربما احتسبَ الانسانُ غايتَها ... وفاجأتهُ بأمرٍ غيرِ محتسبِ

وكان أمر الله قدرا مقدورا •

كان أحد المشرفين أولاد البلد (وكان المشرف ابن البلد شيئا نادرا وانما استحدث ذلك منذ زمان قريب) وكان قلما يحضر طابور الساعة ٤ تحديا اذ كان « وطنى جدا » ـ هكذا كان يقول الطلاب ـ كان قد جاء • ولفت نظره الحشرة الصغيرة الذى يمشى بغرور كبير من بداية المدخل غير مكترث بأجراس الطابور ، كأنما كل هذا العناء غُثَاءٌ • وكأنما قال لنفسه سالقنه درسا لن ينساه ، ولن ينساه هؤلاء الخواجات ، هؤلاء الاولاد المغرورون جميعا •

كان الكف قد انتهى منذ أيام المدرسة الوسطى ، وحتى فى المدرسة الوسطى كان يقال انه فى القوانين ممنوع •• وهنا فى الكلية لا يتصور • ولا يوجد لفظ يدل عليه فى كتب المطالعة الانجليزية وملحقاتها ، مما يدل على أن الخواجات لا يعرفونه • الخواجات يعرفون الخيزرانة The cane والجلدة The rod ومن أقوالهم •• (١)

Spare the rod, spoil the child

ويعرفون التيلة طبعا ويعاقبون بها المجرمين الكبار فى بلادهم ويقال لها السنور The cat ذو الاذيال •

---

١ ـ اى اذا لم تضرب الطالب ابطرته •

وجـاء الولد الصـائم يمشي بثقـة •
تعال هنا •••• ناداه المشرف • ومشى اليه بثقـة وبنفس نوع الخطـوات التي كان قدم بها ••• وهذا مسلم « وطنى جد » وسيعرف أنى صائم ••• ولكن ما هذا ؟ ••• «رن» واذا «بقلم» يلمع كالبرق ينصب على خده الايمن والايسر ••• كف ! ••• وجمد حزينا اذ سـقط سيف القدر •
ـ «يالله ، روح الصـف»
•• وجمـد لا يتحـرك •••
ـ يالله ـ ولد مغـرور ••• روح الصـف •
ورويدا رويدامشى ••• وانصرف الطابور •• ولم تتنزل صاعقة من السماء • ••• وكظـم التلميذ الصغير الصائم غيظا كبيرا ••• لماذا لا يغضـب اللـه الذى أهلك أصـحاب الأيكـة وثمـود ••• ؟ !

خرجت صحيفة طلابية باللغـة الانجليزية أسمت نفسها الرصاصـة The Bullet وانتقدت أن يلجأ شخص عزيز عليها الى استعمال ال Slap ••• أخـيرا وجدوا الكلمة الانجليزية المرادفة للكف •

وذات صباح وجدت على جدران السلم الغربى الكبير عبارات انجليزية مسجوعـة تهتف بسـقوط النمر ••• !! Down with Brown
كانت السجعـة هتافا رهيبا وصـدمة ذات رنين •

لعلها كانت أول هتاف (وان لم يصـدح به أحـد ، وانما كان خطـا على جدار) منذ أيام الاضراب سنة ١٩٣١ • على أن المستر براون كان من خيرة المدرسـين ومن أجود من شاهدناهم ونحن تلاميذ وأساتذة من رجـالات التعليم أيام الحكم الثنائى • وقد صـار ناظر مدرسـة حنتوب الثانويـة بعـد خبرة وطول تجارب • وهذه كانت احدى المدارس الكبيرات الـلاتى تفرعت اليهن كلية غوردن القديمـة ؛ بعد انشـاء المدارس العليا ثم الكلية الجامعية•والى المستر براون ينسب نظام عرف باسمه The Brown Plan أحسـبه عـرض على الاسـاتذة فى بخـت الرضـا أخريـات

الاربعين ثم نوقش ليطبق ثم عدل عنه • وهو بعينه الذى أخذت عنه طريقة السلم التعليمى الذى قرر منذ زمن قريب ، فاستبدل نظام المدرسة الاولية فالوسطى فالثانوية (أربع سنوات لكل) بنظام الابتدائية ست سنوات ، فالثانوية العامة فالثانوية العالية ثلاث سنوات ثلاث سنوات • وليس أحد النظامين بمنج من حقيقة المنافسة الشديدة التى تجعل من التعليم عندنا المعاصر كله لا سلما ولكن هرما قاعدته المراحل الاوليات وقمته الجامعة • ولقد جر الرجوع الى نظام براون وتطبيقه فى عجلة الى اضاعة زمن ، قريب من عام ، ينقص أو يزيد ، ونشأ من ذلك هبوط فى المستوى زيادة على ما كان من هبوط بسبب التوسع من قبل السريع •

هذا ، ••• وكان المستر براون ذكى القلب متقد الذهن ذا نشاط وتفان فى العمل واخلاص – يتعصب للداخلية التى يكون مشرفها ، قفز مرة من بين مجموعة الاساتذة المتفرجين الى أرض الميدان حيث كان تلاميذ داخليته منهزمين هزيمة ظاهرة فى جر الحبل ، فجعل يشجعهم بحماسة منقطعة النظير وتوقيع منتظم : One- two-three ..Pull

P u u u u ll ....

حتى انتصروا وأخذوا الدرقة •••••

••••• وللفصل الذى يكون قيمه ، والزملاء الذين يكون رئيسهم • وكان يحب الرياضة البدنية ، الكرة بأنواعها والجمباز والسباحة وأعمال الزراعة • وكان يحب الرحلات ويخشوشن ولا يتنطس حين يسافر مع الطلبة فى طعام ••• وكان آخرون يأبون الا أن يضع فراشوهم لهم المناضد عليها الاشواك والسكاكين ، وبعد مغيب الشمس يلبسون البنطلون الابيض والقميص الابيض والحزام الاسود الذى كان ينوب عن بدلة العشاء فى هذه المناطق الحارة عند انجليز المستعمرات • عند عباد المسلمين كان ينوب التيمم عن الوضوء • « لخوف ضر أو لعدم ماء » كما قال ابن عاشر • والقياس مع الفارق • وهذه يا سيدنا جنتهم •

كان ربما أكل الطعام الوطنى واستحسنه (الطعام الوطنى أى native food) • وكان يشارك تلاميذه جميع وجوه نشاطهم فى يسر وبساطة • مشى الاميال الخمسة والعشرين بين أركويت وسنكات معهم لا يبالى • ووقف معهم باحترام يسلم على السيدة الشريفة ذات الجاه • وكان ذا مروءة وشهامة ومتانة خلق • وكان مع هذا حسن الفهم لمادته ، جيد التفهيم لها • كان يدرس العلوم العصرية من كيمياء وطبعيات وحيوان ويشارك فى الرياضيات ويجلس مع التلاميذ يحل معهم المسائل فى جد وصبر • وكان قويا فى الشطرنج من غير فرط اقبال عليه • ومع الذى بدر منه أوائل أيامه من تنمر وشدة حتى استدعى ذلك الهتاف ، كان ذا رآفة وتسامح وفؤاد رحيم • دخل مرة أثناء ساعة المذاكرة التى كانت مفروضة فى المساء وكانت مما يقال فيه talkig ? ومما قد تنشأ عنه تعرضة للنيلة أو للطلبة أولهما كليهما عند سوء الحظ ••• فوجد على السبورة رسما يمثل حوض العوم الجديد حوله أصناف المعزى تلبس التبابين (المايوهات) والجلاليب والبدلات • واضح أن المعزى كان يراد بها الكلية بأسرها تلاميذها ومدرسوها أولاد بلد وخواجات ، الى فراشيها • عنود (١) مشلخ شايقى تيس عليه شلخ عبد لابى T سلم الشيخ الطيب ـــ الشيخ العبيد ـــ قصة شعر مشقوقة فوق رأس العنز بين قرنيه مثل مستر فلان ومستر فلان ـــ وهذا تلميذ يمد ذراعيه يريد أن يقفز للغوص Diving يريد أن يتمدن ، الكلب • وهذه غنماية تلبس جلابية وبيدها كوب شاى ••• ووقف يتأمل حينا بانتباه شديد وفصل المذاكرة واجم ينتظر كارثة ••• وتناول الطباشيرة وجعل يصلح

---

١ ـــ العتود ولد المعزى • الشلوخ فى اللغة الاصل وفى دارجتنا الجروح التى تخط على الخد لتميز أصل صاحبها وتنسب الى القبائل والى مشايخ الطرق لان بعضها كان فى أصله تعاويذ •

بعض الاشكال ، وينظر الى ما يصلحه بتأمل ‥ ثم التفت الى الفصل الواجم

وقـــال : (هـــذا جيـــد جـــدا) That is very good

من رسم هذا ؟ هل رســـمت هـــذا ؟ ٠

كان صـــادقا فى الذى أبداه من استحســـان

_ هذا جيد جدا ٠٠٠ حقا That is very good... very good indeed

لعل الذى بدر منه من قســـوة من قبل انمـــا كان مـــع طيش الشـــباب نحـــوا مما ذكره أبو تمام حيث يقـــول :

فقسا ليزد جروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

ولعلهم كانوا تلقوا أوامر وتوجيهات من عل فى ما يتعلق بالاســلوب الذى ينبغى أن يتبعوه مع أبنـــاء الاهالى الذين هم فى طـــور اعداد لاستقبال أرشد وأقل وحشـــية ، فكان بحكم طبيعة ميله الى الولاء والاخلاص ، أشـــد لها طاعة ، وأكثر بهـــا التزامـــا ٠

كانت صـــدمة الهتاف المسجوع مما نبهه بلا ريب

ولكنه أيضا قد كان من معدن طيب ٠ وقديما قال أخو ذبيـــان :

ولَسْتَ بمستبقٍ أخاً لا تَلمُّه على شَـــعَثٍ أيُّ الرجالِ المهـــذَّبُ

ومكث زماناً وأفاد منه طـــلاّب كثيرون ٠ وأحسن الحطيئة اذ يقول :

من يفعل الخَـــيْرَ لا يعدم جوازِيَهُ لا يذهب العرف بين الله والناس

ألفيت التيلة والطلبة سنة ١٩٣٧م وذهب المستر وليامز وجاء المستر سكوت ٠

كان المســـتر وليمز فارع الطـــول ، قوى البنية ، يمشى صلت القوام مع جنأ يسير جدا فى العنق ، وكان منظرانيا ، جنديا فى هيئة المشـــية وتعبـــير الوجه ٠ وكان له كلب جسيم ٠ وكان كأنه مضروب عليه حجاب كثيف فلا يراه أحد الا بمقدار ٠

أحيانا يمر بالكرة والجمباز ٠ قل أن يزور الفصـــول ٠ ربما رئى يتمشى عند شاطى البحر (١) أو يجتاز الى مكتبه من طريق الميادين ٠ وكان أكثـــر

(١) البحر اى النيل ، قال الشاعر بالدارجة : بحر النيل ال ما بينقاس ٠

ما يرى عندما يكون فى كامل أبهته وهو يشرف على حفل التخريج ، ويشهد نهاية مباريات موسم الالعاب ويوزع جوائزه الكبريات .

وكان ربما استدعاك للتحذير فى مكتبه . أما النيلة فكان يقال من أمر له بها فى مكتبه فلا ينقص من أثنتى عشرة جلدة ، الرقم الخيالى ، وما عرف أنه أمر بذلك لاحد ، ولكن شبح هذا التنين القانونى كان يتقدم المدير الجسيم حيث سار ، ويطوف حول مكتبه ذى الأستار ، ويبث **المرعب فى** قلوب أبناء الاهالى الاشرار .

وهذه سنة ١٩٣٦م ، ثانى مرة يرى « الشافع » اسمه مطبوعا مع كلام له مطبوع . وأقبل على ديوان المتنبى بشرح البرقوقى يقرأ منه قصيدته الميمية :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم   عرضا نظرت وخلت أنى أسلم

يتعلم منها الهجاء . وأنشد كلمة جاراها بها لصاحبين له ، فقالا له أن هذا كلام خطر .. وأحس بوحشة شديدة وانكسار ... وأحس أيضا بنجاح وشعور تحد وعناد ... ونقل الكلمة بخط جميل فى أول كراسه زرقاء الغلاف ، بيضاء ناصعة الورق ، منسابة الاسطار ...

وجاء امتحان آخر السنة فطاح باطل « النيرم » (التقدير الشهرى) . هو وزميله الذى وقف معه أمام المدير استمرا كما كانا .. مجانا والمنحة وثانية ألف . وتدهور من الفرسان الثلاثة أثنان فلم يعد لهم وجود . وانضاف الى الفصل ألف فى السنة الثانية من الذين كانوا فى السنة الاولى « باء » عدد كانوا حقا من المبرزين ، منهم أبو بكر على رضا وصغيرون الزين وناهيك بهما . أخذ أبو بكر على رضا جائزة الانشاء الانجليزى للصغار ونحن فى السنة الثانية ، وأخذ صغيرون الزين جائزة المعلومات العمومية المفتوحة لكل طلبة الكلية كبارهم وصغارهم ونحن فى السنة الاولى وكنا صديقين منذ أول عام صداقة حقة استمرت بحمد الله الاعوام

الطوال ، وبقينا معا فى فصــل واحد الى آخر أيامنا بالكلية • وانضاف الينا بعض من كــانوا معنا فى الســنة الاولى وتأخروا فى السنة الثانية شــيئا ، واحــد واثنان • وظل الفصل فى جملتــه على حالــه لا يتغير •

فى السنة الثانية حولنا من الحجرات الخمس التى خارج البناء الرئيسى الى المربع الرئيسى نفســه ، فى طابقه الأعلى ، فى آخر جناحه الشمالى عند ركنه الشرقى حيث يلتقى بالمعامل • وظللنا فى تلك الحجــرة يتغير اســمها من ثانية ألف الى ثالثة ألف الى رابعة ألف حتى تخرجنــا • هى الآن بعض المكتبة العمومية الكبيرة • ويا طالما قد صــعدنا وهبطنا ثم صــعدنا عنــد سلمهــا الكبــير •

لن يلبث القُرناءُ أن يتفرقوا ليلٌ يكرُّ عليهــم ونَهــار

تعجبنى كلمة الكاتب الانجليزى شارلس لام Charles Lamb التى فى أولهــا يقــول : I have had playmates, I have had companions

in my days of childhood, in my joyful School.

All, all are gone, the old familiar faces.

مات من فصلنا أحمد السيد ، وطه عثمان بليــة وعثمان البــدوى المبــارك على هذا الترتيب وكلهم بين الشــباب والأشــدِّ واستواءِ السن من الرجال• رحمهم الله رحمــة واســعة انه ســميع مجيب •

لما كنا فى الســنة الثانية جاء المستر ســكوت فخلف المســتر وليمز •••• وألغى التيلة والطلبــة والتيرم جميعــا •

كان المســتر سكوت من أهم رجالات من ما رســوا التعليم فى السودان الحديث • ولعله أن يكون أهمهم جميعا بعد المستر جيمز كرى الذى كان على يديه أول تدوين مصــلحة المعــارف وانشــاء كلية غوردن • كان مجــددا وذا ثورة وصــاحب أفكــار •

قدم الســودان ليلتحق بالسلك السياسى فاقلقه ذكاؤه عنه الى التعليم • كان صغير الجسم ، الى القصر ، منحنى أكتاف الظهر ، حسن طلعة الوجه ،

قصير سبائب شعر الرأس ، يمشطها على طبيعة استدارتها فى الرأس فينحدر منها جانب قليلا على أعلى جبهته وليس بأغم •• أفلت من ان يكون أغم ••• وليس بأنزع •• تخالط لونه صفرة تعرض الحركة والهواء والشمس ، يتكلم بنبر واضح وتمثل للمعنى فى الاداء وتعبير الوجه مع مبالغة ما •.وفى عينيه بريق ذكاء وعلى خديه أسارير ابتسام ، ويلوى فمه العريض يتأمل ، ويضحك ضحكة يحتسبها مفتعلة ، تخالطها من أنفه غنة وجرس زفير خفى قصير ساخر متهكم •

فتح المستر سكوت صدره للتلاميذ يسمع منهم ويناقشهم • بدأ أول الامر بالرؤساء يدعوهم فى منزله الى الشاى ، بأزفلات من التلاميذ الكبار ثم جعل يرى • يمر فى ساعات الفسحة ــ وفى الظهر والعصر فى الميادين • ويقف عند الجالسين يتحدثون فيتحدث • يسلم بالعربية وكلمة وكلمتان بها ، فصيح اللسان ، ويتحدث بالانجليزية • لا يطيل فى الحديث أثناء نحو هذا من المرور ويقف عند الالعاب يشاهد •

ــ الخواجه ده نمس •

استكتب المستر سكوت جميع التلاميذ فى جميع الفصول من طريق أساتذتهم مقالات يتحدثون فيها عن حياتهم فى الكلية ينتقدونها لا يتملقونها أو شيئا من هذا الريف ، بصراحة وحرية • وأوجس بعضهم خيفة •

ــ دا عاوز يكشفكم اعملوا حسابكم •

ــ دا قسيس كبير •

ــ يا ود اكتبوا • ما هو قال ليكم انتقدوا ــ اكتبوا الجد •

ــ ما تخافوا •

ومن لم يصانعْ فى أمورٍ كثيرة يضرَّس بأنيابٍ ويُوطأ بمنسم

ويقول آخر من أولاد العنبر أو الداخلية ــ ولا تخشى الآن زئير talking?

بعد الساعة التاسعة : اعملوا حسابكم •• انت ياشافع : talking?

وللمســـتعمرين وإن ألانوا   قلوبٌ كالحجــارة لا ترق

وينشدون أبياتا حسانا من قصيدة شوقى هذه القافية الرائعة التى كانت من مكونات الوطنية فى هذا القطر ، ان لا فى الشرق العربى كله ، على اقــل تقـــدير :

وللحــرية الحمــراءِ بــابٌ   بكل يــدٍ مضرجــةٍ يــدقُ

وللمســتعمرين وان ألانــو   قلوب كالحجــارة لا تــرقّ

ومن خُدَع السياسة أنْ تُغَروا   بألقابِ الإمــارةِ وهى رِقّ

غمَــزْتُ إبــاءَهم حتى تلظت   أنوف الأسد واصطرم المدق

وضــجّ من الشكيمةِ كل حُرٍّ   أبىٍ من أميــةَ فيــه عِتــق

كتب التلاميذ المقالات وأفصــحوا عن أنفســم يتهيبون ولا يتهيبون ٠

مثل and then he will be (tealed) ٠٠ ٠٠٠ عنــد الصول

وكتب كراســة كاملة أطلق فيها لنفسه العنان ٠٠٠ واخترع فيها الفاظــا الجلــواز الجــلاد صــاحب المقصلة La Guilloutine

حتى اسمها الفرنســاوى عرفوه بعــد أن قرأوا قصــة المدينتين المبســطة

وشــهدوا الفلم يمثل فيه رونالد كولان دور ســيدنى كارتون ويقول :

It is far far better life than I have ever known

ودور بازيل راثبــون يمثل الماركيز ٠٠٠ الاســتعمار ٠٠ Bah وتطأ حوافــر خيلــه على رؤوس النـــاس ٠

واندفعنا نقرأ عن الثورة الفرنسية فى ما كتب هيكل ومحمد عبد الله عنان — كتابه المحاكمات الكبرى — وفى كتاب

The Historian's history of the World

وكتاب the Kingsway History وغيرها التى بالمكتبة ٠ لم يتخرج المستر سكوت من أكسفورد أو كمبردج ٠ وكان فى تعليمه مزاج لاهــوت ، أكبــر ظنى ذلك ٠ وأخذ الناس به ، جيل الافندية جميعا ، الذين فى ســلالم الصعود الى عتبات الجاه ، والمناضــلون ، والمعاكسون والذين فى الاعداد — أخــذوا جميعــا على غــرة ٠

كان عميق الايمــان بتفوق حضارة قومه على حضارة العــرب والاسلام، مع اعجابه العميق بما انضوت عليه حضارة هؤلاء من روح المقاومــة ــ هل هى أصالة أو تعصب ؟ كان المستر سكوت أميل الى انها تعصب Bigotry كانت كلمة Bigo t من « البعابع » التى جعل هو بها يخيف الناس الصغار الناشئين الواعدين الذين كان هو شديد الكلف بمناقشتهم ومجادلتهم وتحــديهم و « قـــه قـــه قـــه قـــه ••••• »

ــ الخــواجه ده نِمْس •

كنا نعرف الشــك ونتحدث عن القدر وحرية الارادة وعن الالحـــاد والمعرى ومساجلات طـــه حســين والرافعى وعن كفــر بشار ومجون أبى نــواس ومقالة الحلاج « مافى الجبــةِ الا الله » • وقرأنا فى التأريخ أن الحياة نشأت أول شيء فى البحر وجاءت ذوات الفقار والحيتان والطيور الكبيرة والزواحف والثدييـــات • وكانت دراســة غير محكمة ، دراســة جوفاء لم يخلص منها الى قلوبنا معنى • وكان المدرس يمضى فيها كمن يمشى حافيـــا على أطراف شــوك يريد أن يكون مؤثرا ولا يستطيع ، من أجل نــوع فى نفسه من عدم الاطمئنان ، قـــالوا انه كـــان ملحدا •

وكرهت قصـــة « بلد العميان » وكانت من ضمـــن بغاضات كتاب المطالعة الســـادس ، وصورة هـ• ج • ويلز التى كانت معها ، وقصـــته (أى ويلز) الرجل غير المرئى • كانت لا تعجبنى ومسروقة من طاقية الخفاء التى فى الف ليلة وليلة فى حكاية الحســن البصرى الجميلة • فقط لمـــا كبرت تفطنت الى بعض أعماق معانيها • وقرئت علينا حكايته عن آلة الزمان

The Time Machine

(من بعد فصـــل متقدم تحت تأثير مســـتر سكوت وتوجيهه) وانتبهنا ولم يصـــل الى قلبى منها شيء • تأريخه الكبير عمل عظيم وتعرض فيه لأخبـــار المســلمين ونال ، الكلب ، من شخصية سيدتنا عائشة يريد بذلك الطعن على رسولنا عليه الصلاة والســـلام ، وقرأنا ذلك نحن بكل غفلة، واعجب بعضنا

لروح ما كانت فينا من التشـيع ، فقـد عرض الخبيث الملعون لمـا كان من تصدى أم المؤمنين فى خبر وقعة الجمل لقتال أمـير المؤمنين •

قرأت كلام كنقزلى مارتن Kingsley Martin من بعد فى كتاب ذكريات حياته وتجاربه عن هـ • ج ويلز H.G. Wells فكان الانطباعة التى خلصت الى نفسى عنـه فى ذلك الزمـان الغض السـاذج البعيد قد كانت صـحيحة كل الصـحة ••• واللـه تعـالى أعـلم •

كنا نعـرف عن نظرية التطور • وما كان غائبا عنا خبـر داروين ولا قول أبـى العـلاء فى الزمـان القـديم :

جـائز أن يكون آدمُ هـذا قَبْلَهُ آدمٌ على إثر آدمْ

وقالوا أن أصـل الناس قـرود • وتقبل هذه القضـية العقاد بـلا أدنى تشـكك اذ قـد قـال :

أيُّهذا الجيبون أَنعِمْ سلاما يا أبا العبقرىّ والبهلوانِ

وفى كثير من الناس من القرود مشـابه ولذلك قال النابغة :

أقارعُ عوفٍ لا أحاولُ غيرها وجوهُ قرودٍ تبتغى من تجادِع

وقـال أبـو الطـيب :

لسرىِّ لباسُه خشِنُ القطنِ ومروىُّ مَرْوَ لُبْسُ القرودِ

كتبت احدى نشرات التقدميين ، أحسـبهم جماعة وفدوا من الاشتراكيين الذين كان يقال لهم The Fabian Society عن مثقفى السودان الافندية المتطلعين الى الآفـاق أنهم يحاكون الحضـارة الغربية محاكاة القرود بـلا رونقـها أو أسـلوب أدبهـا •

aping western civilisation without its manner and grace

عول المسـتر سكوت على مهاجمة حصـون المقاومة الفكرية التى كـان يمثلها الدين واللغة وجوها وميراثها القديم ، فى الصـميم ••• واتبع فى ذلك أسـلوبا دقيقـا غـاية فى الدهـاء :

مناقشة الطلبة ، اطلاعهم على ما كأنه يتحداهم به من جوانب الفكر الأوربى ، الادب والفن ، التفكير الفلسفى ، التفكير الدينى ، التشكيك فى كل أمر مسلم به قديم ، وازالة العقبات التى تحول دون المضى قدما فى هذه السياسة ، أولها السياسة الاستعمارية القديمة وكل ما نقمه التلاميذ وانتقدوه فى المقالات التى لخصت له وقرأها جميعا ٠

ـ كشفكم الخواجة النمس ٠

اختيارات من الكتاب المقدس (١) لا بالانجليزية المبسطة المفتعلة محاكاة الأسلوب القديم كما فى قصة شمشون فى الكتاب السادس ولكن من النص الذى ترجم على عهد الملك جيمز الاول The authorised version مثلا رثاء داود ليوحنان ولم يجىء به بائخا كما فى قطعة الكتاب الرابع Reader IV التى جاء فيها The daughters of the Philistines هكذا بسطها الدكتور مايكل وست الذى كان جاهلا بطبيعة عقول العرب وقلوبهم ، وشديد الخضوع للفترمت الذى ورثه جيل مواطنيه عن عقلية عصر الملكة فكتوريا ، جاء به المستر سكوت كما هو ٠

وسئل عن معنى The daughters of the uncircumcised فقال يعنى بنات «الغلفا» بعربية واضحة وضحكته المحبوسة الساخرة ، (أى لا أنتم وحدكم تعرفون هذه الكلمة يابسطاء كتب المطالعة المبسطة) ٠ واختير لنا قطعات من جون بنيان وعرفنا عن Beelzibub (أى ابليس) وعن mephostopholis وقرأ لنا قطعة الأمير السعيد لاوسكار وايلد The Happy Prince والقطعة التى أولها : Vanity of vanities, said the preacher..

vanity of vanities all is vanity

ومن الشعر قطعات ، وأسطوانات مملوءة بأغانى من شكسبير تكتب

---

(١) الكتاب المقدس هو مجموعات الاختيارات التى وقع اتفاق المسيحيين عليها بالقبول انها من عند الرب وهى توراة موسى وكتب النبيين والقضاة والملوك وما اشبه وهذا يسمونه العهد القديم وما روى عن سيدنا عيسى عليه السلام واصحابه وهذا يسمونه العهد الجديد ٠

على السـبورة وتشرح ثم نسـمعها وندرك أن الاسـطوانات التى نسمعها مـن نونـوغرافاتنا :

أ فكـر فيـه واتأمَلْ أراه أجـلى واجمـل

وحتى « يحيـا الحـب » واجتهـادات عبـد الوهـاب

كلمـا وجهـت طَـرْفى نحـو وضّـاح المحيا

لم أجِـدْ فى الأفق نجما واحـدا يرنـو اليّـا

آه آه آه ٠٠٠

كلهـا لا شىء ٠

come away, come away death and in a sad eypress let me be laid

Fly away, Fly away breath, I am slain by a fair cruel maid..

لا أشـك أن هذا البيت سرق من أصـل على ٠٠٠

وعقد المسـتر سكوت حصـصا لتدريس نظـرية التطور واختـار أمثلة مباشرة من كتاب The origin of species يحضرها ويلخصها ٠

وينتظر منا أن نجادله ونطعن فى هذا التشـويش على أعمـاق عقائدنا ٠٠٠

ويضحك ضحكته الساخـرة ٠٠ انه هو بيلزبب (ابليس) Beelzebub

٠٠ انه هو مفستو فليس ، وهو شـيطان أوسـكار وايلـد الذى يعـوعى كديك الروم بحوصـلة تنتفخ ٠٠٠ واذا بدا منا تمسـك وتصلب أخـرج مدية ارهابه الفكريـة

أى لا تجـادل كالمتعصـب ٠٠٠ Bigotry

رمز المعارضـة التى تلبس العمامة والطربوش وتتزمت ويتمسك بارشادها الجهلة الفنطيقيون ٠ Fanatics يعنى المتعصـبين التعصب الشديد ٠٠ قـه قـه قـه » ٠٠ التعصب ٠٠ هذا يتناقض مع مفهـوم حرية الفكر ٠٠ حريـة الفكر الجديد الذى ألغى « التيلة والطلبة » وأعطاكم فرص المناقشة ومالم تكونـوا من قبل بـه تحلمـون ٠

Talking, come to my office at one thirty

ــ خــواجه خبيث

وكان يستشــهد المستر ســكوت فى معــرض النهى عن التعصــب بخبــر أولفر كروميل حين قــال لمعارضــيه : I beseech you, gentlemen, think it possible you may be mistaken..

« بحقكم يا ســادة ، ظنوا أنه من الممكن أن تكونوا مخطئين » •• وبالطبع ما كان أحد ليجسر أن يقول لكروميل « ظن يا ســيدنا حامى حمى الدولــة أنــه من الممكن أن تكــون أنت مخطئــا » •

وعسى كان المستر ســكوت يكثر من استعمال هذه العبارة يستشهــد بها لزملائــه الذين ينتقدون عليه سياسته ومن يكون على رأيهم من خواجــات رجــال السلك السياسى ذوى التفكير المحافظ القــديم •

كان المستر ســكوت شديد العارضــة شديد المراس •• كان اذا مر أحس التلاميذ به الجالســون يتآنسون فى الميــدان كأن أفعــوانا قد انســاب • حدثنا فى حصــص التطور عن الفيل المسمى « الماموث » The mamoth والنمر ذى الناب الاعصل The sabre—toothed tiger والمتحجرات fossils ومسافات الســنين الضوئية وملايين الســنين • ليت مدرسنا الذى كان غير حق جاد بنا ، اذ هذا كان مقــررنا فى التأريخ ، قــد كان أعدنا ولو باســم الوطنية ، ان لا باســم الفكر ، لهذا الذى قد تصدينا له الآن من الهجــــوم •

لم يكن المستر وليمز مخيفا • كان المخيف المستر ســكوت ، ينبســط الى التلاميذ وهم عن انبساطته يحجمون •

وافتتن به جماعــة • وتفرقت الاهــواء • وكانت تلك بداية دخــول وباء « الايدلوجيات » التى باســم التفكير تقتل التفكير ، وباســم الحرية تنعدم معهــا الحــــرية •

كان نظـــام الحكم الذى شرعه كرومر ، وخطـــه كتشـــنر ، وروجع على نهج خطا واضحة الغرض بعد ســـنة المظاهرات ، يمر بفترة حرجة تتطلب اعـــادة نظـــر وابتكـــار تغيير •

كان غبـــار سحابات عارض الحرب العالميـــة الثانية المبير يتصاعد شيئـــا فشيئا فى الآفـــاق • الحبشة الطويلة عهد الاستقلال داستها أقدام موسلينى ولم تعصـــمها سابقتها فى اتباع رســـالة المسيح عليه السلام من أن تقذف فيها الغازات الســـامة من عاصـــمة دولة أمـــة خلفـــاء قيصر والمســـيح • واجتاز هتلر وعســـاكره المنطقـــة المجردة من شاطىء نهـــر الـــرين ســـنة ١٩٣٦م • وأعيد فى مصر دســـتور سنة ١٩٢٣م بعد المعـــاهدة البريطانية المصرية سنة ١٩٣٦م • وجاءت فرق الجيش المصرى الى السودان ليكتسب الاشتراك فيه صورة معنوية محسوسة بعد أن كان مجرد اسم على مسمى :

ما مكرَمْ الا أخو مكرٍ وما النـــ ـحاس الا خِدن نَحْس أنـــزقِ

إن المعاهدةَ التى أمضيتمو حِبرٌ على ورقٍ وسوف يمزّقِ

هكـــذا كانت نتيجة تعلم الهجاء الخطر • ولقد كان مصطفى النحاس باشا رحمـــه الله من أفضـــل من تصـــدوا للقيادة الشعبية فى بلاد الشرق العربى فى العصر الحـــديث • وكان مكرم عبيد من أهل البراعة والبلاغة والمقـــدرة الصحيحة والذكاء النادر ــ شهد المنفى بجـــزيرة « ماهى » فى « ســـيشل » مع ســـعد باشا زغلول فى أوائل العشرين وعكف هناك فيما يذكر على درس القرآن مع بعض زملائه فى المنفى بعد رجـــوع سعد ، فلقن من ذلك ما أعانه على خطابته المسجوعـــة المرتجلة القليلـــة النظير •

كان المستر سكوت معروفا بانطوائه على روح ثـــورة فى داخل اطار السلك السياسى المستعمر فى ذلك الزمان • فكان يظن أن بعض ذلك بسبب عقـــدة أنه لم يتخرج من اكســـفورد أو كمبردج اللتين كان تخرج منهما معظم ــ (لا بل ــ) كل كبار أيـــام الحكم الثنائى • وكانت قد بدرت منه مخالفات متعمدة للتوجيهات التى صرفت اليه بوصفه مساعد مفتش جديد أول أعوام

عملـه بكـرد فان ... لعله الآن فى هذا الظـرف أن يكون أنسب من يعهد اليه بتهيئـة جو من التغيير فيه أنفاس من حريـة التفكير والتقدم والمرونة الامبراطورية القمينـة بطول البقـاء .

كان المستر سـكوت يعرف من العربية ، لا عربية المطبخ التى كانت لاتكاد النخبة الحاكمـة تعرف غـيرها ، أو كان اختها عربية الغيط ـ « انت يمسك ندافه للهواشة نهار دا » التى كان يعرفها مفتشو الشركة الزراعية بالجزيرة كـان يعرف الدارجـة البلدية كما نبه عليها المستر هيللسون والفصيحـة كما كان يدرسـها المستشـرقون . وهو الذى ألف كتاب الاطفال للمدارس الاولية وحمل عليه سـائر القائمين بأمـر التعليم من طريق المستر غريفث الذى كان يتولى الاشراف التربوى واعداد المدرسـين ببخت الرضا . ولقد اتفق أن كان ببخت الرضا الدكتور عبد العزيـز عبد المجيد بعد أن أقر هذا الكتاب بزمـان ، فافتتن به وصنع أشـياء على غراره فنقلها الى معهـد التربية الذى عمل فيه فى ما بعد ، ومن ثم أخذ عنـه تلاميذه فانتشـر داء كتاب الاطفال الذى صنعه المستر سـكوت فى بلاد العربية أجمع . على أن أوائل الـداء حقا قد بدأت منذ أن ألفت أمثال كتيبـات ألف أرنب با بط ومن يضلل الله فماله من سـبيل . والجـدل حول كتاب الاطفـال ونظيراتهـا الناظرات اليه وطريقته وفوائدها واضرارها مما يطول . وما شككت يوما أن ذلك واثمه أكبر من نفعـه ، وأن أفضـل أساليب تعليم العربية هو منهـج البدء بالقـرآن على نحـو الـذى كانت تصـنعه عندنا خلـوات القـرآن وما ذكره ابن خلدون فى مقدمـة تأريخه فى الفصل الذى تكلم فيه عن تعليم الولدان اختـلاف مذاهب أمصار الاسـلام وبـلادهم فى ذلك . والحق أن أوجـه الشـبه أكثـر من أوجـه الخـلاف .

هذا وقد أدخل المستر سـكوت على طريقة التدريس والعمل فى كليـة غوردن تغييرات جوهرية هى التى اتخـذت بعدها كل الخطوات المؤدية الى قيام المدارس العليا ثم الجامعة . وفى أولى سـنوات ادارته زارت بعثـة اللورد دى لوار التعليمية السـودان الانجليزى المصرى وأوصت أن يعـد

تلاميذ الكليـــة اعدادا يمكنهم من أن يجلســـوا لامتحان شهادة كمبـــردج ويحصلوا على اجازة « المتريكيو ليشـــن » التى تمكن صاحبها من القبـــول فى الجامعـــــات •

لقد كانت ادارة المستر ج • سى • ســـكوت G.C. Scott نهاية العهد الاستعمارى العسكرى القديم وبداية الطبق الثانى من طعام الغيلان :

Great nature's second course

« الطبق الثانى العظيم فى وليمـــة الحيـــاة »

قالوا حين نظم شكســـبير هذا الكلام كان الطبق الاول فى الولائم والمآدب من الاشياء الحلوة التى تكسر الشهية (أو تزيدها) شيئا والطبق الثانى هو الشـــواء وهو أهم ما يقدم • وهكذا كان الامر عندنا الى زمان قـــريب — يبدأون بلقيمات القمح (الزلابية) الحلوة مع التمر الجيـــد بعد ذلك الكسرة والملاح واللحم المحمـــر • واستعارة الطعام للنـــوم ليست مما انفـــرد به شكسبير أو سبق اليه ففى العربية يقولون لم أطعم غمضـــا وقال الحماسى :

فقـــام يجاذِبُ البُردَيْن لـــدْنٌ يقوتُ العينَ من نوم شـــهىّ

وشعر الحماســـة قد ترجم كله أو جله فى زمـــان القرون الوسطى القـــديم الى اللغـــة اللاتينيـــة من شواهد ذلك الاصـــل اللاتينى الذى ترجـــم عنه جوتة قصـــيدة الحماســـة المنســـوبة الى تابط شرا :

انّ بالشـــعْبِ الذى دون سَـــلْعٍ لقتيـــلا دمـــه ما يُطَلّ

كانت الالعـــاب فى كلية غـــوردن بعد طابـــور الســـاعة الرابعـــة • وأول أمرها انما كانت كرة القدم وكرة السلة الزاما كل يـــوم الا الجمعة والاحد • ثم انضـــافت السباحة فى العصر بعد انشـــاء حوض العوم — وحرصـــت عليه حتى عبرت النيل واجتزت امتحان انقاذ الغريق وكل ذلك فى أقـــل من نصف عـــام • وكان المجيدون فى كرة القدم يعرف أمـــرهم بعيـــد دخولهم الكليـــة ، ومنهم ولاسيما العاصميون ، من يكون قد عرفت اجادته لها وهو بالمدرســـة الوسطى ، ومن لم يكن قد عرف أمره سرعان ما تتاح لـــه فرص التبريز فى الشـــهر الاول من أول عـــام ، يوضـــع فى « التيـــم » العاشـــر

(أى الفرقة العاشرة) أو السابع أو الحادى عشر مثلا فيقفز منه فى ظرف أسبوع الى الرابع والثالث فاذا وصل الاول كان من الابطال المنتخبين للتيم ، (أى الفرقة ، التيم كلمة أصلها انجليزى Team) ذى الشرابات (الجوارب) ذات الخطوط العرضية البيض والسود والاحذية السميكة ، ذلك تيم الكمبايند The combined Team

أى المخلوط من سائر الداخليات ، تباهى به كلية غردون وتبارى كبيرات أتيام العاصمة وربما قيل له الكمباوند بالباء المعطشة مبالغة فى النجلزة من قولهم بالانجليزية Compound وهى و Combined فى لغتهم بمعنى واحد ، وتنفرد ذات الباء المعطشة بدلالة خاصة فى علم الكيمياء فعل الذين كانوا يؤثرونها رمزوا بذلك الى هذا المعنى ••• أن هذا التيم المختلط أكسبه ذلك معدن قوة خاصة به ليس له فيها نظير ، والله تعالى أعلم •

كنا اذ نحن فى المدرسة الوسطى نسمع عن ظلعت فريد ، وكان « تيم الكمبايند » يقدم من الخرطوم ليتبارى مع تيم السكة الحديد بأتبرة • وكان هؤلاء يلعبون حفاة ، وكان لهم لاعب متخصص فى كسر أرجل أولاد الكلية ذوى النعمة فى ظنه وظن صحبه ، واليسار • كانت قد وفدت الينا مع نظام التعليم الافرنجى جنادع من روح طبقيته • قالوا وكان لمكسر الارجل فقير (أى رجل صلاح أو سحر) يجلسه هو كلما قدم « تيم » المباراة ليمسك له اسما يكسر به رجلا ويصيب المرمى ، ويحجب مرمى أتبرة فلا يصاب • وكان « لتيم » الكلية فى تلك الايام فى ما كان يخبرنا أولاد كانوا يذهبون الى أتبرة ويشهدون المباريات حارس للمرمى ماهر لا تستطيع كرة أن تتجاوزه يقال له كرار • قالوا وكان «كابتن تيم الكمبايند» أى رئيسه ، فكنا نعجب من حارس للمرمى يكون رئيس تيم ، وكنا فى ذلك الزمان نحسب حراسة المرمى أضعف مناصب لاعبى الكرات • قالوا وكان الذى يستعين بالاسماء والعروق عند الفقير يلعب ببراعته حتى اذا

دنا من المرمى قذف بطاقية كان يلبسها على رأسه ، فلا أدرى أكان مسموحا بذلك أم كان لا يراها أحد ، فيقفز الحارس العجيب اليها فيرمى الكرة من الجانب الذى أخلاه • قالوا وفى مرة من المرات كسر اللاعب ذو العروق أحد « أقوان » الكلية (قون ، حارس المرمى وجمعه أقوان من الكلمة الانجليزية goal بعد قلب لامها نونا) فصاح الناس بنوع من روح الطبقية العمالية المعادية لطبقة الافندية التى هى ارستقراطية أولاد البلد : « غلبه بغلبه وقون مكسور » •

وقفز اسم أحمد أمين حميدة من أول عام الى « تيم الكمبايند » • وكنت طوال السنة الاولى فى التيم الثالث عشر وكذلك فى السنة الثانية ، وضنوا بأحد الكبار أن يستمر فى هذا « التيم » المتأخر لما صرت الى السنة الثالثة فنقلونى الى التاسع • ولا أذكر اننى كنت أحضر الكرة • كنت أحضر التمام ثم أذهب مع بعض الرفاق نشرب الشاى وننظم الاشعار • وبعد حوض العوم كنت أستبدل الكرة بالسباحة فقد يؤذن لى • ومرة للشقاوة لعبت عصر يوم عطلة فى ظل اللبخة التى شمال الداخلية مع أحد الزملاء فانكسرت يدى • كان ذلك فى السنة الثالثة وكان ذلك آخر عهدى بكرة القدم والحمد لله •

أول قدومى التيم الثالث عشر اخشوشن على رئيسه فى المقالة ، ونظرت اليه فاغتظت جدا من نوع روح منافسة شرسة رأيته على وجهه • كان أول اللاجنة فى عام مضى • فكأن أوليته عنده كانت منصبة على كل من جاءوا بعد زمانه وغير خاليه من الامتداد الى بعض ما قبله • وتراشقنا بألفاظ الضرات • وكأن سحابة من ذلك الكدر لازمتنا الزمان الطويل •

وكان يوم الجنائن والزراعة ، بدل الجمباز ، أحب الى من سائر الالعاب غير العوم • ولما كنا فى السنة الاولى وكان المشرف عليه من الطلبة الكبار له وجه مثال وجوه الفقراء عليه مسحة التدين وانشراحة روح أولاد البلد وظلل انقباضات غضبهم حين لا تعجبه الامور • فكنت أحدث نفسى أن أصير الى هذه الانعزالة الجنائنية الممتازة يوما ما ، حين يمكننى التماس

استبدالها بالجمباز اللعين • وما هو الا أن صرت من الكبار حتى تمــردت على كلا الجمباز والكــرة • وبلغ الامر المشرف المسئول فاقترح علينـــا أن نلتمس بديـــلا • وكانت الجنائن قد حيز اليها انعزاليون أمهــر بالتســلق منا انتهزوا الى ذلك الفرص • فاقترحت أنا وأصحابى أن نــــزرع ميـــادين الداخلية الجنوبية لوبيـــاء ثم نربى فيها قطيعا من المعــزى • (كأن الفكرة أخذت من كريكاتور المعزى ذوات التبابين والجلاليب والبنطلونات، فى سبورة المذاكــرة عنـــد حـــوض العـــوم) • ثم هى غذاء الصغير ومال الفقير •

وكســلنا فى الحفر ثم تركناه مرة واحدة بعد الذى كنا أبديناه من حماسة ونشـــاط • وجعلنا من بعد نختلف بين المشى وكرة الســلة وحوض العــوم ولم يضـــايقنا المشرف بســــؤال •

كانت الســباحة أجود رياضات الكلية جميعا ــ ومع الســباحة القارب ، قارب الكلية الوحيد ذو المجذافين ، وكنا ننظر الى صــور مباريات التجذيف بين أكســفورد وكمبردج باعجــاب ونظن أن قارب الكلية الوحيــد الافطح انعكاســة منها • وتعلمنا التجــذيف من المؤخرة بمجــذاف واحد ، فيسرع القارب كأنه متحرك بريشـــة « لنش » ــ مثل القارب الموصوف فى احــدى ليالى كليوبترة ، يعمل مجذافه فتى مصرى قســور على كتفه فروة أســد كان اصـــطاده ، يريد اللحاق بمركبة كليوبترة ، وكان بها متيما • ثم احتال حتى صـــار الى داخل واستمتع • ثم لما طلع الفجر أعطته احدى الجوارى قدحا فيه ســم مثمل ، فسقط صريع الفاتنة بغى الدهر الطويل •

وكان يجـــاء بالقارب من فرقة المهندســين بأم درمان كل عام ويرد اليه • فلم نضـــع فرصة أن نتولى رده لنجذف به من أمام الكلية الى تحت كبــرى ام درمان ثم الى شاطىء ثكنات الجيش التى جنوبيه ــ والتيار تحت كبرى أم درمان فى أخريات موســم التحاريق شــديد جارف خطــر ، وذلك أنهم يفتحون خزان جبل أوليـــاء ويندفع الماء من جانبى جزيرة المقرن التى تحت الكبرى بمــد عظيم • فاحتجنا الى أن نجــر القارب عكس التيار مســافة طويلة • كذلك يفعل أهلنا بمراكبهم ذوات مجاذيف الســنط الثقال ، ويسيل

الماء من بين شقوق الالواح ، فينحني النوتي على ذلك بخرقة بالية ومقلام • وتعبنا • وعدنا ماشين واشتد حر آخر الضحا واقترب وقت الزوال • واسترحنا قليلا عند لبخات المقرن الكبيرات •

حاول أحد الحذاق تحسين منظر شارع المقرن الجميل الظليل ، فقطعت تلك اللبخات الكبيرات ، واستبدل مكانها « ببواكى » أزهار مستطيلات ومربعات ومثلثات وضروب زخارف ، لتكون مثل الشجيرات الحسان التى بين مجارى الدرب الفخم الواسع ذى الاتجاهين ، المؤدى من مطار القاهرة الدولى الى أوائل مدينتها مجتازا بأطراف مصر الجديدة ــ نسى الحاذق المعجب بعاصمة العروبة ، المعادى للاستعمار لأن اللبخ غرس بأمر كتشنر ومعاونيه « الخواجات » ، أن مدينة القاهرة فى المنطقة المعتدلة ، غير جد بعيدة من البحر الابيض المتوسط الذى يقال ان جوه أجمل الاجواء ، وأن الخرطوم على خط ١٥ عرضا شمال خط الاستواء فى سهل أفيح غير ذى ارتفاع عال جدا عن سطح البحر ، انما هو ، لو لا نهر النيل امتداد لاخريات زحف الصحراء ، وأنها بعد فى بحبوحة المنطقة الحارة ذات الرمضاء والهجير • وصوحت الازهار فى « البواكى » المزخرفات ، وخلفتها أعشاب ذوات حسك ومثلثات من الموز الكاذب شىء له أعشاب سيفية عراض مثل الموز ، تحمر وتصفر ، وقيل سريع امتصاص الماء وتبخره ولذلك كان يستعمل للتخلص من مياه المطابخ والحمام قبل استحداث دورات المياه ، فيكون فيه منظر ووقاية صحة • وليس له بعد ارتفاع الموز ولا زهاؤه ولا ثمره • فهو كما قال الآخر :

أبو فضالة لا رسمٌ ولا طلل   مثل النعامةِ لا طيرٌ ولا جمل

وكان ينبغى ن يسمى موز الحمير • وقد سمى بعض الجهلاء زهر شقائق النعمان ورد الحمير ظلما ، وهو ليس دون الورد حسن منظر وتنوع ألوان واتاحة زينة ــ شد ما غاظنى عندما قال لنا المدرس وهو يطوف بنا هذا اسمه Olcanedr وهو لفظ رنته جميلة ، فقال له أحد أولاد فصلنا لما كنا فى السنة الاولى وضحك (والضحك بلا عجب قلة أدب) يعنى ورد الحمير ، الحمار •

هذا وذهبت لبخات المقرن الكبيرات وظلهن الوارف الظليل الذى حين تخرج من وقدة أم درمان ينسجم اليك مع نسمات النيل • والاشجار يا صاح تموت كما يموت الناس ، وتمتد اليها أظفار المنايا خبط عشواء فى كثير من الاحيان •

وأحسب أن عدى بن زيد توهم فى الاشجار روح خلود وطول بقاء فى أبياته المشهورة :

من رآنا فليحدث نفسه أنه موف على قرن زوال
ربّ ركبٍ قد أناخُوا حولنا يَمزجون الخَمر بالماء الزلال
والأباريقُ عليها فَدُمٌ وجياد الخَيلِ تَردِى فى الجلال (١)
ثم أَمسوا عَصَف الدهر بهم وكذاك الدهر حالا بعد حالْ

وقد كان فى العرب فى الجاهلية قوم كثير يعبدون الاشجار ، فعل روحا من ذلك خلصت الى أعماق تأملات عديٍّ ذات النفس الدينى العميق ، والله تعالى أعلم •

وكان معنا شلن لا أكثر • وسرنا لما اقتربنا من محطة الوابورات منظر السدرة الوارفة ، وتحتها بائعة فول ــ لا زلنا فى اطار وقت الفطور • وكان المكان آنئذ ريفا بحتا ــ وهو الان ميادين المتحف القومى وعمارات أخر حديثات • فأصبنا من فولها فما شككنا أنه أجود من فول مستورة ، اذ قد طبخه لنا الجوع ، وشربنا شايا وحمدنا الله ، وعرفنا أن الوقت لا زال فى حيز الساعةالعاشرة ، فاستأنفنا المشى ــ بعد يسير ، بعد أن نجاوز مسافة ما أمام مبنى الجمارك نصل الى بداية الجناين وعند جنينة النزهة يشملنا الظل الوارف مرة أخرى ــ ثم نسير على شارع البحر ، ونقف نرتاح قليلا عند الساقية التى أمام بيت السيد على المرغنى ، ثم نستمر الى القصر ، فنسير أمامه وننظر اليه •

---

(١) الفدم بضمتين جمع فدام بكسر الفاء وهو غطاء من كتان او نحوه تصفى به الخمر • والجلال بكسر الجيم جمع جل بفتحها وضمها وهو كساء يكون للفرس •

أزرناه مرة أوائل السنة الثانية أو أواخر الاولى ونظرنا الى الاسلحة البيض ذوات النصول العراض • وهنا قتل غوردون ، جاء ينزل متغطرسا من السلم بطربوش وقال « انت يازول ينتظر هناك » وقال له الدرويش « الله أكبر » وأجره الرمح السنين • وزعموا أن المهدى كان يريد استبقاءه ليفادى به عرابى باشا ، وعندى أن ذلك بعيد ، اذ لا يترتب على محاربة عرابى للانجليز أنه كان سيبايع المهدى ويتبعه • ثم ان الذين بايعوا المهدى بالخرطوم عاهدوه على قص رقبات أنفسهم ، فكيف تسلم رقبة غردون الكافر •

وصعدوا بنا الى الطابق الاول وأرونا الغرف والقاعات وجناح الحاكم العام الذى كان يسكنه ، قالوا كان فى عطلة واستأذنوه فى زيارتنا • ورأينا قاعة الرقص ذات بلاط الخشب الصقيل فوقفنا ننظر ونتعجب • كنا نرى الرقص فى السينما ويقال أنه فى آداب الافرنج شىء محترم • وعندنا انما ترقص النساء • وتقفاز الشبان الذى يصنعونه فى حفلات دفوف الاعراس نسميه العرضة والصقرية ولا نسميه الرقص •ونعتقد أنه لا يرقص الا المخنثون من الرجال • وعندما قال لنا أحد الخواجات انه ذهب الى ساحة المولد ورأى الناس يرقصون dancing غضبنا وقلنا بعضا لبعض : « شوف الخواجه المزدرى » •

هذا ، وكان فى ما داروا بنا عليه مكان المرتفق • ما أنظفه كما لو قد كان دهليز استقبال • وأرونا كيف يندفع الماء من دورة المياه • وظننا يالمسكنتنا ان هذه طريقة استنجاء بارعة وأن الماء المندفع يصل الى قريب من الجسم فيمكن من ازالة النجاسة • لم يخطر ببالنا أن هذا مجرد تنظيف لوعاء المرحاض ليذهب بالنجو بعيدا ، أما تنظيف الجسم نفسه والاستنجاء عندهم فبالورق وهو يزيل أثر النجاسة لا عيبها ، وقد يعيه أثرها ، وقد يتأذى به الجلد •• طريقتنا فى الطهارة أجود • شد ما غاظنى أحد أشخاص قصة يقال لها بوانى جنكشن ، نبز المسلمين والهندوس معا بأنهم يأكلون بالايدى التى يمشون بها أعجازهم • وقد نسى الجاهل أن الماء يزيل كل عيب • وأن

اليد قد خلقت للعلاج • والمسلم يجلس نظيف الثوب نظيف الجلد • وغيره ربما جلسوا بمظهر نظيف ومن تحته عتك القذر والعياذ بالله •

هذا وبعد العصر مشية باتخة لو مشيناها ـ كانت المسافة بين حيث كنا وبين الكلية نحوا من ميلين • وهذا الوقت من النهار أحر من الذى تقدم • واذا بسيارة صغيرة تقف • ويدعونا الاستاذ لان نركب • وفرحنا لهذا الخلاص من المشوار الطويل الذى كان أمامنا •• لم يكن بالكلية من كان له سيارة من الاساتذة أيام دراستنا الا عدد قليل ، من السودانيين منهم ثلاثة أو أربعة أو نحو ذلك • وقيل ان الاستاذ عبد الفتاح المغربى كان أول سودانى اقتنى سيارة خاصة ، فالله أعلم ما صحة ذلك •

فى سيارة أستاذنا اسمعيل الازهرى ركبنا ذلك اليوم • كان يدرسنا منهج الرياضيات الاضافية فى سنتنا النهائية لاعدادنا لامتحان شهادة كمبردج • كان رحمه الله محبوبا عند الطلبة ، وكان آنئذ رئيس مؤتمر الخريجين فى سنواته الأوليات • وكان معروفا عند الطلبة ، وعرفه الوطن كذلك من بعده ، بالأناة والصبر والاصرار مع روح من أريحية النفس والفكاهة • رئى مرة يركب دراجة فتعجب التلاميذ وقالوا : « وانت تعرف تركب العجلة يا أستاذ ؟ » وضحك وقهقه ورفع رجليه ووضعهما على الميزان ورفع يديه وقال : « وكمان أعمل حركات » •

وكان رحمه الله أكثر ما يلبس بذلة بيضاء وقميصا أبيض • رأيته بهذا الزى اذ هو مدرس ، ثم من بعد اذ هو رئيس البلاد والزعيم • كأنى بصورته الآن ماثلة أمامى وهو يخطب بالقاهرة بنادى القوات المسلحة مساء يوم ١٩ من شهر مايو سنة ١٩٥٥م •

كانت الاتفاقية التى أبرمت سنة ١٩٥٢ بين دولتى الحكم الثنائى وألغت اتفاقية سنة ١٨٩٨م تنص على ضرورة تهيئة الجو الحر المحايد فى فترة الحكم الذاتى ، ثم يتبع ذلك استفتاء عام يستقل بعده السودان أو ينضاف الى مصر باسم وحدة وادى النيل • وكان السيد اسمعيل الازهرى قد حضر مؤتمر باندونج وحضره أيضا السيد جمال عبد الناصر •

وأقيم حفل لاستقبال جمال عبد الناصر بنادى القوات المسلحة بالقاهرة، وكان ينوقع فيه أن يلقى بعد تناول الافطار (كانت الدنيا رمضان) خطابا ذا أهمية بالغة • ولم يذكر أن الازهرى سيلقى أيضا خطابا • غير أنه كأنه قد توقع من قبل أن يلتمس ذلك منه فى أية لحظة بعد خطاب عبد الناصر فأعد له •

كنت بالقاهرة فى بعض العمل •

وصلتنى من طريق وكالة حكومة السودان آنئذ احدى بطاقات الدعوة لذلك الحفل التأريخى العظيم •

وجدتنى فى مكان جد قريب من المسطبة التى كان فوقها عبد الناصر ورجال الثورة والازهرى وصحبه • وتقدم بعد الافطار جمال بقامته الفارعة وتحدث طويلا عن تخطيطه لمجلس الامة ومستقبل الاوضاع السياسية بمصر • ثم بعد خطابه تقدم صلاح سالم فذكر أنه سيدعو الازهرى ليتحدث عن مستقبل السودان ، فأوشك رحمه الله أن يتبرع فيخطط له مذهب ما سيقوله • وانتابنا ، جماعة السودانيين الذين كنا بالحفل آنئذ ، قلق قلوب شديد • ثم أحسسنا نوع اطمئنان ما لما رأينا الازهرى يتقدم ببذلته البيضاء ويستخرج من جيبه ورقة ونظارة ويتلو فى أناة • واشتد انتظار ما سيقوله اذ قد تكلم يتلو ويبدىء ويعيد ولم يتضح بعد من شىء • ثم اذا هو يتحدث عما صنعته حكومته من اجراءات السودنة وتهيئة الجو المحايد • واذا به يقول ان السودنة قد رسمت للسودانيين وبينت لهم طريقا ليست عنه رجعة ولا محيد • واذا بتصفيق من جماعتنا وانشراح • لم يذكر الازهرى وحدة وادى النيل • لقد كان حديثه عن السودان فقط ••• وبعد أشهر وقع التمرد فى جنوب السودان بتوريت والاستوائية • ثم ما انصرم العام حتى وقع الاجماع على الاستقلال من داخل « البرلمان » ••• وفى أول يناير سنة ١٩٥٦م أنزل علما الحكم الثنائى وارتفع علم الوطن الجديد • ذلك ما جرى به الفتيان (أى الليل والنهار أى الدهر) اللذان ذكرهما حافظ ابراهيم حيث قال ، وكان قد شهد

عهد اوائل فتح السودان أى استعمار السودان على يدى اللورد كتشنر ورفع علمى الحكم الثنائى :

رويدك حتى يرفع العلمان   وننظر ما يجرى به الفتيان

كان الازهرى رحمه الله (رحمهم الله جميعا) رئيسا للوزارة لما صنع لحن النشيد القومى • وكلفنى أن أشارك فى اختياره وكان قد عهد بذلك الى رجال الجيش • وكان المرحوم السيد أحمد مرجان رئيس الفرقة الموسيقية ، وكان يدرب جمعية الموسيقا لما كنا بكلية غوردن وكنت قد انتميت اليها حينا يسيرا • وعرض على نشيدان لا يخلوان من طول أحدهما لاستاذنا أحمد محمد صالح رحمه الله ، والاخر لاديب كان آنئذ بسنار نسيت اسمه • واخترت منهما معا كلمات لم أضف اليها من صياغتى شيئا يعبأ به وتصدى أحد عساكر فرقة المرحوم أحمد مرجان فلحن تلك الكلمات • ورضى هو عن لحنه • ولما سمعه اللواء أحمد عبد الوهاب واللواء التيجانى رضياه • وكان رضا أحمد مرجان رحمه الله عنه من شواهد صلاحيته بلاريب • واذا هو نشيدنا المعروف :

نحن جند الله جند الوطن

ليست كل كلماته لشاعر سنار المجهول أو لاستاذنا أحمد محمد صالح رحمه الله •• ولكنها لهما معا ، ولم يكن نصيبى من ذلك الا الاختصار والحذف والاكتفاء بما قد وقع عليه من بعد التلحين •

ورضى الازهرى رحمه الله عن النشيد وأقره كما لا يخفى • وكان قبل أن تشغله رئاسة المؤتمر يتولى الاشراف على جمعية الموسيقا التى قدمت ذكرها •

والحديث بعد ذو شجون •

لم تكن الكلية على أيامنا قد جىء اليها بالزوارق الشراعيات • تلك المرحلة لم يكن وصلها بعد تثقيف أبناء الاهالى • فقط مرحلة حوض العوم ومبارياته ولعبة الكرة المائية Water polo • وانما ادخلت الزوارق الشراعية فى أول الخمسين فى وادى سيدنا وحنتوب ، ولو كانت أدخلت فى

زماننا لكنت وأصحابا لى ممن افتتنوا بها أشد افتتان ، ولا أعرف رياضة منها أرشق ، مع ما يرافقها من احساس شعور بالخطر وامكان التغلب عليه •

أذكر اذ كنت مدرسا ببخت الرضا أوائل الخمسين أننى أخذت قاربا ومعى زميل وكنت استعرت بندقية رش وقلت اصطاد بها بعض الاوز والبط الذى كان ذلك الوقت كثيرا كثرة زرازير الخريف ، وأخذت معى هلب الحديد الذى يربط اليه الزورق ، وقلت أضعه فى مكان مناسب واصطاد • ومضيت بالشراع مسرعا بعد أن عينت مكانا ألقى عنده الهلب وأقف (١) الزورق ، وانطلق الزورق فى خليج النيل الابيض العريض العميق ، وكان النسيم شماليا طيبا مملوء الشراعين الكبير والصغير — وحين دنوت من المكان الذى اخترته ناولت صاحبى الدفة ليضع يده عليها ريثما أقذف الهلب الحديد ، ورميته ببراعة كما يفعل الملاح القدير وعدت الى دفتى أديرها ليواجه الشراع الهواء ويقف ، ولكن الزورق مضى كالسهم — — الله — ! — لقد نسيت أن أربط حبل الهلب الى شىء من خشب الزورق• وطارت فكرة الصيد وطار الاوز والبط • واستدرت بالزورق فى عجلة مجازفة • وتناثر الماء على البندقية والرش • وحاولت أن أهتدى الى مكان الهلب • وغصت مرات فلم أجد شيئا • وبرمت بالأمر برما • وأعدت القارب وربطته الى شىء — وتد أو أغصان شجرة أو كوم أحجار وراءهن ماسورة — احتلت كما يفعل أصحاب المراكب من الحواتة المساكين الذين ليس عندهم هلب حديد • وعدت من عصر اليوم التالى بتصميم • واهتديت الى مكان الهلب وسط رقعة الماء الواسعة بتذكر جزيرة أعشاب صغيرة كنت جعلتها من قبل هدفا • وغصت حتى وصلت الى القاع ذى الطين وسبحت لاصقا به ولمست الهلب وأمسكت به وعلوت منتصرا — مثل غواص المسيب بن علس صاحب اللؤلؤة النادرة الذى قال فيه :

---

(١) وقف لازم ومتعد ، وقف ووقفته فهو موقوف •

فانصبَّ أسْقَفُ رأسه لبِدٌ كُسِرَت رباعيتاه للصَّبر (١)
صُلْبُ الفؤادِ رئيسُ أربعةٍ مُتخالفى الألوان والنّجْرِ
نَصفَ النهارُ الماءُ غامِرُه ورفيقه بالغيب لا يدرى
فأصاب مُنيتهُ فجاءَ بها صدفيّة كمضيئة الجمر

وكأنما قد علوت بلؤلؤة مثل لؤلؤته ، وما كان ما علوت به حينئذ الا هلب حديد قديم أخذ منه الصدأ كل مأخذ ـ لازلت يا فتى فيك بقية من روح قوة شباب أيام كلية غوردن •• هيهات هيهات ، ذلك زمان مضى ولن يعود

مُشيبُ الذى يَبكى الشبابَ مُشيبه فكيف توقّيه وبانيه هادمه
وتكملةُ العيش الصِبا وعقيبه وغائب لون العارضَين وقادِمه
وما خَضَبَ الناسُ البياضَ لأنه قبيحٌ ولكن أحسن الشَعْرِ فاحمه

كانت السباحة أحب الرياضة الى والى أصحاب معى كان من بينهم سباحون ماهرون • كنا نختلف الى الحوض نسبح الاطوال العشرين والثلاثين • ونعبر المرة والمرتين والثلاث من أمام شاطىء الكلية الى الخرطوم بحرى • وربما جسرنا أوان الفيضان فعمنا تحت الطلب (١) نفسها وحاولنا مقاومة التيار كانت داخلية ونجت تفوز كل عام بدرقة السباحة • وكانوا حين يأخذها رئيسهم لا يجدون من سائر الطلبة كبير تصفيق • وكأن تبريزهم فى السباحة وانقطاع المنافسة قد أحدث ازاء فوزهم المستمر فيها نوعا من برود اعجاب ، وزراية حسد • كان أكثر أبنائها يستطيعون العبور ، وكان كل من يعبر النيل له درجة ، فكان يقع فى النيل ليعبره يوم السباق من أبنائها عدد كبير كأنهم جيش عرمرم حشد الى يوم قتال ، فكان هذا مما يغيظ الآخرين • وكانت مجموعة درجات هؤلاء وحدها تعادل أكبر ما تحوزه أية داخلية أخرى فى مجموع المسابقات أو يزيد • وأضف

---

(١) الاسقف الذى فيه بعض انحناء • النَجْر بفتح فسكون اى الاصل • يقول انصب ملاح فيه طول وانحناءة عنق ورباعيتاه كانتا قد كسرتا لتعليم الصبر والشجاعة كما يفعل الان بعض قبائل افريقية وكان رئيس ملاحين اربعة غاص ومكث طويلا فى الماء وانتصف النهار وهو فى الماء • ثم حين خافوا أن يكون قد هلك اذا به يجد اللؤلؤة النادرة ويصعد بها •

(١) الاعمدة التى عليها القنطرة وكانت من الحديد الصلب مصبوبا فيه الاسمنت •

الى ذلك درجــات أكثر أوائل المسابقات ، لابل كلها الا سباحة الظهــر • كان صالح محمود ، أحسـبه كان فى قســم المهندسين فى الدفعات التى قبلنا ، « ألمبى » السرعــة فى المسافات القصار • كان أبناء حلفا خاصـة أعـــوم طلبة داخلية ونجت وأسرعهم فى المسافات الطـوال والقصار • قبل انشـاء حوض السباحة كانت توضـع عوامات طافيــة لتبيين مسافات السـباق فى النيل الازرق شرقى القنطرة التى عليه ، فكان صالح محمـود ينطلق كأنــه اعصار من هذه الأعاصير التى تعبر اليم زمــان الصيف •• لاشىء أسـرع منه • وكان طاهر عبد الرحمن وصالح عتيق وأحمد محمد نــور ــ ثلاثتهم من دفعتنا ــ من السريعين جدا ، وطاهر يجىء أول عبور النيل فى الاكثـــر الغالب ، وكان مبدأ العبور من عند شــاطىء الخرطوم بحــرى ، وطاهــر يبتدىء من الركن الشرقى عند بداية السباق ، ويتجه فى انحــراف ينتهى به عند الركن الغربى المقابل له من شاطىء الخرطوم ، ويندفع بسرعــة شديدة واحدة كأنه سمكة • غير أبناء ونجت كان عبد الله محمد سليمان وحده من الدفعــة التى بعدنا من أبناء بورســودان فى داخلية ستاك ، يزاحم الاوائل فى جميع المسابقات وينفرد بأولية سباق الظهر ، وكان أسلوب سباحته هــو والمستر هانكس ، مجمعا على ذلك ، أجود ما شاهدناه من أساليب السباحة • كلاهــما يطفو على وجــه الماء ممتد القامة عليه بارز أكثر الظهــر ــ هذا ينســاب انسياب الزورق ذى الشراع فى يسر عجيب مذهل ، وهذا ينــزرق « كاللّنشِ » من جانبيه ببياض انشقاق الماء ــ لا أدرى أيهما كان حقا أسرع ــ ولعل طريقة عبد الله كانت أجملهما محض جمــال • وقد كان لى صـديقا وتزاملنا فى التدريس • واجتهدت أن أحاكى طرفا من أســلوب سباحته فلم أقدر من ذلك على شىء • والاسلوب الجيد فى العوم يعين على النفس الطويل •

هذا وكانت داخليتنا تفــوز أيضا بمباراة الســلة ولا يخطىء محمــود طــه العميرى ، وقد صــار رئيســا لها ونحن فى السنــة الثانية ، ســلة المرمى • فكنا اذا بارينا داخلية آرشــر تعمــدوه بالحصــار فلا يجديهــم ذلك الا قليلا • وكذلك كنا نفوز بجــر الحبل ، فكان يقال ان أولاد «ونجت» نفعهم أكل التمــر والقمح وأن منهم مســنين ضخام الاجســام • ثم كانت

اندفاعة المستربراون يشجع تلاميذه بروح قتال مستبسل ، فصارت بعد ذلك « آرشر » تفوز بجر الحبل • هذا وكانت داخليتنا كثيرا ما تفوز بمباراة كرة الصغار • ولاسيما حينما كنا نحن فى الاولى والثانية ، اذ كان فينا محمد أبو بكر وجميزة ــ وكان جميزة « فرودا » لا يستطاع ، وكان محمد ظهيرا قويا ، وكانت داخليتا كتشنر واستاك وأحيانا تنازعانهما داخلية «كرى» أقوى الداخليات جميعا فى ضروب المباريات عدا ما ذكرنا ، وكانت كتشنر أقوى ثلاثتهن وتفوز فى الاكثر الاغلب بكأس الالعاب الكبرى ودرقتها ــ هل كانت لها درقة ؟ ــ وكان بين الطلبة مبرزون معروفو مكان التبريز • كان عبد الحى محمود يقذف القرص مثل الصورة التى وصلتنا من عهد تماثيل يونان ، وكان بين الموضع الذى يبلغه ومواضع سائر المتبارين بون بعيد • وكان يوسف آدم الصومالى يرمى الحربة رميا بعيد المدى ، يقذف الحربة فتجتاز طول الميدان ثم تنغرس بنصلها عمودية من فوق الارض ، لو صادفت حية أو حيا لنفذته بلا أدنى ريب • هذا هو قذف الحربة المذكور فى السير الاصيل •

جىء قبل استحكام بداية المباريات بجماعة من الجنوبيين بحرابهم ليمرنوا الطلبة على قذفها لمن يرغب منهم فى مباراة قذف الحربة Throwing the javeline وما أن رمى يوسف آدم حربته حتى علموا أن لا مكان لهم معه ، اذ قد كانت حرابهم النموذجية التى قذفوا بها مسافة طويلة وراء حربته هو فجمعوا حرابهم وانصرفوا ، ورب غيرهم ممن بلونا من بعد ومن قبل فى شتى ضروب تجارب الحياة لو قد وجد نفسه فى موقف كموقفهم لعاند واستكبر ولاصاب من يبرز عليه منه شر عظيم • ولقد تصرفوا بنزاهة وصدق تسليم والعاقل من عرف قدر نفسه:

ومن البليّةِ عَذْل من لا يرعوِى   عن جهلِه وخطاب من لا يَفْهَم

وما أكثر هؤلاء ، وتلك الامثال تضرب لمن يتفكر ويتدبر ، وهؤلاء يا للاسف ، قليل •

هذا ، وبعد موسـم الالعاب كان يقام حفل يوم الخريجين (١) • وكانت كل تلامـذة الكليـة ومدرسيها يحضرونه ، وتوجه دعوات من ادارة الكلية يخص بها بعض كبار الحكام من رجال السـلك السياسى « الانقليز » (٢) وبعض وجهـاء الوطنيين وغيرهم وبعض كبـار الخريجين ثم تكون الدعوة عامـة لسائر الخريجين • وكان من يكون بالعاصمة من خريجى العـام الذى تولى دائما من أحرص النـاس على الحضـور • وكان يعـد للحفل شـاى العصر (والكيك) والتوابع التى تكون معه ، ويقف الفراشـون والخـدم المنوط بهم ذلك بملابس مصقولة وشعور أهمية ، ويكـون عمى زائد كبـير فراشى الكلية قد قضى أكثـر اليوم يعد الطربيزات وكراسيها لحين الـوقت المشـهود •

وكان يسـبق الشاى « مُطّش » كبير • كنا نقـول « مطش » لما كنـا فى الكتاب • ثم تعلمنا اللغـة الانجليزية فصرنا نقول « ماتش match ثم غلب الله التعريب فصار الناس يقولون مباراة ويتبارى ، فبأى آلاء ربك تتمـارى » •

وكانت المطشات ، أو قل مباريات كرة القدم الكبريات تقام فى الميـدان الأول ، أو كما كان يقـال له بالانجليزية رقم واحد ground number 1

وهو الذى يقال له الان الشرقى • كان يحف به اللبـخ الكبـار من جميـع الجوانب ، وقد قطع اللبخ الغربى لتقـوم مكانه مبانى توسيع كلية العلوم من جامعـة الخرطوم • أذكر من تلك المطشـات ، وعسى كنـا فى السـنة الثانية أو بعد ذلك أو قبله ــ ند عنى التأريخ ــ مباراة الدفـاع والـرى • هل كانت سـنة ١٩٣٧ أو ١٩٣٨م ؟ كانت مباراة العـام • غنت بها جوارى العاصمة فقلن : « والدفاع ال غلب الرى » يمـددن الالف من « الدفـاع » طويلة رقيقة يشربنها كسرا ثم يملأنها ضـمة وواوا مشـبعا ويمددن فتحة الغين من « غلب » والـلام كـذلك :

---

(١) انظر كتابنا التماسة عزاء بين الشعراء ١٠٤ / ١٠٥

(٢) قافها قريبة من الكاف كمـا ننطقهـا •

والدف ٠٠٠٠ وع ال غا ل و ب الرى

فلا أذكر أكانت هذه القطعة أضـيفت الى أغنيـة «التمنم» الكبيرة :

حَلّق بِى

حلق بى ٠٠٠٠ اللورى ٠٠٠٠ حلق بى ٠٠٠٠٠

حلق بى ٠٠٠٠ والدفـاع الغلب الـرى

الليلـة حلق بـى ٠٠٠

أم كانت جـزءا منها فى الاصل ٠ وكان اللورى «موضة» فى تلك الايام اذ لم يكن الناس قدعـرفوا سـفر الطائرات ، وكان من حج يكتب وصيته ، وحين يركب قطار بورسـودان متجها الى سواكن فالبحر المالح فميقات الاحـرام الى بيت الله الحرام ، تختلط زغاريد الوداع وبهجـة دعواته بدموع الخوف من ألا يعـود ٠٠٠٠٠

ــ أنا عايز أحجز بالفايكاونت ، ما عاوز الداكونته ٠٠٠٠

وهكذا يدب الفساد ٠٠٠٠

دخل فريق الرى الميـدان يتقدمهم قلب هجومهم ومسـاعدوه ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ كان فى تيم الرى لاعبـون من أتيام العاصـمة الكبيرة معروفو المكان ٠٠٠ هذا شرفى ٠٠ هذا لعله كشيب ٠٠٠ وهلم جرا ٠٠٠٠ شرفى يدحرج الكـرة أمامه فى ثقة شاسعة ٠ كرة كأنما تلمع جديدة ٠٠٠٠ مما أعده عمك «جاليه» الدقيق الحاذق بكرات الكلية النظيف أناقة الهندام كأنما هو من فرقة موسيقا عسكر الجيش ٠٠ ودخل فريق قوة الدفاع ٠ وقالوا ذلك فيهم طلعت فريد ٠

وسرعـان ما برز تفـوق الرى ٠ اصابتان أو ثلاث فى النصـف الاول ، وكانت الريح ضدهم وشمس العصر منحدرة بشـعاع ضوئها ضدهم ، عما قليل تحجبها الاشجار ولا يستفيدون هم من مثل هـذه الحالـة ، عنـدما يصيرون الى المكان الاخـر من الميدان فى النصـف الثانى ــ ولا حاجة بهم الى ذلك ــ لن تكون الشـمس ضدهم وقد انتصروا مع معاكسـتها ، فكيف حين تزول ٠ حتى اقتراب نهايـة النصف الاول كانت المباراة وسطا ــ حركة بارعـة هنا وهناك ٠ ضربة بالرأس ٠ انقاذة من حارس المرمى لا بأس بها٠ وهذا من ناس الرى حدث منه خطأ ــ هاندز hands « لمسة يد » ٠

ــ كنا فى الكتاب نقول « هندز » على صيغة فعل الامر من هندز ــ وأضاعوا الفرصــة ناس الدفاع • فريق الرى قــوى • لا • فريق الدفاع ضــعيف • وهذا طلعت يشــير فى حركات تدل على انفعال وعــدم رضــا • وجــاءت خمس دقائق نصف الوقت • واستؤنفت المباراة ، وتبادل الفريقان الاماكن• والريح الان ليست مع الدفــاع ولا الشمس فى صالحهم • انتهوا ••• لو لا أنا ننتظر حفل الشــاى لانصرفنا • • • أقصى ما يطمعون فيه أن يحافظوا على مستوى الهــزيمة ••• غيروا مواضــعهم •• ليس الآن عنــدهم قلب للدفــاع ولا قلب للهجوم ••• وقالوا سيلعبون الآن بثلاثة ظهراء أحــدهم طلعت نفسه ••• وهذا شرفى يدحرج الكــرة ••• وهذا من ؟ كشــيب ؟ •• دنت من الساحة الخطــرة ••• أمرها الى الهجوم ••• واستعدل ليصــيب الهدف •• ولكن هذا طلعت يلتقطها برأسه من فويق الارض ••• عجيب •• وجــاوزت نصف الميدان الى قريب من حارس مرمى الرى ••• وجــاءوا مرة أخرى •• وأصابته شجــة من طرف حذاء أحدهم على جبهته ••• غير مقصــودة ••• عصب شيئا على رأسه ــ « هو هسع كبر ما شــفتوه لمــا كان بيلعب زمان » • هجم « فراود » الرى من يمين وشمال •• • يسيزيدون اصاباتهم ويحمقون انتصــارهم الذى لم يكن فيــه شــك الآن ••• وثبت « طلعت » يقذف بقــدم ، ويزاحم بكتف ، ويتلقى برأسه المعصــوب ••• واشــتد هجــوم الرى حتى كاد ظهراؤهم والجناحان وقلب الدفاع جميع أولئك يشاركون فيه •• وهم من مدافعى فريق الدفــاع أن ينضــموا الى ظهرائه ليصــدوا الهجوم ، فكأن « طلعت » زجرهم فرجعــوا الى أماكــن هجومهم الوهمى ينظرون ••• كان الهجوم مركزا على مرماهم هم •• وهذا « طلعت » يصـــد كل هجـــوم والظهيران اللذان معه كأنما قد صــارا جزءا منه ، هو عنترة وأبو دجانة معا وهما اسفنديار ورستم •

وجعلنا نشاهد منظرا من الأســاطير ••• عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، ربيعــة بن مكدم ، بسطام بن قيس ، ومعهم أيضــا روبين هــود ومعهــم صاحبه جون الصــغير ، وفرسان مائدة الملك آرثر المســتديرة ، وأبو زيد

الهلالى ، والزير سـالم كل هؤلاء قد ملأوا منطقة القتال المحتدم الذى أمام حارس مرمى فريق الدفـاع •• وكلهم « طلعت فريد » الذى على رأسـه عصابة المـوت تتصرف عنها كل كرة فيقذف بها الظهيران بعيـدا بعيـدا ، كما تتصرف مسامير القوارب عند حجر المغناطيس الذى أمام جزيرة الهلاك ومضت دقائق عشر من النصـف الثانى أو نحوهن والاعين تنظر الى حيث حمـى الوطيس •

ثم اذا بأحد لاعبى هجـوم فريق الدفاع الذين لم يبارحوا المواضع التى كان زجرهم اليها طلعت يصـيب غـرة من فريق الرى فيصيب •••

تصفيق بدهشـة • لا زال الرى منتصرا باصابتين ، هيهـات المعادلة مع هذا الصراع • لن يمكن الزمن من ذلك • وجدد فريق الـرى الهجـوم على طلعت فريد •• هـو الان رمـز فريق الدفـاع ، كل فريق الدفـاع ، هـو اسبسلو بوقاس ، هو أطلس ، هو هيركيوليز •• كلما هجموا عليـه مـزج لهم مهارة التنس بحيويـة الملاكـم وثبـات الجندى الشـجاع •• لاعب آخر من فريق الدفاع يصيب غرة أخـرى • وارتفعت حماسة روح فـريق الدفـاع ••• وتعادل الفريقـان •• تصـفيق منهمر •

وداخل فريق الرى شـعور خفى من روح انكسـار •
وهـذه أول اصـابة انتصـار •

وحمى فريق الرى •• لن يغلبوا ، لن يغلبوا ، لا ينبغى أن يغلبـوا بعـد بدايتهم العظيمـة التى هم بها حق جديرين • واشتد الهجـوم على مرمى الدفـاع •• اصابة واحـدة فقط ، وسيتعادل الفريقـان •• واذا أعيـدت المباراة يوما آخر فلن يفرطوا ، لن يفرطوا •• اصابة واحدة فقط ••

وتجلى عنترة الفوارس فكأن شـخصه كان يملأ جميع أركان الميـدان • والدقائق تمر تباعا سراعا • خمس دقائق •• ثلاث •• اثنتان •• واحـدة هذا الحكم يرفـع صفارته والرى لم يعادل حتى الان •• لابـد من عمـل المستحيل •• مجهود باسـل أخير •• واذا باصابة أخرى من الدفاع تجتاز

مرمى فريق الرى ، وتبعتها صفارة نهاية المباراة ...
كانت مباراة مذهلة .. مطشا لا ينسى ..

مرة ونحن فى المدارس العليا ، وجهنا المستر هارت الى قراءة مقالة اسمها المعركة the Fight للكاتب البارع William Hazlitt يصف فيها مباراة ملاكمة .

ماكنت أرى الملاكمة الا توحش مدنية بغيضا . كنا ونحن فى السنة الاولى والثانية من الكلية جىء الينا بممرن وأعطانا القفازات وأحسسنا من أنفسنا شراسة مزاج وسنورية ولؤم هراش . ثم كأن قلوبنا أبت ذلك فلم يستمر عليه العمل وانتهت محاولة تعليم الملاكمة ، وقرأنا كتاب Rodney Stone السخيف ولم نتعلم من مدرسة حرفا ، وكان موضوعه الملاكمة ، وكان الملاكمون يعدون من الطبقات الدون ، وكأن هذه النظرة لاتزال موجودة ومن جرائها حيزت أكثر بطولات الملاكمة الان الى السود ألوان البشرة يربون لها تربية الثيران الغلاظ .. وانما هى ضرب من مصارعة المجول التى فى اسبانيا .. ولولا دعاوى انسانيات هذا العصر لجىء بثيران من البشر يصارعهم جزارون من البشر .. نحو من هذا كان يفعله سادة الروم القدماء لتسلية الناس . ومن يدرى لعل ربك خبأ لاهل سواد البشرة مستقبلا عظيما قبل أن تقوم الساعة . وقد يذكر فى تفسير آية الواقعة « ثلة من الاولين وثلة من الاخرين » أن المراد بهذه مؤمنو أهل السودان . وفى الحديث أن أهل الغرب لن يزالوا ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة واختلفوا فى من المراد بهؤلاء ، فهل يجوز أن يكونوا هم سودان أمريكا المسلمون ؟ الله تعالى أعلم .

هذا ،

وكان المستر هارت اذا نبهنا الى شىء من روائع الادب أقبلنا عليه لانشك أنه جيد . ولئن كانت الملاكمة فى ذاتها أمرا وحشيا فان هذا الذى وصفه

هازليت فى معركته قد كان منظرا من ضروبها النادرات ، ارتفعت به المهارة الساحرة الى سـماء الفن ، أم ارتفـع به بيان هازليت السـاحر العجيب •

ولازلت أنفـر من مباريات كرة القـدم • وأعد لعبها ضلالا ولونـا من التسليات الرومانية السنخ لغوغاء العصر الحـديث • مع هذا أذكر أن تلك المباراة بين الدفاع والرى كانت من الاداء النـادر الذى ارتفعت به بطولـة طلعت فريـد واتقانه معا الى قمـة من عليـاء الفن •

حتى كـرة القدم يمكن لها أن تكون فنا وتصعد الى تلك العلياء • وشوقى بعـد لم يخطىء حينما ذم الاسـتعمار فقـال :

أم من نداك على المدارس   تذر العلوم وتأخذ الفتبولا

ـ والملكات البشرية بعد خفيات الاسرار • ومما أن ترقى مراقى لا تستطاع كانت الخطب يبدأها مديـر الكليـة ، يخطب بالعربية حرصا على أن يفهمه العدد الكبير من الحاضرين من الآباء والوجهاء أولاد البلد الذين لم يكـونوا يعـرفون « اللغة » • وكانت عربية المستر وليمز ضعيفة ، كان حقا لايعرف العربية ، فكانوا يكتبون له خطبته بألفاظ مبسطة وحروف انجليزية ويتهجى النطق بهـا تهجيـا فى كلفـة ومشـقة •

ـ يا هدرات السادة ـ اسالتن ان نافسى ونبيتن آن زم •• الا •• لائى ••
ثم يكلف كبير المشرفين فيخطب بالانجليزية بزهو واطنـاب ومحاكاة لاداء متوهم من المستر لويد جـورج فى خطبته المشهورة التى كانوا يدرسـونها فى مختارات محفوظات اللغة الانجليزية   A scrap of Paper

« قصاصة الورق »

ثم خطيب باللغة العربية ـ ربما أحـد المشايخ ـ واحد الخريجين ثم رئيس الرؤسـاء يخطب باللغـة الانجليزيـة •

قالوا كانت الخطب فى العـام الذى سبقنا أجود وساهم فيهـا عـدد من الخريجين ألهبوا القلوب بالحماسـة الوطنية وأن يحيى الفضلى رحمـه الله خطب وتمثل ببيت شـوقى :

أحرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنس

والطير من كل جنس هم الاجانب ، وأشباه الاجانب الذين يتملقون الاستعمار •• والطير من كل جنس هم الاستعمار •• أليس هو الذى جلب الينا ، ففشا شرهم فينا ، أصنافا من كل جنس ؟

ما خلا زماننا من الخطب الطنانات ــ لا بالعربية وحدها ولكن بالانجليزية أيضا • هذا أحد الخريجين الكبار فى احتفال الكلية بلجنة اللورد دى لوار Lord de La war • قالوا كانت لجنته ــ وهى من هذه اللجان التى كانت تنشئها الحكومة البريطانية لتنظر فى بعض شئون مستعمراتها وغير ذلك مما يهمها أمره من حين الى حين ــ كانت تزور شرق افريقية • ودعيت ــ دعاها الحاكم العام أو من ينوب عنه ــ (ولم يكن فى برنامجها ذلك) أن تعرج على السودان أيضا فتزوره • أليست معاهدة سنة ١٩٣٦ م قد اتفق فيها طرفا الحكم الثنائى على ضرورة العمل لاسعاد أهل السودان ورفاهيتهم ؟ (رفاهية ترجمة Welfare) • وكيف السبيل الى رفاهية أهل السودان بدون توسع فى التعليم ؟ الرفاهية لا تكون الا بالتقدم فى هذا القرن العشرين : التقدم الزراعى والصناعى ، التقدم الاقتصادى والتقدم الاجتماعى ، التعليم هو مفتاح التقدم المادى والادبى • نحن لانقتنع بنصف التعليم ، قليل المعرفة ضار • نحن نحتاج مع زيادة الكم الى تحسين الكيف ، لا نقول الكم أهم من الكيف ولا الكيف أهم من الكم ، فهذا يعود بنا الى قصة أيهما جاء أولا ، الدجاجة أم البيضة •

ضحك مثقف •

الخطيب ضخم الجسم ، ضخم الصوت ، جهير النحنحة ، جهير السعال، جذاب الشخصية مبين •

وتساءلنا : من هذا المفوه النحرير ؟

وقالوا : محمد صالح أفندى الشنقيطى •أول مرة سمعنا بالشنقيطى ورأيناه والذى خبرنا به كأنما أفادنا بأمر لا ينبغى أن نجهله ووضع تحت ذلك

خطين • كانت الحركــة الوطنية فى مستهل طورها الايجابى • وكان الناس قد بدأوا يهتمون اهتماما ذا طابع عملى بأمــر التعليم • هذه ثغرة يمكنهم أن يهاجموا منها الاستعمار • من مأمنه يؤتى الحــذر • أليس الاستعمــار هو نفســه الذى أدخل فى هذه البلاد هذا النوع من التعليم الحديث •

أحسب أن انشاء ملجأ القرش كان أول هجــوم من هــذا الاســلوب • ثم المدرســة الاهلية • ثم جاء يوم التعليــم وجمعت التبرعــات • وقيــل للمستعمر أن المدارس الوسطى الموجودة الآن لا تكفى ••• هذا من جهــة الكم • • كان عددها آنئذ نحوا من أربع عشرة مدرسة وســطى •

وهذا الشنقيطى رحمه الله الرحمة الواسعة يقول الآن ان الكلية نفسها ، التجهيزى العظيم نفســه ـ لايكفى ••• هذا من جهة الكيف • نريد تعليما أكثر •• أعلى •• نريد كليــة جامعية •• نريد جامعة •

تصــفيق منهمــر •

وكل بالاعجــاب يكــاد ينبهــر •

ووقف اللورد دى لوار فأثنى على الخطيب ، وأثنى على السودان ، واثنى على الميدان رقم واحد ، وعلى الشــاى والاهالى اللطيفين •

وارتفع اللــورد دى لوار بخطبتــه الى أوج بليغ ، وعلا صــوته بنبرات حســان ، وكان مؤثرا ••• ثم قال انه هو ولجنته مقتنعون أن الوقت قــد حان لادخال التعليم الجامعى فى الســودان على مراحل تدريجية متلاحقة • •• مســتوى كلية غردون فى نظره هــو ولجنته عال الى القدر المطلــوب ، وســيمكن بلا عسر من بلوغ مرحلة التأهيل لدخول الجامعة ••• تحسينات يســيرة ســيقترحونها فى تقــريرهم •••

تصــــفيق حـــاد • • • حـــاد • • •

حقا ان اللورد دى لوار ولجنته رجال متحررون •

••• ثم ذكر اللــورد دى لوار أن تفصــيلات التطبيق العملى أمر ســيبت فيه المســئولون عن التعليــم فى حكومــة الســـودان •

على كل حال انصرفنا معجبين باللورد دى لوار وبالشنقيطى رحمه اللـه
يأبى المستعمرون الا أن يكونوا مستعمرين مهما يتحرروا ...
ونبراته الفخمة الجهيرة ...
انصرفنا وفى قلوبنا شعور ببصيص أمل غامض ...
هل سنحظى بالتأهيل لدخول الجامعة ؟ ... هل سنحضر زمان شهادة كمبردج ؟ ... كما شاهدنا الفانوس السحرى الذى جاء به مستر سكوت سنة ١٩٣٢ والفيلم المتحرك الذى جاء به المستر غريفث معه ، والسينما فى الخرطوم والراديو ... وسمعنا خطبة الملك ادوارد الثامن حين استقال ولاحت على وجوه المشرفين الخواجات سحابات من الاحساس بحزن جلال الموقف .
انصرفنا وقد استمتعنا ببعض متاع الفكر ، وأحسسنا له بنشوة سرور .. كالسرور الذى نحسه اذ نرتاح الى القاء الشعر الجيد ...
والى بعض ألوان الاداء المتقن فى التمثيليات ... مثلا أداء على عبد اللـه عقارب والطاهر شبيكة ووديع حبشى فى رواية يوليوس قيصر ، وعلى الحويرث فى دور اياغو Iago من رواية عطيل Othello هذا المستوى الذى شهدناه اليوم أعلى من ذلك بكثير .
لقد كان يوما من أيام احتفالات العام الدراسى عظيما حقا ...
ماذا قال أبو الطيب ؟

يقول بشعب بوان حصانى أعن هذا يسار الى الطعان ؟
أعن هذا يسار الى المذاكرة ؟
فما المذاكرة ؟

كان وقت المذاكرة الرسمى مساء فى ما بين السادسة والسابعة ومكانها مبنى الكلية الرئيسى حيث الآن المكتبة ، ويحضرها التلاميذ بحسب داخلياتهم ، لكل داخلية حجرتان مخصصتان لها من الحجرات التى تكون أثناء النهار فصول الدراسة ، فيكون الصغار فى احداها والكبار فى الاخرى ولما صرنا الى فصول الشهادة فى السنة الرابعة ــ ولعلها فى الثالثة أيضا

عوملنا معاملة ذات نوع من امتياز اذ أذن لنا أن نذاكر فى حجرة فصلنا كلنا معا ولم نقيد بداخلياتنا .

كان أمر المذاكرة فى جملته نوعا من الترويض والضغط ، وجانب الجهد التربوى فى مراجعة الدروس ومتابعتها فيه ضعيف جدا بل معدوم ، وذلك أن مدرسى المواد كانت جداولهم مزحومة بعمل التدريس الا بقدر محدود ولذلك كان أكثر ما يكلف بمراقبة المذاكرة ضباط الداخليات ممن لم يكن لهم جداول فى دروس الصباح ، اذ أنهم انما كان منوطا بهم تنظيم اعاشة الطلبة فى الداخلية وتدبير أصناف موظفى هذه وعمالها ، ثم حضور الجمباز فى الصباح ، وألعاب العصر لمن يكون مساعدا فى الاشراف . وقد كانت مراقبة المذاكرة عليهم عبئا فيه استكراه وثقل ويبدو ذلك فى منظر وجوههم حين يمرون كأنما يساقون اليها سوقا . وقصارى ما كان يهمهم من أمر مراقبتها أن يسألوا هل من غائب ولماذا وأن يبدو بعض المراعاة للنظام ــ كأن يسود الحجرة السكوت وألا يكون بعض التلاميذ يتحركون فيشوشون على زملائهم ــ وكانوا قلما يزيدون فى المرور على بضع دقائق ، ويتكفل الرؤساء بسائر أمر النظام .

كان يغمر حجرة المذاكرة ضوء النور الكهربائى الابيض المقانيته صفرة شيئا ما ، غشاوة ضباب من سأم ، ربما خالطته بعض حشرات مساء نيل الخرطوم الازرق ، الصغار ذوات اللوين الاصيهب الشفاف ، ونضح من العرق على كل عنق وجبين فى زمان ومد سبتمبر وأكتوبر الذى يعقب موسم المطر وتكون فيه نهاية ارتفاع فيضان النيل وبداية هبوطه وتبخره من طين شواطئه الجديد الاسود ، وفى زمان حر مايو ويونيو اللذين تمتد فيهما أنفاس جهنم الى كل مكان منذ بعيد الشروق الى زمان بعد الغروب ربما جاوز التاسعة الى العاشرة والى نصف الليل وأحيانا الى الصباح التالى .

كان المشرفون الخواجات يمرون أحيانا على وجوههم قطرات العرق وهم بملابس عشاء الاستعمار ــ البنطلون والقميص الابيضان مع الحزام الاسود والكرفتة السوداء ــ يخطو أحدهم بخطا وئيدة رتيبة أمام الصف

الاول ، ثم يعود أدراجه الى قريب من الباب ، ثم يقف ينظر بموضوعية ثم قد يتخلل بين صــفين ، ثم يخرج بعد أن يكون أشــاع فى جو المذاكرة الراكد جوا من رهبة الهيبة التى هى هو ••• وكان من أولاد البلد من المدرسين من يكون كلف ســاعة من المرور فيجيء ببذلة كاملة ويمشى كمشية الخواجات ، ويحيط به كجو هيبتهم ، تقليــد لجو هيبتهم ثم ينصرف • ومنهم من كــان يأنس اليه التلاميذ ، وتكون بلديته بارزة ، فيسألونه فيتقرب بابتســام أو جــواب ثــم ينصرف •

وكان المشرفون من أولاد البلد القلة أول أمرهم قلمــا يمــرون • على أن مشرف داخليتنا الاستاذ محجوب الضــوى رحمه الله ، كان قلما ينقطــع فى الاسبوع عن المامة أو المامتين أو ثلاث • وكان التلاميذ يسألونه يقــدرون اهتمامه هذا بهم ويســألونه عن معانى الكلمات الانجليزية وكان معــروفا بجودة ملكته فى اللغــة الانجليزية واتســاع ذخيرته من عــويص كلماتها • وكانت آنئذ أمثال diagnosis (تشخيص المرض) imperturpable (رزين) excruciating (أليم) مما نعده جد عــويص ، وربما وقع عفويا فى بعض ما يتحــدث بــه مشرفنا أحيانــا كثيرة • رأى أحد التلاميذ كئيبا فسأله ماذا يشكو فقال له toothache (وجــع الضــرس) ويده على فمه ، فقــال له ؟

excruciatin يعنى ألم الضرس أهو بالغ ••• وضحك تلاميــذ المذاكــرة من بينهم صــاحب الضرس يضحك بجانب من فمــه المتألــم • كنا لجهلنا نظن هذا منه اغرابا ونكن له مع ذلك اعجابا • وكان سهل الجانب عطــوف الفؤاد • ولم نخل من شــعور اعتزاز وطنى نحو اشرافه علينا • رحمه الله الرحمة الوّاســـعة •

وكان يساعده فى الاشراف على داخليتنا الاستاذ أبو بكر عثمان ، وكان ذا عناية بتدريب التمارين البدنية وذا حزم وجد • وكان بعد أديبا شــاعرا ومن أوائل رواد المسرح فى الكليــة ، خبرنا عن اجادتــه فى ذلك ولــم نحظ

بمشاهدتها • غير أنا عرفنا له قصيدة رائية حسنة موضوعها الزهرة كيف تقطف ، ثم تشم ثم تذبل ويلقى بها الى التراب :

فمن صَدرٍ الى قَبرٍ ومن قصرٍ الى حفرَه

أحسب هكذا كان آخر بيت منها •

وكان القاؤه قويا صحيحا واضحا •

فاتنى نيل جائزة الشعر فى السنتين الاولى والثانية • ونلتها فى السنة الثالثة مع جائزة الانشاء الانجليزى ـ كتبت مقالا قصصيا بيدى اليسرى اذ اليمنى مكسورة ذكرت فيه أن السودان سيستقل فى الخمسين ، فكان ذلك حدسا صائبا ان شاء الله • واشتريت بالجائزتين كتبا عربية ليس بينها كتاب انجليزى واحد ، الاغانى طبعة الساسى بفهارسها والوساطة ويتيمة الدهر واحياء علوم الدين • وكان لى صديق ظريف يعجبه تقليب أوراق اليتيمة ثم ينتهى بعد كل تقليب الى قراءة شعر ابن حجاج وابن سكرة ـ ذلك يعجبه ولا سيما الرائية التى بيتا القصيد عنده منها :

يا فسوةً بعد العشا بالبيض واللبنِ الكثير
يا ضَرطةَ الشيخ الموقّر بين حسّاد حضور

ويكبر صوته ويترنم برنين •

هذا وما نلت جائزة الشعر ذلك العام الا لأن الرشيد نايل كان غائبا فقد كان لا يدعها لاحد ، أخذها فى كلتا سنتينا الاولى والثانية • نسيت موضوع السنة الثانية والسنة التى فزتها • أما موضوع السنة الاولى (١٩٣٦ م) فقد كان رثاء أحد الملكين جورج الخامس وفؤاد الاول ـ ماتا كلاهما ذلك العام ورثينا كلنا فؤادا رحمه الله • وحاكيت أنا بمرثيتى قافية أبى الطيب : أرق على أرقٍ ومثلى يأرق

وجعلت قافيتها دالية ، نحو : « وأسىً يزيد وعَبرَةٌ تتجدّد » • وقال أستاذنا الشيخ جلال لى ولابنه محمد المهدى وكان حينئذ فى السنة الثالثة، واشترك فى المباراة ، اننا لم نحسن أن نقول كما قال الرشيد فى مرثيته :

أوما أحسّ الدافنوه قَدره أوما دَرَوْا أىّ المصاب به دُهُوا

وبراعـة القافية « بهى دهـوا » لا تخفى •
ولا أدرى هل بيتـه :

من اى بشِرْذمةٍ متى ناديتها لتطيح أعناقَ الأعادى تسرع

من قصيدته التى فازت فى مباراة سنة ١٩٣٧م أم لا ؟
وأذكر له من أول قصيدة قالها يذكـر رحلـة الطلبة بكردفـان ونحن جميعا فى السـنة الرابعـة :

مطيتنا تسِـير بلا عِنَان ونقتحمُ الفـلاةَ بلا تـَوانِ
أخفُّ من الظنون على الفيافى وأنفَذُ فى حشاها من سنانِ

وأخـرى يذكـر فيها الهجـرة :

قمر بصحبـة كوكبٍ قد أمعَنَا فى السَّـبسب

ولما كنا فى السنة الرابعـة كان موضوع المسابقة النيل ، فما كنت أشـك فى الفـوز الا أن يفـوز الرشـيد ، اذ كنا نحسب أنـه لم يبق مـن مفلقى الشعراء بالكلية غيرنا كلينا ، واذا بنا معا يضخمنا مع الآخرين بابكر أحمـد موسى ببائيـة جيدة طويلة النفس قويـة الاسلوب :

عِـدْوة النيل أسـندى بحضن مابى

هكذا شطر بيت المطلع وهو مصرع ونسيت كلمـة من الشطر الثـانى ، ويبدأ بقوله « أفلا كل » والقافية لذهاب فلا أدرى أهو أفلا كل وافد لذهاب أو قـادم لذهاب أو مهجـة لذهاب ، وكان بابكـر فى السنة الاولى • وكنت لقيته قبل مقدمـه الكليـة مرة أو مرتين عند صـديقى محمـد الحسـن بامدرمان ، وكان محمـد الحسن ، جـزاه الله خيرا ، يدعـونى بين حـين وحين الى دارهم بامدرمان ، وكان ذلك يسرنى ، وكنته عـادة غير كبـير العناية بمظهر ثيابى فكنت أربأ ألا يكون مظهـرى غير جيد حـين اجتـاز البحر الى أمدرمان ، فأحرص على أن ألبس الجلابيـة النظيفـة والحـذاء الجديد أشتريه ببعض منحـة الاسبوع • وكانت أحذيـة باتا آنئذ جـد رخيصـة • وكنت أنا جـد فقـير •

كان محمد الحسن يعجبه شعرى ويلذه سماعه وسماع كل شعـر جيـد

ولاسيما ما كان وزنه الكامل مثل معلقة لبيد ومعلقة عنترة • وكانت لى طريقتى الخاصة فى انشاد الشعر وترنمه ، لا أعدوها مع نفسى ومن الاخوان من أرتاح اليهم ويرتاحون اليها • وكنا أنا ومحمد الحسن نلتقى فى كثير من الآراء والمسائل الادبية الفكرية • وربما تجادلنا فى أمر معاوية وأمير المؤمنين على بن أبى طالب • وكانت قضايا الفتنة الكبرى من مسائل الجدل الشديد بين أدباء الطلبة على ذلك الزمان •

كذلك كان التعصب على طه وله وعلى العقاد وله وعلى الرافعى وله بين رجالات الأدب المعاصرين • كان حسن محمد بابكر يميل الى الرافعى ومنه استعرت أوراق الورد فقرأته وأعجبنى على إيثارى طه حسين • وهو أيضا عرفنى بكتاب العمدة فاستعرته منه وكلفت به من بعد أيما كلف • كان حسن من دفعتنا فى قسم القضاء الذى فيه الرشيد وكنا ثلاثتنا بحب الادب متصادقين • وقويت صلة المودة بينى وبين حسن جدا، ومما وثقها طول جوار بالدامر ، وكنت فى التجهيزى وزمن المدرسة العليا كليهما أزوره ويستضيفنى فى داره كثيرا ، ثم ألقى نخبة من شباب الوطن الواعد فنتحدث ما شاء الله فى الكتب والادب والسينما وسائر قضايا الفكر والوطنية والدنيا والدين • وأيام التجهيزى ، زمان عطلة الصيف بالدامر كنا نتبارى ونتعاون أنا وهو وزميل الصبا أحمد عبد الله المغربى فى قراءة روايات الجيب ، وكان يعجبه أرسين لوبين وكنت وأحمد ربما آثرنا شرلوك هولمز •

كان هذا من طعام العقول أحب الى من مذاكرة المساء ومن درس الصباح بلاريب •

هذا ،

كان اذا مر فى ساعة المذاكرة المسائية أحد الاساتذة المعروفين بجودة التدريس وسأله التلاميذ فربما داخل ركود حجرة المذاكرة روح حيوية وحركة • من أولئك مثلا الاستاذ عوض ساتى رحمه الله :

ـ الله يجازيك يا عبد الله ، آنقل توينتي ثرى angle 123? ؟ عجبا •

•••• عجبا •• wonderful

ويشع من عينيه بريق الحيويـــة والانسانية والذكــاء •

كان يدرسنا الرياضيات فى سنتنا الثالثة • توفى رحمــه الله سنة ١٩٧٢م فى عشر السـبعين • صار من بعد مديــرا للكلية لما انتقلت الى وادى سيدنا وصـارت مدرسـة ثانوية عليا • وتولى ادارة مكتب النشر وأنشأ المجلـة الخفيفة الروح اللطيفة الاسـلوب « الصـبيان » وكان يكتب فيها باسـم العم سرور وكان جيد الاسـلوب مبينا وفى مكتب النشر عمل معه جماعـة من الفضلاء منهم من برز بعد فى الصحافة والادب ومختلف الميادين • وكان رحمـه الله أول من سـودنت به وظيفة مدير المعـارف وكانت من قبـل لا يتولاها الا البريطانيـون • كـان ذلك عام ١٩٥٣م أو ١٩٥٤م ، اتخـذ القرار السيد عبد الرحمن على طه وكان وزير المعـارف فى أخريات الفتـرة التى سبقت الحكـم الذاتى • وأحمـد للاستاذ عوض ساتى رحمــه اللـه وهو مدير للمعارف أنه سحب استقالة كنت تقدمت بها الى المسـتر ولشر عميد الكليـة الجامعية بنفسـه وعلى مسئوليته بحجـة أننى كنت منتدبا من المعـارف وأنه لا يرى صوابا أن أترك الكلية ، فكان ذلك من صنيعـه كالتـزكية لى بـلا أدنى ريب •

وقد ظلت صلـة الود القلبى بينى وبينـه واشجـة الى أن توفـاه اللـه (رحمه الله •) وأذكـر أن تذاكرنا قبيل وفاته ببضعـة أسابيع فى مسألة من كتاب الملل والنحل كان قد عرضـها على الفاضل الطيب الذكر العلامـة الحاج نوح محمد وكان رعـاه الله وحفظه وتولاه آنئذ سفير بلاده نيجريا فى السـودان • وكانت مذاكرتى الاستاذ عوض ساتى مما أعان على حلها • والمسألة فلسفية فى المقدمـة الخامسة من كتاب الشهر سـتانى المذكـور فحواها أن الواحد ليس حقا بعدد ولكنـه مقياس يقـاس به العـدد ، وأن حقيقـة العـدد زوج وفرد ، فأقل زوج ما كان من أثنين وأقل فرد ما كان

من ثلاثة • ورحم الله عوضا فكم قد حزنت لفقده القلوب :

أسيتُ على عوضٍ اذ مضى	أخا الفكر والنابه المطلع
وقد كان أوتى حسن البيان	وذوقاً رفيعاً به قد طبع
ورقة حِسٍّ وشخصيةً	ترى حيويتها تندفع
وكان يدرس علم الحسابِ	بمقدرةٍ تدهش المستمع
وكان يشارِكُ فى غيرِه	مشاركة المعارف المتسع
أسيت عليه وقد قلّ من	بمثل فضائله يضطلع
وكان يُسَرّ اذا جئته	وبالنصح عنى لا يمتنع
وشجعنى حينما غيره	لتثبيطهم عصبٌ تجتمع

رحمه الله ونضر ثراه •

كان من خيار المدرسين المستر براون وقد تقدم ذكره • والمستر هانكس وكان صبورا ذا أناة وتوضيح • وعمل بعد كلية غوردن ببخت الرضا • فبلغنى ان المنهج الذى صنعه وأعد مذكراته هو الذى اعتمد عليه خلفاؤه من بعد • والمستر جانسون سميث وكان يدرس الانجليزية وتأريخ أوربا الحديث ويهتم بالمسرح وله القاء مؤثر • وقد صار فى ما بعد الى جنوب السودان فى أواخر الاربعين وأوائل الخمسين • والشيخ البنا وكان وحده من المشايخ يحضر مذاكرة المساء أحيانا ، وكانوا لا يكلفون ذلك أو ينتظر منهم على زماننا •

هذا والغالب على ساعة المذاكرة بعد أنها كانت كما ذكرنا قليلة الجدوى • ربما اتفقت فيها الفائدة من سؤال المدرس اتفاقا • وربما أصاب التلميذ الجاد فى فرصتها هدوءا ما يمكنه من حل مسئلة أو رسم خريطة أو شكل هندسى أو قراءة صفحة أو صفحتين من كتاب مقرر •

كان تعويل التلامذة فى مذاكرة دروسهم حقا لا على ساعة المذاكرة الرسمية ، ولكن على شىء آخر اسمه الكب وهو الاكباب على حفظ الدروس فى جوف الليل على ضوء الشمع •

كانت الانوار تطفأ الساعة التاسعة مساء . انذار خمس دقائق ثم يسحب النور كله ولا يعود الى ما بعد الفجر صباحا . في المصلى الصغير بالقرب من قاعة الاكل (الصفرة) كان النور يعاد مع الفجر ، فمن ذهب اليه قرأ من كتاب الله وانتظر الصلاة ، صلاة الجماعة . ولم يكن عدد المصلين كبيرا ، كان صغيرا جدا بالنسبة الى عدد الطلاب الذين سيصيرون أفندية . . . الافندية الغالب عليهم لا يصلون . . . والتجهيزى كأنما كان فيه عنصر اعداد لترك الصلاة . . . ألم يكن قد قال الناس عندما فتح النصارى (أى الانجليز) مدارسهم الجديدة أنها ستفسد الاولاد . . والبنات أيضا . . .

أجيال من تلاميذ المدارس جاءوا من بعد جعلوا من الصلاة شعارا سياسيا ومتنفسا مثاليا واجتماعيا . . . ذلك لم يكن على زماننا . . . الذى كان على زماننا بقية باقية من محافظة أهل التدين .

الصلاة المتواضعة المنكسرة التى شهدنا زملاءنا فى داخلية المدرسة الوسطى يتحمسون لها . . .

التحمس كان منبعثا من روح الصبا .

عندما مر السيد على رحمه الله بمحطة بربر ، أحسبه كان قادما باكسبريس حلفا من مصر متجها الى الخرطوم ، ذهبوا الى المحطة وزاحموا مع الزحام عند شباك القمرة التى كان هو فيها .

وكانت الدلوكة (ضرب من الدفوف) تضرب والنساء يغنين :

يا جيدٌ لينا بى سيدى
ان شا الله يطول عُمُرْ سيدى

وهى كلمة نشيدية تضيف اليها الشواعر أصنافا من الهزج :

سيدى مرَّ بالزيداب وَقفنْ له الخُلُوق تيتابْ
سيدى مر بالبابورْ زغردن بنات كِنُّور

سيدى قالوا شال حلفا
قطره فى القضيب يلفى

سواقه مكمل العِرفه

كِنُّور قرية بين أتبرا وبربر ، أقرب الى أتبرا . وَيلْفَى أى يمس القضبان بسرعة كأنما يتناول بذلك اللّفاءَ أى الشىء القليل . مكمّل العرفة ، أى بالغ مرتبة الكمال فى معرفة عمله .

كانوا كلهم يتصايحون ، أعنى التلاميذ ، وغيرهم ، رافعى أيديهم نحو نافذة قمرة السيد يطلبون البركة .

ـ يا با هاشم

ـ يا ود مِسَّاوِى

كان يقول ذلك بعض التلاميذ الكبار والصغار .

كان الناس على الجملة فى ذلك الزمان ، أوائل الثلاثين ، بسطاء فيهم سذاجة بداوة قرانا الفقيرة وانسانيتها .

◇◇◇◇◇◇◇◇ ◇◇◇◇◇◇◇

كان « الكبُّ » فى سمعته مذموما

ـ دا واحِدْ كبّاب

يقال ذلك لمن يراد الطعن فيه والدعوة الى الاعراض عنه وعدم الثقة به .

ـ شوف الكبّاب دا .

يقال ذلك لمن يبدى اجتهادا فيقصد الى التهكم به بغرض تثبيطه والفت فى عضده .

ومع أن روح الجماعة كانت هكذا معادية له ـ أى الكب ـ كان أمرا ضروريا لا بد منه لمن يريد النجاح . . .

وكان كل أفراد الجماعة التى روحها معادية له ، يريدون النجاح . . . فنشأ من هذا التناقض عنصر سرية والتواء واضطراب مقاييس ازاء الكبّ . كان الشمع رخيصا ، وحفظه فى « الدولاب » ممكن فى يسر وخفية . . . فاذا نام الآخرون والقى الليل بصدره على الارجاء ، دب الكباب من حيث هو نائم مع رفاقه خارج العنابر على الميادين ، الى داخل العنبر الحار ببقية أنفاس نهار الصيف ، وفتح مصراعى « دولابه » وأوقد الشمعة ، ووضعها

فوق حافة رف الدولاب ، وافترش بطانيته فى ما بين مسـافة المصراعين فكانا له سـاترين ، واذا كان « دولابه » فى ركن فذلك سـتر كامل ، لأن الجـدار يسـتره من خلفه والدولاب نفسـه من أمامه •

فاذا اطمأن لهذه الخلوة اسـتخرج أدوات « الكب » : الكراسـة وكتاب المقرر وانكب على ذلك انكبابا وأكب أكبابا اذ هو يكب كبـا والعرق يسـيل مـن جبينـه وفى جـلابيته •

ويدخل فى العنبر الذى خالطت ظلمات ركن منه أضـواء الشمعة المستورة من كل جانب الا من فوق ، آخر كباب يدب دبيبا • وقد يرفع الذى دخل أولا بصره بدافع من حب الاستطلاع فيعرف من الداخل • ان دخل أحد الروساء أو شـخص لا يأمنه فانما هى نفخة واحدة وتختفى الشـمعة فى الدولاب ، وشرح مكانه على البطانية غير عسير : شكا ألما صداعا أو نحوه •

وان لم يكن الداخل رئيسـا أو شـخصا يخشـاه فالاشـتراك فى سرية جريمة « الكب » يوقع بينهما نوعا من معاهدة عدم اعتداء ـ كأن كلا منهما يـدعى عـدم احسـاس بوجـود الآخـر •

ويوقد الداخـل الجديد شـمعته ويفتح مصراعى دولابـه •

وفى الشـتاء ، عندما يكون النوم فى داخل العنابر ، ربما اسـتطاع واحد أو اثنان فتح دولابيهما واسـتيقاد شـمعهما واضفاء سـتر من البطانية كالخيمـة ليحـد مـن انتشـار الضـوء •

والكباب الحاذق أكثر ما يصـنع فى الشـتاء أن يعين لنفسه موضعا خارج العنبر عند ركن يقيه من ريح البرد يأخذ كراسـته وشـمعته اليه • وربما ذهب بعض التلاميذ فذاكروا عند مصـباح الشارع • وكان للطائرات المائية « كشـك » وخفير بالقرب من شـاطىء النيل شمالى الكلية غربى القنطـرة شـيئا فكان بعض الطلبة ربما ذهبوا فذاكروا هناك لا يعلم بسرهم أحد •

على أن الكب كان يعلن سر أمره وتنخفض مذمة الاقبال عليه عند اقتراب الامتحانات النهائية• فحينئذ كان يذاكر الطلبة مجموعات مجموعات تستعين

بمن يكون أحذقها فى مادة المذاكرة ••• فينكفئون على الكراريس معا ويتداولون المراجعة لأصناف العلوم ويحل أبرعهم فى الرياضيات لهم مسائل الجبر والهندسة ويفسر مغامض علم الحساب •

كان موضع المذمة فى الكب أنانية طلب الانفراد بالتبريز ــ فمشاركة الجماعة تذهب بذلك •

كان طلب العلم فى الزمان القديم عندنا نوعا من التدين وروم الزهد والانقطاع عن الدنيا • وكان العالم يسمى الفقير • وكان هذا الفقير ربما نظر اليه بمزيج من احترام واستضعاف : يحترمونه اصلته بالدين والغيبيات ، ويستضعفونه لعدم مشاركته فى الكسب واعتماده على الصدقة والهدية ، وأنه لا يشارك فى القتال •

لا يناقض هذا معنى الاحترام الذى كانت تجده بعض البيوت الدينية اذ أصل شرفها من ولاية جد أنقطع من الدنيا كل الانقطاع • على أن هذا الاحترام قد أصابه تضخم بتأثير التركية السابقة (١٨٢١ ــ ١٨٨٥م) والحكم الثنائى (١٨٩٨ م ــ ١٩٥٦ م) لا أحسبه كان من طبيعة أصله هذا • ثم ان عدد الفقراء كان قليلا فكان المجتمع يقوى على احتمال اعاشتهم مقابل ما يؤدونه هم من عمل الارشاد الدينى وتعليم القرآن واقامة الشعائر والمواسم والانكحة واصلاح ذات البين والوساطة والتطبيب والعزائم وهلم جرا • ثم بعد هذا كان منهم من يشارك فى نشاط كسب العيش وفى القتال اذ لزم • وكان يقال : الفقير فلان ماهو فقيرا هِوَيِّن (تصغير هيِّن) ، هو عصا وكرباج (الكرباج السوط) يعنون أنه مشارك فى أكثر من نشاط واحد يغنى لصاحب الفرس والبعير والعصا كناية عن الخدمة والكدح لانها للفلاح والراعى • هذا ، وكان كلما ازداد انقطاع الفقير الى الذكر والخلوة والعبادة وأمر الدين كان ذلك مما يدنيه الى الولاية وشرفها الباقى ومما يعتز به مجتمعه ويفاخر لما يعود عليهم من بركته ونفعه وسمعة أحدوثته •

الصنف الجديد من « فقراء كلية غوردن » كان أمره مختلفا جدا • كان

من البدء معلوما عند الناس أن المدرسة سبيل الوظيفة ومن يوم دخولك المدرسة فهم فى انتظار يوم أن يرتبوك • وفائدة الرتبة كما كان يبدو حينئذ لم تكن تتعدى الفرد وأسرته ، لم تكن شيئا ذا نفع شامل كالصلاح والانقطاع الى الدين الذى كان عند فقراء الخلاوى •

فى المجتمع القروى يفشو الحسد القروى • وأكثر مجتمع السودان ريفى قروى رعاوى لا يشذ عنه فى ذلك الا بعض الاقليات المستوطنة بالمدن وهذه قد جعلت بأخرة تتطبع بطبعه تقية وطلبا للبقاء ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا •

والحسد القروى أظهر ما يبدو فى معارضة أى ميل يمد به صاحبه الى بلوغ مستوى من المعيشة والجاه أرفع من مستوى سائر أفراد القرية ولا يستطيعون المشاركة فيه مباشرة •

حتى من يفتح الله عليه بزيادة فى الزرع والضرع يتظاهر بسوى ذلك خوف الحسد والعين •

مع أن الفقر كان غالبا • « والشبع » وهى الكلمة التى كانت تستعمل للدلالة على الغنى انما كان مرتبة من مراتب حال فقرهم المحتملة أكثر منه درجة من درجات ارتفاع المعيشة والثروة وغنى المال الكبير • كان طعام الناس وفراشهم ومساكنهم وزينتهم أمرا متشابها •

أدخلت تلمذة المدارس فى حياة الناس نوعا جديدا من التنافس • بعد مرحلة معارضتها الاولى خشية ما ستجر من فساد كانت معارضة من نوع آخر ••• انها ستتيح لبعض الناس فرصة تبريز وجاه يرتفع بهم عن مستوى القرية • ما كان يخطر بالبال أن مثل هذا التبريز وهذا الجاه عسى أن يكون مفيدا للقرية يرتفع به تدريجيا مستواها كلها ••• وعسى أن يكون مفيدا للوطن يقوى به على مكافحة صراع هذا العصر الحديث •

فى التجهيزى نفسه كان روح الحسد القروى موجودا ، من جرائه كان انصراف أحد التلاميذ بجد واضح ينظر اليه شزرا لانه محاولة للتبريز •

من فوائد هذا الذى سميناه « الحسد القروى » بالنسبة الى المجتمع

القروى على طبيعته القديمة وفطرته أنه كان بمنزلة الوازع يدفع الى المشاركة والمساواة والتعاون ويحول دون الطبقية •

ولكنه تمقد بالنسبة الى المجتمع الجديد فغلب جانب الضرر فيه على جانب كل فائدة •

كانت خلفية أفراد تلاميذ التجهيزى ذوى الجلابيب المكوية والعمائم الانيقة والمظهر المتحضر مع الحظ الذى نالوه من علوم اوروبا فى أسرارها وأغوارها قروية رعاوية ريفية بدوية يرين عليها قشر القشف والشظف القديم •

كان « الشبع » فى المجتمع القديم لا ينبغى أن يتجاوز أن يكون مرتبة محتملة من مراتب ما فوق الكفاف •

والنجاح المدرسى الآن لا ينبغى أن يتجاوز مرحلة محتملة فوق المتوسط الذى عليه سائر الأفراد •

والنجاح بعد المدرسى — عندما يتخرج التلاميذ — ينبغى أن يكون بهذا القدر وعلى هذا المستوى •

والترقيات تكون بالدفعة • نترقى الدفعة كلها معا •

هذا ••••

وكان الاستعمار لا يريد من تلميذ التجهيزى أن يكون نابغة مبرزا • بل هذا كان لا يتصور لاعتقاد الرجل الابيض آنئذ وجود تأخر أصيل (عنصرى قل أو فيزيولوجى) فى أصناف أفراد المجتمعات الافريقية تمنعهم من التبريز ولن يساووا الرجل الابيض أبدا مهما يجتهدوا أو يجتهد لهم • مع هذا ، عملا بسد الذرائع ، كان من يبدو منه من أبناء الاهالى تفوق يشعر بخطر يقال له كنسيتد conceited (أى مغرور) • وهذا يفلل من أنياب تطلعه وحيويته ويجعله ينسجم مع الذى يراد من المجموعة من حيث هى كل واحد •

طبيعى أن يسر المدرس الابيض حسن استجابة تلميذ من تلاميذه وذكاؤه • وقد يهم بتشجيعه • ولكن هذا هو الاغراء temptation

الذى تجب مقاومته • التجربة التى تدعــو المسيحى ربه ألا يوقعــه فيها •
كان الاستعمار يريــد من تلميذ التجهيزى أن يكــون مواظبا مثابــرا نظيفا منتظمــا مطيعــا سعيــدا •

قال ابن خلدون رحمه اللــه فى المقدمــة : « ان الخضــوع والتملّقَ من أسباب حصــول هذا الجاه المحصّــل للسعادة والكســب » •••

وهكذا اجتمع الحسد القــروى الوطنى السَّنْخ ، مع الحسد الاستعمارى الغــازى الأجنبىّ الدخيل على مقاومة التفوق وقتل المواهب وروح الاصالة والتبــريز • وكانت تقيــة الاقليات المستوطنة وحرصها على البقاء الــذى قدمنا ذِكرَه ــ وكانت هى موضع ثقة مامن الاستعمار ــ مما يعمقهذا الداء :

وكأَنّا لم يرْضَ فينا بريْب الدّ   هرِ حتى أعانَــهُ من أعَانــا

مع هــذا كان البرنامج يتطلب من تلميذ التجهيزى أن يكــون فى دروســه جيدا حتى يصلح لان يكون أستاذا ومهندســا وطبيبا فى الاطــار الــوطنى (وطنى ههنا بمعنى native) ومعنى الجــودة فى هذه الحالــة التوسط الذى يمكن أن يشترك فيه الكثيرون ويعاملون من حيث هم مجموعة وكل •

والكب كان مما يوصــل الى هذا المستوى فى حــدود المشاركة والسرية التى حــددها له مجتمــع الكليــة •

كمــا كان فى القريــة كل عمل وأمــر يشترك فيه الجماعــة مقبــولا محمودا ــ الموت وســط الجماعــة عرس ــ (هكذا يقول المثل) ــ كــذلك كان التشــارك فى « الكب » مقبــولا •

واذ الم يكن التشــارك ، كانت السرية فيه ضروريــة •

وهما معا (أى التشــارك والسرية) من أهم ما كانت تلتمس به أسباب السلامــة والبقاء فى مجتمع التجهيزى • وشىء من معــدن روحها يبقى بعد التجهيزى ليعين فى حيــاة الافندية التى انما التجهيزى لها توطئــة وتمهيد •

حياة التسابق فى مضمار جاه الترقى وطلب مرضاة الرؤساء • كان الكب لايعدو ما فى الكراسات والكتب المقررة فهذا كان يضمن له توسط الجودة وقطيعيتها •• ذلك هو المطلوب ••ذلك هو طريق الحظ والسعادة •

كان التبريز النادر حين يقع قلما يتجاوز محض المهارة والحذق المحدود الى النبوغ الحقيقى مطابق لاعتقاد عقلية الرجل الابيض فى امكانيات الرجل الافريقى الاسود تماما •

كان يشذ من التلاميذ أفراد ــ يقرأون •

ولكن ما كانوا يقرأونه كان خارجا من نطاق منافسة التبريز فى علوم الدروس فى ما يبدو •

كانت للمكتبة حصة فى الجدول ، ولكنها كانت مثل المذاكرة الرسمية ضعيفة الجدوى اذ كانت بلا طريقة ، وعسى من كان يكلف بها لم يكن بجدواها مؤمنا • حرص المستر سكوت على تحبيب التلاميذ فى المكتبة وجلب اليها فونوغرافا كهربائيا كبيرا وألف أسطوانة كلاسيكية وكان أثر ذلك شيئا مختلطا ••• يقبل عليه من يقبل بحذر ويحجم عنه من يحجم بحذر كسائر شعور الطلبة نحو المستر سكوت •

قراءة المجلات والروايات البوليسية كانت من نوع التسلية الذى لايثير تعليق حسد أو زراية تثبيط • كانت ظاهرة عدم الجدوى ، خارجة عن مضمار المنافسة فى ما يظهر كل الخروج •

كانت قراءة روايات الجيب ربما أفادت اسماح سلاسة فى كتابة الانشاء • ولكن هذا من جدواها لم يفطن له أحد • انما تنبهنا اليه حين مارسنا التدريس • عنصر ضياع الزمن فيها كان واضحا • والذى يقبل عليها بدون شك غير « كباب » ، ولعل فى اقباله عليها هذا نوع بطولة خفيفة الظل تتحدى سماجة كتب المقرر وكراساته •

قراءة كتب الادب أيضا شىء عديم الجدوى أو محصورها فى نظر تلميذ التجهيزى لانها لا تتعدى دائرة الافادة فى مادة اللغة العربية على

أحسن الفروض • وكانت مادة العربية من حيث النظـرة الى مستقبل الجاه والوظيفة ونجاح الدنيا لم تكن حقـا محترمـة أو ذات وزن • قارىء كتب الادب ينظـر اليه بنوع من رحمة واستضعاف ، وفى نفس الوقت بنوع من اعجاب واحترام لعله من بقيـة روح احترام الفقراء القـديم • شبح منه بعثتـه العـادة بعـد أن قـد مـات •

لم يكن كبابا • كان يكره الطريقـة التى يرى بها أكثر رفاقـه الكبابين يكبون • وكان يخيل اليه جهـلا أن الاصل فى مذمـة «الكب» أنـه يـدل على البلادة • وكان ينفـر من البلادة كل النفـور • ثم كـان بعض طيش الصبا يزين له أحيانا كثيرة أن يظهر بمظهر بطولة من عـدم الاكتراث بالكب مع هـذا كان يذاكـر •••• هذا أنقذه اذ طوح طيش الصبا ورغبة الظهور ببطولة عـدم « الكب » بأذكياء كثيرين أولى وعـد فكرى واضـح •

عادة القـراءة التى اكتسـبها من أول الصغر لم تدعـه ••

كان يكره ضـوء الشـمع ، ويشمئز من رائحتـه وما استعملـه طـوال سنواته بالكلية كلما انفتح مصراعا دولاب واصـفر الشعاع من تلقائهمـا أو نفخت شعلـة شمعة وفاحت رائحـة دخانها كانت تضيق نفسـه بذلك ضيقا ويزدريه ازدراء • وذلك وجه « كبّاب » بدا ظله مضاعفا على الجدار ، وظل الخيمـة الكبيرة التى هى بطانيتـه

– يا خونا ما تخلـونا ننـوم !

– نحن عباقـرة زيك ؟

كان يشارك زمـلاءه فى « الكب » الصريح الواضح الذى هو انمـا هـو مذاكرة مراجعة حين يقترب وقت الامتحانات ، فيفيد ويسـتفيد • وربمـا اتفق الرضا عن عبقريته فى هذه الحـال والاعجاب بها

– يا اخى ماهـو ممتـاز !!

« والمـوت مع الجماعـة عِرْس »

وكان له صـحب خارجية فحين يحمى وطيس المذاكرة لقرب الامتحان يقيم مع صـديق له منهم اليوم واليومين فيواصـلان التحصيل مـدة قصـيرة ناجعة تتصـل فيها قراءة النهار بقراءة الليل فى ضـوء مصباح كهـربائى باهر واطمئنان مريح بمنآة عن الشـمع الخبيث •

كـان طـول السـنة يقـرأ ••••

كان يقرأ الكتب المقررة فى أول العـام قراءة متصلة ، ربما قرأ أثناء حصص دروس النهار ، يكون المدرس فى واد وهو فى واد آخر ، أمامه كتاب الجغرافيا فى أثنـاء حصـة العلوم لانه بدأه مثلا أول ذلك الصباح ، وكتاب التأريـخ فى أثنـاء حصة الانجليزى لانه على وشـك أن يفرغ من قراءته •

كان الاستاذ محمد عثمان مرغنى شـكاك ، أثناء تدريسـه كتاب المطالعة الانجليزية المترجم من ألف ليلة وليلـة من قصـة عجيب وغريب ، فـربما فطن لذلك من أمره فأشار اليه ليقرأ على غير توقـع منه لذلك ، فيضطرب فى معرفة موضـع ما انتهى اليه دور القراءة آنذاك ، فيشير اليه أن يخرج • ويضحك زملاؤه الذين كانوا مراقبين لذلك ويتوقعـون طرده • زامل هـو الاستاذ محمد عثمان مرغنى رحمه الله فى ما بعـد فى التدريس لما كان هذا ناظرا لمدرسـة التجارة الثانوية الصغرى • وأدرك حينئذ أنه رحمه الله كما كان يروم تأديبه وعظته وعظة زملائه بذلك الطرد له ، كان أيضا لم يخل من القصد الى أن يتيح له فرصـة متابعـة ما كان يقرأه بتركيز شديد • كـان يناديه قبل انتهاء الحصـة ، فربما طلب منه أن يقرأ ولا يعلق على ما كـان بشىء • وكان تكرر منه مرات جعله اذا وقف فاضطرب فى معرفة موضـع دوره من القـراءة بادر أحد زملائه من ورائه فقال له : « أخرج » • وتقع الاشـارة من الاستاذ بذلك فى ما بعد •

وربما أشـار الاستاذ محمد عثمان الى المبـادر هو نفسـه أيضـا أن يخـرج — ويضـحك الفصـل ••

ولا يضـحك الاسـتاذ •••

بل كان يشـــير بهدوء براحة يده كلها علامة طلب الســكوت ••• رحمة الله عليه رحمة واسعة •كان من أفذاذ قدماء الخريجين ومات ولم يبلغ الخمسين• جمع الى الثقـــة بالنفس بساطة بلدية غير متكلفة ولا ساذجـــة مع حــــزم وواقعية ووضوح تفكير وقوة عارضـــة ، وشجاعة رأى • كان تخصصه فى علم الاقتصـــاد ، ودرسنا مبادئه وكان ذلك مقررا علينا فى السنة الثالثـــة • فأمثال (النفع الضعيف أو الهامشى) Marginal utility

و (قاعدة العائد المتناقص أو المتلاشى أو قانـــون العائد المتناقص الخ)

انما أفدناها منه • وكان يجتهد أن يطبق علم الاقتصـــاد تطبيقا عمليـــا • ومن خير أمثلة ما صنـــع من ذلك انشاؤه نادى الصغار لطلبة كلية غوردن ، فكان ناجحا ، تولى ادارة دكان بقالة الكلية ومقهاها ، وأفاد منه الطلبة الذين اشتركوا وساهموا خبرة جيدة وبعض مال • وانشأ ناديا مثل ذلك فى مدرسة التجـــارة الثانوية الصغرى حينما تولى نظارتها •• وكان رحمه الله حسن التدبير للمال ، ينتقد أشـــد الانتقاد ما كان عليه جيل شبابنا آنئذ من تبذير وســـوء تدبير ، ولا يرى تدخين السجائر الا طيشا بالغا ، لانه ، كما كـــــان يقول ، انفاق فى غير مقابل ، اذ لا يفيد صاحب دخـــان السجائر لذة حقيقية كما يفيد صـــاحب الخمر مثلا على استـــهجان هذه وحُرْمتها • وكان يعـــين بالمال حين يستعان ويســـاعد بلا تردد حين يقتنع بضرورة ذلك • هـــذا وله تصانيف ، فكان من أول من صنفوا من رواد فكرنا الحـــديث • منها كتابـــه « أسفار محمد عثمان مرغنى » ووصـــف به رحلة بعثة بعثها وكان من أوائل من أوفدوا الى شـــمال نيجريا ليعينوا فى أمر التعليم هناك ، ووصـــفه لتلك البـــلاد أيام بعثته فيها ممتع ومفيد وسجل لظواهر اجتماعية لعلها الان أن تكـــون قد تغيرت كل التغير • ولعل من أثر تلك الرحلة على الاستاذ محمـــد عثمان مرغنى أنه كان قوى الايمان بمنفعـــة الرحـــلات المدرسية للطلبة ، فكان أول من نظم لطلبة الكليـــة رحلة مرتبطـــة بدروســـه فى الاقتصـــاد ، سافر بهم فيها الى المديريـــة الشمالية ليروا مشاريعها • واتبع منهجها من

بعد نظمت رحلة لنا لما كنا بالسنة الثالثة (فى سنة ١٩٣٨ م) فزرنا بوررسودان وأركويت ، لنستكمل الصورة التى كنا المنا بها من قبل من زيارة قصر الحاكم العام ، اذ كانت أركويت مصطافه • وقد كانت أركويت مصطافا لاهل سواكن فى الزمان القديم • ومن ناحيتها نجم الامير عثمان دقنه بطل حروب المهدية المشهور • وبورسودان أنشأها الانجليز ليخملوا بها سواكن ، ومما يزعم أن ميناء سواكن لم يكن ليصلح للسفن الحديثة • وفى الامر نظر • وصدقت صاحبة سبأ اذ قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة اهلها اذلة •

هذا ، ثم نظمت لسائر دفعتنا ونحن بالسنة الرابعة رحلة كبيرة فزرنا مناطق مختلفة من مديرية كردفان •

هذا ومن تصانيفه كتاب فى حساب « الدوبية » ومسك الدفاتر الحديث منه أفاد تجارنا ، وعلى الطريقة التى وضعها كانوا يعتمدون ، وربما استعان به بعضهم أحيانا فى مراجعة دفاترهم • وكان الغالب على التجار أولاد البلد الاعتماد على الذاكرة والقصاصات والكتابة بلا منهج • وهذه الفوضى كانت تنعكس فى طريقة عرضهم بضائعهم • فالذى حاوله محمد عثمان مرغنى من الاصلاح فى هذه الناحية كان عظيم الفائدة وهادفا الى تطوير البلد فى غير ما كبير دعاية • هذا وكان رحمه الله له مكان بارز فى أوائل الحركة الوطنية ومؤتمر الخريجين • وكان يلبس الدمور لانه صناعة وطنية وشبط ملجأ القرش وأحسبه كان عضوا فى لجنته • وانتخب مرارا فى لجنة المؤتمر الستين وفى لجنته التنفيذية وهى لجنة الخمسة عشر • وفى سنة ١٩٤٢ م كان صوته فى هذه اللجنة ، حين استوت أصوات الجانبين المتنافسين هو الذى رجح رئاسة الاستاذ ابراهيم أحمد ، فى ما بلغنا ، وكان ذلك عام المذكرة التى تقدم بها الخريجون الى السير دغلاس نيوبلد Sir Douglas Newbald وكان السكرتير الادارى آنئذ The Civil Secretary أى رئيس الحكومة • وقد ورد نصها

وهى باللغة الانجليزية فى الكتاب المتضمن رسائل السير دغلاس نيوبلد نشر بانجلترة •

انما أنشئت كلية غوردن لتكفر عن قتلى كررى بانسانيتها فيما زعموا ، ولتدرب أبناء الاهالى على ما عسى أن يمكنهم من معاونةرجال الحكم الثنائى الانجليز ، من حكم الاهالى السودانيين •

الآن خريجو كلية غوردن ، ممثلين فى مؤتمرهم ولجنتيه الستين والخمسة عشر ورئيسهم الاستاذ ابراهيم أحمد الذى عرف بأنه رجل معتدل الرأى reasonable man قد تقدموا بمذكرة يطالبون فيها بحق تقرير المصير • أى بانهاء دور المعين فى حكم الاهالى ليباشروه هم بأنفسهم ••• وقديما قال جذيمة الابرش لابن أخته عمرو بن عدى :

أُعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

وتلك الايام نُداولها بين الناس •

ولو لا دفعُ اللهِ الناس بعضهم ببعضٍ لفسَدتِ الأرضُ ولكنّ اللهَ ذو فضلٍ على العالمين •

توفى محمد عثمان مرغنى شكاك رحمه الله سنة ١٩٤٧م فى صيفها بداء القلب والبلد اليه أحوج ما تكون • وقد أخذ الصراع الوطنى يحتدم •

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح ••• أم للكلام بقية والحديث ذو شجون •

والحمد لله أولا وأخيرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا •••

صلاة ننجو بها من الأهوال

وننصر على كل حال

آمين

فـــاس ١٥ ربيع الثـــانى
١٤٠٠ هـ

وهى آخر أعـــوام القـــرن
الرابع عشر الهجـــرى كما
لا يخفى ،

وفى منظومة ولـــد دوليبب :

واختلفوا فى رابع القرون
هل كاملٌ أو ناقص التكوين

والله تعالى
أعلـــم .
عبد الله الطيب